سلسلة الدراسات التوثيقية 24

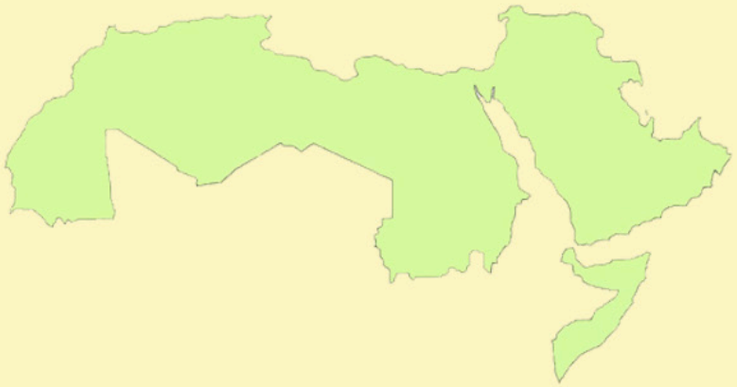

مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع

أ.د. عبد الرحيم محمد خبير

الطبعة الأولى 2022م

مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع – أ.د. عبد الرحيم محمد خبير

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التوثيقية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات و البحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

24 سلسلة الدراسات التوثيقية

مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع

أ. د. عبد الرحيم محمد خبير
كلية العلوم الإنسانية
جامعة بحري - السودان

2022م

الكتاب : مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2022م

التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود

فهرسة المكتبة الوطنية اثناء النشر - السودان
962,401 عبد الرحيم محمد خبير حسن، 1956
ع م.م
مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع/عبد الرحيم محمد خبير حسن
ط،1. - الخرطوم: ع. م. خبير، 2022
250ص ، 24سم
ردمك ISBN 978 - 99988 - 815 - 7-0
1. السودان - آثار. 2. الحضارة العربية. أ. العنوان.

رقم الإيداع: 1011/ 2022

حقوق النشر محفوظة للدار

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الدار.

إن دار إريثيريا للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن أراء المؤلفين وأفكارهم، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلفين ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution
جوال : 00249121566207 -00249910785855
arithriaforpublishing@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله فاتحة كل خير)

اهداء

إلى أسرتي الصغيرة التي منحتني الدعم المعنوي لكتابة هذا المؤلف وإلى تلاميذي الملهمين طوال أربعة عقود من الزمان1982–2022م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	9-8
تقديم	12-10
الفصل الأول: البحث العلمي والآثار في السودان	135-13
المبحث الأول : البحث العلمي في السودان أيام زمان	18-14
المبحث الثاني: علم الآثار : التعريف والماهية	21-19
المبحث الثالث : موجز عن تاريخ العمل الآثاري في السودان	26-22
المبحث الرابع : رواد علم الآثار الأوائل في السودان	33-27
• عبد الرحمن آدم محمد	28-27
• ثابت حسن ثابت	29-28
• نجم الدين محمد شريف	30-29
• أحمد محمد علي الحاكم	33-30
المبحث الخامس : مواضيع آثارية	107-34
• هوية السودان القومية : قراءة آركيولوجية – تاريخية	48-34
• حول محاضرة الباحثة الألمانية أنجليكا لوفاسر بعنوان: "الملوك الكوشيون قبل الأسرة الخامسة والعشرين"	54-49
• الحضارة الكوشية – المروية بعيون غربية	61-55
• المتغيرات التقنية ودورها في حوار الحضارات: السودان القديم نموذجاً	73-62
• الحيوان في الحياة السودانية : بانوراما تاريخية	78-74
• الباحثون السودانيون والعمل الآثاري في المملكة العربية السعودية	85-79
• البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة (مراجعة نقدية لكتاب الأستاذ الدكتور على فهمي خشيم) .	90-86
• خواطر آثاري في بلاد الفايكنقز	96-91
• حول المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات النوبية (المتحف البريطاني – لندن 2010م)	101-97
• حول المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية(نيوشاتل–سويسرا 2014م)	107-102

المبحث السادس : تجارب أكاديمية برفقة ثلة من كبار العلماء	135-108
• أحمد محمد على الحاكم	114-108
• عبد القادر محمود عبد الله	116-115
• بيتر شيني P.Shinnie	119-117
• راندى هالاند R.Haaland	121-120
• وليم آدمز W.Adams	125-122
• ديفيد بيكوك D.Peacock	128-126
• غانم وحيدة	130-129
• عبد الرحمن الانصاري	133-131
• فكري حسن	135-134
الفصل الثاني : الإبداع الثقافي	191-136
• الجمال من منظور الفن والعلم	139-137
• الشعر وصياغة الشخصية الإنسانية	142-140
• ركائز الإبداع في الشعر العربي	145-143
• قصيدة النثر في المشهد الشعري العربي	151-146
• التداوي بالشعر: دراسة سودانية أنموذجية	155-152
• حول الاحتباس الحداثي في الشعر السوداني : الستينات نموذجاً	161-156
• العلامة عبد الله الطيب : ذكري متجددة	166-162
• الناقد إحسان عباس والحركة الثقافية في السودان	170-167
• الأديب إحسان عباس والسودانيون في (غربة الراعي)	177-171
• عباس العقاد : حياته وفكره وعلاقته بأهل السودان	182-178
• دور خريج كلية الآداب وسؤال الإبداع : النموذج السوداني	186-183
• الهويات الثقافية في عصر العولمة : منظومة الدول النامية نموذجاً	191-187
الفصل الثالث : دراسات ومقالات في قضايا المجتمع	249-192
• البحث العلمي والتنمية في العالم العربي : رؤية مستقبلية	200-193
• في ذكري اليوم العالمي للمعلم : 5 تشرين/أكتوبر من كل عام: منظومة التعليم العربي إلى أين ؟	205-201
• من تاريخ التعليم في السودان ، أم درمان الأهلية الثانوية الحكومية (1968-1972م) : ذكريات الصبا	214-206

• ملامح من العيد في أم درمان أيام زمان .	220-215
• الألعاب الشعبية لأطفال السودان : رؤية مستقبلية .	224-221
• مصادر التمويل الأصغر ودورها في التغيير الاقتصادي والاجتماعي : بنغلاديش والسودان نماذجاً .	229-225
• استثمار الزمن في صناعة الحاضر والمستقبل .	234-230
• استقلال السودان : قراءة جديدة للشواهد التاريخية .	241-235
• السودانوية وهوية السودان القومية : دراسة حالة ثورة 19ديسمبر 2018م.	249-242

تمهيد:

يتناول هذا المؤلف مواضيع عديدة كتبت في تواريخ متباينة في العديد من مواعين النشر الورقي والإلكتروني بغية الاستنارة المعرفية والتوعية الثقافية. ويحتوى فهرس المحتويات على ثلاثة فصول قسمت بدورها إلى عدة مباحث فرعية .

اشتمل الفصل الأول في مفتتح مبحثه على تاريخ البحث العلمي في السودان بوجه عام والآثار على وجه التخصيص متضمناً تعريفاً لعلم الآثار وتبياناً لأهميته ونبذة تاريخية للسير الذاتية للرواد السودانيين الأوائل في هذا المجال.

ويتضمن المبحث الثاني لهذا الفصل مواضيع آثارية متنوعة ابتدرت بإيضاح لمساهمات السودان القديم في الحضارة الإنسانية ، إيراد بانوراما لمملكة كوش في عهد الأسرة الخامسة والعشرين (900 ق.م – 350م) ، نظام الحياة الاقتصادية والروحية – الدينية ودور الحيوان الفاعل فيها .

وأشير إلى الباحثين السودانيين والعمل الآثاري في المملكة العربية السعوية. وأختتم هذا الفصل بمراجعة نقدية لفرضية عروبة اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) وذكريات التجارب الأكاديمية للمؤلف في مسار حياته العلمية والمهنية مع نخبة من كبار علماء الآثار في السودان والجزيرة العربية وأروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

أفرد الفصل الثاني لدراسات من الإبداع الثقافي في مجال الفن والشعر العربي ودوره في العلاج النفسي وصياغة الشخصية الإنسانية ويترافق ذلك مع مراجعة نقدية لقصيدة النثر في المشهد الشعري العربي . وإحتوى الفصل أيضاً على ملامح من الحياة الفكرية لثلاثة من كبار علماء العربية (عباس العقاد ، عبد الله الطيب وإحسان عباس) ، دور خريجي كلية الآداب في

الإبداع كما يتراءى من النموذج السوداني. وأنهي الفصل بدراسة عن الهويات الثقافية للدول النامية في عصر العولمة.

خصص الفصل الثالث لدراسات ومقالات في قضايا مجتمعية :

الرؤية المستقبلية للبحث العلمي والتنمية ومنظومة التعليم في العالم العربي،ذكرى اليوم العالمي للمعلم ، تاريخ التعليم الأهلي في السودان : أم درمان الأهلية الثانوية نموذجاً ، ملامح من مظاهر الأعياد في السودان أيام زمان ، الألعاب الشعبية لأطفال السودان،مصادرالتمويل الأصغر وكيفية الإستغلال الأمثل للزمن في حياتنا المعاصرة ، ذكرى استقلال السودان عبر أطوال التاريخ ، فمقال عن هوية السودان القومية من خلال دراسة حالة ثورة 19 ديسمبر 2018م .

ولا يسعني في هذا المقام إلا التوجيه الشكر والتقدير لأستاذ الأجيال البروفسيور إبراهيم عكاشه علي (مؤسس كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة جوبا1998م) لكلماته الطيبة تقديماً لهذا الجهد العلمي . والشكر مستحق للأستاذ عزالدين حمد فضل السيد لما قام به من جهد في التصميم الفني للكتاب. والشكر أجزله للأستاذ النور أيدام محمد معلي لما قام به من تنسيق وطباعة بعض المقالات التي تشكل جزء من محتويات هذا المؤلف.

أ. د. عبد الرحيم محمد خبير

تقديم الأستاذ الدكتور إبراهيم عكاشة على

لكتاب "مدارات سودانية في الآثار والثقافة والمجتمع"

يسرني أن أكتب هذه المقدمة لمؤلف قيم للأستاذ الدكتور عبد الرحيم محمد خبير موسوم ب"مدارات سودانية وعربية في الآثار والثقافة والمجتمع" . وهو عبارة عن مجموعة من الدراسات والمقالات العلمية والثقافية ، فضلاً عن مواضيع تعنى بقضايا المجتمع في التعليم والاجتماع والاقتصاد والهوية القومية . وقد كتبت هذه المواضيع في أوقات مختلفة في بعض الدوريات العلمية ، الصحف اليومية ، الملاحق الثقافية والمواقع الأسفيرية بهدف التنوير ورفع الوعي الثقافي لعامة الناس. ويحتوى فهرس الموضوعات على ثلاثة فصول ، جاء عنوان الفصل الأول عن البحث العلمي وعلم الآثار في السودان وهو مجال تخصص المؤلف . فابتدر حديثه بالبحث العلمي في السودان وبداياته في شتي المجالات سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية .

وأبان أن تاريخ البحث العلمي في البلاد كانت بداينه في منتصف الأربعينات الماضية في الإجتماع الأول للجمعية الفلسفية السودانية بكلية غردون التذكارية التي ناقشت مواضيع شتي خاصة بإمكانات السودان الاقتصادية وثقافاته المتنوعة .ودعا المؤتمرون إلى ضرورة الإهتمام بكل ما ينشر عن السودان من سجلات ووثائق ومكتشفات أثرية سواء في الجيولوجيا ،الأنثروبولوجيا ، العلوم الطبية ، الثروات النباتية والحيوانية واللغات القديمة . كما تم التنويه إلى ضرورة إنشاء متاحف للآثار والفولكلور . ولقد تحققت العديد من هذه الأمنيات وأفتتح متحف السودان القومي 1971م كما حدث تقدم مضطرد في الأبحاث العلمية والمؤسسات التي ترعها وذلك في مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية .

واستهل الفصل الأول من الكتاب بمواضيع آثارية توثق لتاريخ العمل الآثاري بالسودان ، هوية السودان القومية ودوره في الحضارة الإنشائية ، علاوة على دراسات عن آثار وادي النيل وعلم الآثار بعامة . وأنهى هذا الفصل بذكريات المؤلف عن تجاربه الأكاديمية مع ثلة من علماء الآثار السودانيين والعرب والغربيين.

خصص الفصل الثاني لدراسات عن الإبداع الفكري والثقافي مشتملاً على الشعر العربي ومراحل تغير تياراته عبر أحقاب الزمان . وتضمن أيضا مقالات عن رموز أدبية في الإبداع الثقافي ووضعية الهويات الثقافي ة في عصر العولمة استنادا إلى نموذج الدول النامية .

تطرق الفصل الثالث إلى قضايا مجتمعية مهمة إبتدرها بالرؤية المستقبلية للبحث العلمي والتنمية وأهمية التعليم في الإرتقاء بالعالم العربي إلى " مجتمع المعرفة" بغية الوصول به إلى مصاف الدول المتقدمة في الألفية الثالثة. واحتوى الفصل على مواضيع اجتماعية خاصة بدور التمويل الأصغر في التغيير الإقتصادي والإجتماعي، لمحات من مظاهر الأعياد والألعاب الشعبية في الزمان الماضي ، كيفية استثمار الزمن في صناعة الحاضر والمستقبل وختم ببحث عن " مفهوم السودانوية" باعتبارها كما يري المؤلف ، الأنموذج الأمثل لهوية قومية والتي تؤسس لوحدة سودانية تسمو على القبلية والجهوية والحزبية والمآرب الشخصية وتعمل على إرساء دعائم دولة المواطنة والتي هي أساس الدولة القطرية الحديثة .

ولا يفوتني إلا أن أشيد بهذا الجهد العلمي والثقافي للأستاذ الدكتور عبد الرحيم محمد خبير الأكاديمي المتمرس والأديب الأريب . فقد استطاع أن يجمع في كتاب واحد مواضيع متنوعة جمعت بين تخصص الآثار والنتاج الثقافي وقضايا المجتمع . وخط الكتاب بلغة عربية رصينة جمعت بين الدقة العلمية والملكة الأدبية الجاذبة . لذا لن أتردد في تزكية هذا المؤلف

المتخصص في الإنسانيات (الآثار والتاريخ) وللمهتمين بالإبداع الأدبي وقضايا المجتمع بعامة والله ولي التوفيق ..

أ.د. إبراهيم عكاشة علي

العميد المؤسس لكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة جوبا

2021/12/8

الفصل الأول:

البحث العلمي والآثار في السودان

المبحث الأول :

البحث العلمي في السودان أيام زمان[1]:

في زيارة خاطفة لأسرة عالم الآثار والفولكلور الراحل الدكتور صلاح عمر الصادق وبينما كنت أجوس ردهات مكتبته العامرة لفت إنتباهي مقال موسوم بـ "مقترحات لبعض طرق البحث العلمي في السودان" يرجع تاريخه إلى أواخر الأربعينات للمستر أ.ج آركل (A.J. Arkell) أول مدير للآثار والمتاحف بحكومة السودان (1938–1948م) ورئيس الجمعية الفلسفية السودانية. يمثل هذا المقال كلمة العلاّمة البريطاني في أول إجتماع للجمعية الفلسفية السودانية بكلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حالياً). نقل المقال إلى العربية ثابت حسن ثابت (ضابط الآثار في الأربعينات وأول مدير عام وطني للآثار والمتاحف عند السودنة). وقام بضبط اللغة الأستاذ عبيد عبد النور (التربوي المعروف ومؤسس مدارس بيت الأمانة بأم درمان). طبع المقال أعلاه بمطبعة ماكور كوديل في الخرطوم سنة 1947م. واللافت للإنتباه أن أوراق المقال باتت صفراء شاحبة وشديدة الجفاف بفعل تقادم السنين إلى درجة أن تصفحه دونما حذر ربما ينجم عنه تمزيق وريقاته المغضنة أصلاً .

ومما تجدر الإشارة إليه، أن المستر أ.ج آركل هو رائد علم آثار ما قبل التاريخ (Prehistory) في السودان (أصبح لاحقاً أستاذاً لعلم الآثار بجامعة لندن) قد أجرى حفريات كبيرة وجليلة القدر لا تزال نتائجها تثير الكثير من التساؤلات وتحفز الباحثين لمزيد من التقصي في التاريخ القديم في ربوع هذا الوطن المترامي الأطراف. ولا ريب أن أبرز أعماله الآثارية هي حفرياته في موقع مستشفى الخرطوم التعليمي (1949م) والذي نشره في كتابه المعنّون "حضارة الخرطوم الباكرة – Early Khartoum" وتنقيباته في موقع الشهيناب بشمال أم درمان (1953م) والتي ضمنها دفتي مؤلفه المعروف بـ"شهيناب "Shaheinab".

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد (1713) بتاريخ 2010/9/7م .

إحتوى المقال السالف على معلومات ثرّه عن إمكانات السودان وتنوع ثقافاته نبه لها المستر آركل داعياً أعضاء الجمعية الفلسفية السودانية الوطنيين والأجانب إلى العمل بجد وإجتهاد للبحث عن التراث السوداني ومقدماً بضعة مقترحات في هذا الشأن. وابتدر حديثه عن العصر الحجري القديم في السودان منبهاً إلى المعرفة المتزايدة بهذه الحقبة التاريخية (مواقع خور أبو عنجة، دنقلا ، وادي الهودي، وادي سيرو، وادي عفو، سنجة ووادي هوّر) التي تشير إلى أن هذا القطر كان مأهولاً بالسكان منذ ذلك الزمان وأن تاريخه الحضاري يمتد لفترة تصل إلى ما يقارب نصف مليون عام. ودعي إلى دراسة المناخ في السودان في العصور القديمة ومقارنته بمناخ العصور الرطبة الأربعة في أفريقيا (كينيا) ، فإذا كانت ثمة صلة حقيقية – كما تشير بعض الدراسات – بين العصور الباردة الأربعة في أوربا ونظائرها الرطبة في أفريقيا، فلابد أن يكون السودان قد تأثر بنفس الطريقة .

ونوه الباحث – أ.ج آركل – إلى ضرورة اهتمام الأطباء (البيطريين) في السودان ، بالإضافة إلى المختصين في صيد الحيوانات والأسماك من السكان المحليين باتخاذ دراسة المتحجرات (Fossils)هواية لهم. وهذا يعني بالطبع جمع ودراسة الهياكل العظمية للحيوانات والأسماك لمعرفة أصل الأنواع المختلفة للحيوانات وبخاصة المنزلية في السودان (الضأن والماعز والكلاب). وأشار رئيس الجمعية الفلسفية السودانية إلى الأهمية الجيولوجية للحجارة الرملية النوبية (Nubian Sandstone) والتي كونتها مياه قبل ملايين السنين من ظهور الإنسان. وتمت الإشارة إلى متحجرات عثر عليها أثناء المسوحات الإستطلاعية وأنواع التربات المختلفة التي تناسب هذه المجاميع النباتية والحيوانية المتباينة مع التنويه للنتائج المتعددة التي تترتب على تدخل الإنسان وحيواناته الأليفة لقلب ميزان البيئة الطبيعية .

وفي معرض حديثه عن الحضارة في السودان ونسبة البعض لمبدأ الحضارة في العالم إلى مصر، فقد رفض أ.ج آركل هذا الزعم – بدء الحضارة الإنسانية في أرض الكنانة–. وكان على رأي مفاده أن حضارة الإنسان قد بدأت في قارة آسيا وانتقلت إلى أفريقيا ومن ثم عبر السودان أخذت طريقها إلى مصر. وأبرز بعض الدلائل الأثرية وهي معثورات (فخاريات) ما قبل التاريخ لحضارة الخرطوم القديمة (Early Khartoum) والتي أثبت الشاهد الأثري لاحقاً وبكل تفاصيله أنها أقدم تاريخاً من نظائرها في مصر القديمة . وتذكر في هذا المقام حفريات كاتب هذه

السطور (تعتبر ضمن مشروع جامعة الخرطوم للمسح والتنقيب الآثاري بشمال وغرب أم درمان (1973–1990م) الذي أشرف عليه أستاذ الأجيال عالم الآثار السوداني الراحل البروفيسورأحمد محمد علي الحاكم(رحمه الله)–والتي أجراها بموقع السروراب–2 الأثري بقرية الباعوضة على بعد(30) كم شمال أم درمان (1978م) وأوضح فيها بالدليل اليقيني (كربون 14 المشع) أن أقدم صناعة للفخار في أفريقيا قد بدأت في إقليم الخرطوم بتاريخ يزيد عن عشرة آلاف وستمائة عام(أنظر،عبدالرحيم محمد خبير2005م:المنجزات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية، مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم:8–22) وأن السروراب(2) تمثل ثاني أقدم مستوطنة في العالم القديم بعد مواقع في جنوب غرب اليابان (12000عام قبل الوقت الحاضر) ابتدعت هذه الحرفة الهامة التي مهدت لدخول الإنسان عصر المعادن مما يجعله يرجح احتمالا بأن قدماء السودانيين هم أول من اخترع الفخار في أفريقيا والشرق الأدنى وأنهم من المهندسين الكيميائيين الرواد في العالم القديم .

ودعا عالم الآثار البريطاني – أ.ج آركل – إلى إجراء مسوحات وحفريات آثاريه للمعابد الفرعونية في شمال السودان وبخاصة تلك التي تحوي قوائما لأسماء القبائل الأفريقية والسامية التي يدعي قدماء المصريين أنهم حكموها. فدراسة الأسماء الأفريقية ومعرفتها ستؤدي بلا ريب إلى زيادة معرفتنا بتاريخ السودان القديم. كما ألمح إلى ضرورة التأكد من أصل الأسرة الخامسة والعشرين التي حكمت مصر خلال القرنين السابع والثامن قبل الميلاد (633–751 ق.م) رافضاً الرأي القائل أنها أسرة أجنبية (مصرية أو ليبية). وكما هو معلوم – فإن الدراسات اللاحقة أثبتت ومن واقع العناصر الحضارية لمملكة كوش (نبتةومروي) وعلاقتها بالحضارات المحلية السابقة لها (المجموعات النوبية "أ"؛"ب" وكرمة) أنها أسرة حاكمة محلية (سودانية) كما يستبان ذلك من طريقة بناء القبور ودفن الموتى على سرير وعادة دفن الأتباع والحيوان والتحلي بالأقراط المستديرة وغيرها والتي تمثل مشتركات ثقافية لكل هذه الحضارات النوبية– الكوشية .

وتحدث أ.ج آركل عن "أسطورة العنج" مبيناً أن التاريخ يجب أن لا يعتمد كلياً على علم الآثار لتسليط مزيد من الضوء عليها. واقترح بأن العنج أو أبو قنعان كلمتان تستخدمان في بعض أجزاء السودان للسكان الذين كانوا يقطنون البلاد قبل العرب. وكان على رأي مؤداه أن أصل هذه الكلمة (العنج) من المرجح أن يكون ذا صلة ببعض قبائل دارفور التي ترعى الجمال

وتقوم بالترحيلات بين وادي النيل الأوسط وغرب السودان في الأزمنة القديمة. ومن التساؤلات التي طرحها آركل ولا تزال – بالتأكيد – تحتاج لمزيد من الدراسة: كيفية دخول الإسلام السودان وأيهم كان أكثر تأثيراً – الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا أم مصر الإسلامية أم الهجرات العربية عبر البحر الأحمر في تأصيل الوجود الإسلامي في هذا القطر؟ .

وتضمنت كلمة المستر أ.ج آركل مقترحاً بدراسة أرض النوبة وأصول النوبيين بشكل علمي استنادا إلى الحقائق مع الحذر التام من التأثر بآراء مسبقة. وشدد على ضرورة الإهتمام بالمخطوطات والمراجع المكتوبة وتفسير ما ورد في المراجع العلمية التي وضعها الرحالة العرب في الجغرافيا والتاريخ. وفي تقديري أن دراسات بعض العلماء الغربيين(هرمان بل البريطاني ووليم آدمز الأمريكي وغيرهم) التي أجريت في تواريخ أعقبت مقترح آركل لهي خطوات مهمة في دراسة التراث النوبي. وبرزت في الآونة الأخيرة دراسات جادة لباحثين سودانيين سلطت مزيداً من الأضواء على التراث السوداني القديم وبخاصة الكوشي–النوبي منهم بروفيسور علي عثمان محمد صالح، الدكاترة :أحمد الياس حسين،صابر عابدين،محمد جلال هاشم، أباذر نقدالله والأساتذة: محمد كندة،سعيد دمباوي،ميرغني ديشاب ،جابر حسين،شادية عبدربه ،نعمات عبدالرحمن محمد وغيرهم مما لا تسعفني الذاكرة بإيراد أسمائهم. وختم آركل حديثه عن الجانب التاريخي للبحث العلمي في السودان بالتذكير بضرورة التدقيق في أصل دولة الفونج الإسلامية وتاريخها (1821–1504م). وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى نفر من المؤرخين وعلى رأسهم بروفيسور يوسف فضل حسن لما بذلوه – ولا يزالوا– من مجهودات أماطت اللثام في السنوات الأخيرة عن جوانب هامة من تاريخ هذه الدولة الإسلامية الرائدة في أفريقيا أرضاً وسكاناً وحضارة .

وفي دائرة الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية يتسم آركل أيضاً ببعد النظر حيث شدد على ضرورة إهتمام الخريجين (كلية غردون التذكارية) بالفولكلور (التراث الشعبي) بغية حماية المنشآت والتقاليد والعقائد السودانية التي مرّت عليها عشرات القرون من تغول الحضارة الغربية الناهضة آنذاك خاصة بعد انتصار الحلفاء الغربيين على دول المحور في الحرب العظمى الثانية (1939–1945م). وحث على أهمية جمع ودراسة الشواهد الحسية للتأثيرات الثقافية القديمة قبل أن تزحف عليها الحضارة الغربية المتنامية. أما في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية فاقترح على

الدارسين والخريجين السودانيين في العلوم الطبية – في الأربعينات المنصرمة – جمع ودراسة الأدوية البلدية المستعملة في أصقاع البلاد المختلفة. كما دعا إلى تسجيل مقاييس الرأس وأنواع الشعر ومقاييس أخرى لتمييز أنواع السلالات الأثنية (العرقية) لاسيما لدى سكان الأقاليم النائية والذين من المحتمل احتفاظهم بمميزات أثنية غير مشوبة تقريباً بمميزات جنسيات أخرى. ولم يغرب عن بال المستر آركل تسجيل ودراسة كل اللغات (اللهجات) المستعملة في السودان خاصة وأن تسجيلها له أهمية لا تخطئها العين ولو من زاوية الضوء الذي ستلقيه على أسماء الأماكن .

ومن الجلي أن الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمع السوداني التي تمت الدعوة إليها منذ منتصف الأربعينات الماضية قد شهدت لاحقاً – ولا تزال – تطوراً متزايداً كماً وكيفاً (اختصاصيين مؤهلين وبحوث علمية). ولعل مثال المعهد القومي للبحوث بوحداته المختلفة ومعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم وأقسام الدراسات الاجتماعية بالمؤسسات العليا في السودان لخير شاهد على ذلك .

واختتم المستر أ.ج آركل قائمة مقترحاته المطوّلة لتطوير البحث العلمي في السودان بالتنويه للحاجة الماسة إلى متحف ملائم للآثار والفولكلور السوداني وذلك لتوعية الجمهور بالموروث الوطني ولإيقاظ رغبة محبي العلم إلى بحوث أوسع عن طريق عرض أوجه المعرفة الموجودة عرضاً جميلاً وجاذباً. فلا غرو إذن أن رأي هذا المقترح النور بعد مضي ربع قرن على حديث آركل وذلك بافتتاح متحف السودان القومي الحديث للجمهور في العام 1971م بعد أن كان حلماً بعيد المنال.

المبحث الثاني :

علم الآثار التعريف والماهية:

تعني كلمة "آثار" في نظر العديد من الناس الأشياء القديمة والكنوز المدفونة والمدن القديمة التي اندثرت عبر أحقاب التاريخ المتعاقبة . والآثار بمفهومه الحديث هو علم ، سيما أن هذا العلم يحتاج في أبحاثه وتفسيره للأشياء إلى مساعدة الكثير من العلوم الأخرى كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها . وعندما يقوم عالم الآثار بأعمال البحث والتنقيب الميداني فإنه لا يتوقع أن يعثر على كنوز ثمينة ، وإنما يهدف إلى تسليط الضوء على حياة الإنسان في العصور الماضية ، وذلك باستخدام الأدلة الأثرية التي يعثر عليها ، وهذه الدلائل هي التي تزودنا بمعلومات عن طبيعة حياة هذا الإنسان[1].

وكلمة آركيولوجي "Archaeology"التي يشار بها لدراسة هذا العلم تتألف من مقطعين "Archois" ومعناها البداية و"Logos" ومن معانيها "علم" مما حدا ببعض الدارسين إلى القول بأنها تعني "علم القديم " أو " علم الآثار " . وتعرف الموسوعة البريطانية المختصرة "Britannica Concise Encyclopedia" الآثار بأنه " علم يعني بدراسة البقايا المادية لماضي الحياة الإنسانية . أما دائرة معارف تاريخ الولايات المتحدة U.S. History Encyclopedia فتقول بان " علم الآثار يهتم بالفهم العلمي للسلوك الإنساني خلال عصور ما قبل التاريخ وأحقاب التاريخ المتواترة استنادا على دليل البقايا الأثرية[2]" .

ويحدثنا قاموس أكسفورد الإنجليزي أن أصل كلمة آثار "آركيولوجيا" مشتقة من الكلمة الإغريقية "أرخيولوجيا" والتي تعني : " الإهتمام بالأشياء القديمة " ويحدثنا كذلك عن كيفية

استعمالها ، فهي تعني أولاً التاريخ القديم بصفة عامة ، وتعني ثانياً ومنها تفصيلياً أو دراسة تفصيلية للمخلفات الأثرية[3] .

وبدأ اهتمام الناس بالآثار منذ القدم ، وبالتحديد عندما حاول الناس قبل خمسة آلاف عام البحث عن الكنوز وقاموا بسرقة قبور الفراعنة . غير أن ثمة محاولة جادة للبحث عن الآثار كانت عندما قام الملك الكلداني نابونيد (556–539 ق.م) بالكشف عن عدد من المعابد في بلاد الرافدين خاصة معبد الإله " سن – Sin" الذى بناه الملك الأكادي نارام سن (Naram sin) ويؤرخ للعام 2350ق.م[4].

وفي نهاية القرن التاسع عشر ، فإن علم الآثار في أوربا قد اعتمد على إطار زمني متطور قام على أسس تاريخية ، واستنادا إلى ذلك ، فإن كثيراً من علماء الآثار الغربيين قد رأوا أن علم الآثار هو الأكثر صلة بدراسة التاريخ مقارنة بالعلوم الأخرى[5] .

ورغم أن الأعمال الميدانية التي أجريت في العالم الجديد (أمريكا) منذ القرن الماضي ارتكزت على المناهج والوسائل التي أجريت في العالم القديم (أوربا وآسيا وأفريقيا) ، بيد أن العالم الجديد يعوزه العمق الثقافي والحضاري الذى يسم العالم القديم[6] .

ولعلم الآثار أهداف يكاد يتفق حولها دارسو هذا العلم أبرزها[7] .:–

أولاً: إنه يسهم بقدر وافر في إثراء معرفتنا بالتراث الحضاري .

ثانياً : إنه يساعدنا على معرفة السلوك الإنساني، كيف ومتي نشأ هذا السلوك .

ثالثاً: إنه كعلم اجتماعي يساعدنا على فهم البيئات سواء أكانت طبيعية أو ثقافية .

رابعاً: يميط اللثام عن الاكتشافات والتطورات الحضارية البالغة الأهمية والتي تمثل منعرجاً مهماً في التاريخ الإنساني مثل معرفة الزراعة والتعدين والكتابة والاستقرار في القري والمدن .

الهوامش :

1/ زيدان عبد الكافي كفافي 2004 . المدخل إلى علم الآثار ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، الأردن ، ص 19 .

2/ Googl's Cache of

http://www.thefreedomdictionary.com/arechaeology.

3/ غلين دانيال 2000. موجز تاريخ علم الآثار (ترجمة د. عباس سيد أحمد محمد على) ، دار الفيصل الثقافية ، الرياضى ، ص 16 .

4/ زيدان عبد الكافي كفافي ، مرجع سابق ، ص 23-24.

5/ المرجع نفسه ، ص 42 .

6/ المرجع والصفحة نفسها .

7/ عبد الرحيم محمد خبير 2021 . من تاريخ السودان الحضاري : شواهد أثرية وتاريخية ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 12-25.

المبحث الثالث: موجز عن تاريخ العمل الآثاري في السودان :-

لم تنل الآثار إهتماما كبيراً في السودان في حقبة الحكم التركي (1885-1821م) وهو العهد الذى أصبحت فيه للبلاد أول وحدة سياسية في العصر الحديث . وفي عهد المهدية (1885-1898م) كانت الآثار تعتبر أبنية وأنقاض قديمة مرتبطة بالجن وعبادة الأوثان . ويورد المخيال الشعبي بأن أصحابها ربما اقترفوا ذنوباً فتمت معاقبتهم بأن مسخوا تماثيلاً من حجارة كما حدث لأقوام عاد وثمود في القصص القرآني . وشجع هذا الإهمال للآثار بعض المغامرين من الأوربيين من التعدي عليها بغية الحصول على كنوز مدفونة بداخل الأرض . ولعل أبرز مثال لذلك ما قام به الطبيب ج .فرليني J.Ferlini الذي رافق الحملة التركية على السودان .

وقام عام 1834م بتدمير عدد من الأهرامات الكوشية – المروية في البجراوية ومن أهمها هرم الملكة أماني – شخيتو (12ق.م- 12م) والذى عثر فيه على مقتنيات ثمينة من الحلي الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة . ومن ناحية أخري، فإن الحكومة التركية شاركت في دمار العديد من المواقع الأثرية سيما مباني مملكة علوة المسيحية التي استغل طوبها في بناء العديد من المنشآت المعمارية في العاصمة الخرطوم.

واستمر الحال على هذا المنوال في عهد المهدية (1885-1898م) حيث أن طوب الموقع المسيحي في منطقة سوبا بإقليم الخرطوم إستغل في بناء الجدران والفناء الشمالى لبيت خليفة الإمام المهدي عبدالله بن السيد التعايشي . وتغير الحال في عهد الحكم الثنائي الإنجليزي – المصري (1899-1956م) . وقام واليس بدج W.Budge الموفد من المتحف البريطاني بلندن بحفائر في منطقة أهرامات مروى أعوام 1952 ، 1905م وجمع مادة أثرية لمتحف الخرطوم كما أصدر عدداً من الكتيبات عن آثار السودان . وعينت إدارة حكومة السودان في ذلك الوقت ج.و كروفوت J.W.Crowfoot الإنجليزي مسئولاً عن الآثار في البلاد. وصدر

أول قانون للآثار بالسودان عام 1905م . وعدل هذا القانون عام 1952م وأخيراً صدر قانون الآثار السودانية المعمول به حالياً عام 1999م .

وبدأ العمل الآثاري المنظم في إقليم النوبة (شمال السودان وجنوب مصر) بالمسح الآثاري الأول لأربعة مواسم (1907–1911م) مقترناً بتعلية خزان أسوان باشراف عالم الآثار الأمريكي جورج رايزنر G.Reisner ومساعده الإنجليزي أ.فيرث M.Firth . وكشفت المسوحات والحفريات عن العشرات من المواقع التي تؤرخ لفترات تاريخية متباينة . ونشرت تقارير أولية عن هذه الأعمال الآثارية . وتبع ذلك أعمال لبعثات جامعات بنسلفانيا ، أكسفورد وأكاديمية فينا للعلوم التي أجرت مسوحات وحفريات في النوبة المصرية . ثم عاد جورج رايزنر الى النوبة بعد غياب لعدة سنوات كمدير لبعثة جامعة هارفارد وكلية بوسطن للفنون الجميلة وأجرى حفريات بموقع كرمة جنوب الشلال الثالث (1923م) وعدد من القلاع بمنطقة الشلال الثاني التي ترجع لعهد الدولة المصرية الفرعونية الوسطى (1786–2050ق.م) ، فضلاً عن جبانات ملكية نبتية – مروية . ونشرت نتائج هذه الحفريات بعد وفاته في مجلدات بواسطة دوز دنهام D.Dunham

وارتبط المسح الآثاري الثاني للنوبة (1929–1934م) بالتوسع الثاني لخزان أسوان . وشاركت فيه العديد من البعثات الغربية بإشراف و. إمري W.Emery ، ب.كيروان P.Kirwan وج.ستيندورف G.Steindorff وتم فيه اكتشاف الجبانات الملكية الكبري للمجموعة النوبية (ج) في بلانة وقسطل ، إضافة إلى 74 موقعاً آخر لفترات تاريخية مختلفة .

وكان المسح الآثاري الثالث للنوبة (1959–1969م) بسبب بناء السد العالي الذى أغرق مدينة حلفا بأقصى شمال السودان . وتم تمويل هذا العمل بواسطة هيئة اليونسكو Unesco وبإدارة مصرية – سودانية . وتركز العمل في النوبة العليا (النوبة السودانية) سيما وأن كل المنطقة قد أغرقتها مياه السد العالي ، وشاركت فيه ما يزيد عن 30 بعثة غربية (أوربا وأمريكا

الشمالية) ومن أسيا (الهند) وافريقيا (غانا) وأمريكا الجنوبية (الأرجنتين) ، إضافة إلى مصلحة الآثار السودانية ونظيرتها المصرية. وتم في المسح والتنقيب الانقاذي اكتشاف مايزيد عن ألف موقع أثري . ونفذت بعض الحفريات في أكثر من ثلث مساحة النوبة السودانية لمواقع تعود لعصور ما قبل التاريخ والعصور الفرعونية والمسيحية .

وجدير بالذكر أن إدارة الآثار السودانية قد تأسست في ثلاثينات القرن الماضي . وعين الأنجليزي أ.ج. أركل A.J.Arkell أول مدير لمصلحة الآثار السودانية عام 1938م وخلفه في هذا المنصب مواطنه مستر بيتر شيني P.Shinnie (1948–1955م) ، فالفرنسي جان فيركوتير J.Vercouter وسودن هذه الوظيفة ثابت حسن ثابت (1965–1971م) . وتولى بعده نجم الدين محمد شريف (1971–1988م) الإدارة التي آلت لاحقاً إلى أسامة عبد الرحمن النور (1988–1990م) ، فأحمد محمد على الحاكم (1990–1994م) ، فحسن حسين إدريس (1994–2012م) ، فعبد الرحمن علي محمد (2012–2019م) ويتولى حالياً إدارة الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية حاتم النور .

وعلى صعيد المؤسسات السودانية التي تعني بتخصص الآثار . فقد تأسس أول قسم للآثار بالبلاد بجامعة الخرطوم (1963–1964م) . ويعتبر قسم الآثار بجامعة الخرطوم أحد أقدم الجهات العلمية في العالمين العربي والافريقي التي تدرس علم الآثار بصفة عامة وآثار السودان وحضارته بصفة خاصة . وهو كمصلحة الآثار السودانية اسندت مهمة تأسيسه لغير السودانيين لعدم توفر المتخصصين بالمستوي الأكاديمي المطلوب وقتذاك .

وكانت تأسيس القسم في العام الدراسي 1963–1964م بواسطة الاستاذ الدكتور مصطفي الأمير (رحمه الله) (مصري) من جامعة الاسكندرية . وهو أحد أعلام الآثار والدراسات المصرية القديمة . وتم تعيين أحمد محمد على الحاكم أول مساعد تدريس بالقسم في العام

1964م . وتولي مستر بيتر شيني رئاسة قسم الآثار لعدة سنوات (1965–1970م) وخلفه عبد القادر محمود عبد الله كأول سوداني رئيساً لهذا القسم (1970–1971م) . وجاء بعده أحمد محمد على الحاكم الذى تراس القسم لعقد كامل من الزمان (1971–1981م) وتخرجت في عهده الدفعات الاولي من السودانيين الذين تخصصوا في علم الآثار من جامعة الخرطوم في سبعينات القرن المنصرم.

ولعب قسم الآثار بجامعة الخرطوم دوراً كبيراً في تطوير العمل الآثاري بالسودان سواء بالتدريب أو العمل الحقلي لتأهيل طلابه . وقام خريجو هذا القسم بدور مميز في إدارة دولاب العمل الآثاري بالبلاد حيث أجروا الكثير من المشروعات البحثية في هذا المجال كما قاموا بتأسيس العديد من أُقسام الآثار في الجامعات السودانية . فتأسس قسم الآثار بجامعة دنقلا (1991م) ، جامعة شندي (1992م) ، وجامعة وادي النيل (1999م) ، جامعة جوبا (بحري حالياً) (2000م) ، جامعة النيلين (2008م) ، جامعة أفريقيا العالمية (2016م) ، جامعة الجزيرة (2017م) ، فجامعة غرب كردفان (2018م) .

الهوامش:

1/ صلاح عمر الصادق 2006 ، دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ. دار غرة للنشر والتوزيع ، الخرطوم ، ص 24 .

2/ المرجع والصفحة نفسها :

3/ Ordinance for the Protection of Antiquities.NCAM

4/ وليم . ي . آدمز 2010 . النوبة رواق أفريقيا (ترجمة وتقديم محجوب التجاني محمود) ، الطبقة الثالثة ، القاهرة ، ص 88–92 .

5/ المرجع نفسه ، ص 92 .

6/ Ahmed M.Ali Hakem 1978. A History of Archaeological,Reseach in Nubia and the Sudan, Africa in Antiquity. The Arts of Ancient Nubia and the Sudan. The Essays. The Brooklyn Museum.Boston: 96-104.

7/ عبد القادر محمود عبد الله 1994 . تاريخ الآثار السودانية ومؤسساتها . صحيفة الخرطوم ، الملحق الثقافي ، العدد بتاريخ 1994/6/25 ، ص:4.

المبحث الرابع : رواد علم الآثار الأوائل في السودان:

هناك ثلة من علماء الآثار السودانيين كانت لهم الريادة في التخصص في هذا العلم . عمل نفر منهم في مصلحة الآثار والبعض الآخر بجامعة الخرطوم . ولقد أكمل هؤلاء الرواد دراساتهم في الخمسينات والستينات في المملكة المتحدة.

- **عبد الرحمن آدم محمد (1924-1954م) :**

ولد عبد الرحمن آدم محمد بمدينة القضارف 1924م . وتخرج في كلية غردون التذكارية 1948م (جامعة الخرطوم حالياً) . وكان والده يعمل في وظيفة يوزباشي . وعين فور تخرجه في وظيفة ضابط آثار بمصلحة الآثار السودانية . وبذلك كان أول سوداني يشغل هذه الوظيفة . وأوفد الى بريطانيا لاستكمال دراسة الآثار في جامعة كمبردج . واجتاز الجزء الأول من الدراسة. بيد أنه توفي في أثناء تكملة الجزء الثاني أثر حادث أليم . فقد فارق الحياة مختنقاً بغاز التدفئة في شقته . وكان ذلك في 25 ديسمبر 1954م . وكان وقتها في الثلاثين من العمر .

وأثناء عمله بمصلحة الآثار قام بجولات استكشافية وأجري العديد من المسوحات والتنقيبات في مناطق متفرقة من السودان بما في ذلك في جنوب البلاد وشارك مستر بيتر شيني مدير مصلحة الآثار في زيارات تفقدية للآثار بشمال البلاد. كما قام بجولات بمنطقة البطانة مع عالم الآثار ف. سميث والتي نشرت نتائجها في مجلة" السودان في رسائل ومدونات – SNR " . وكان ضمن الفريق العلمي لحفريات مستر شيني في عمارة غرب بشمال السودان وبموقع سوبا (إقليم الخرطوم) والذي يرجع للعصر المسيحي (1504-543م) . وشارك أيضا مع مستر كنيث مرشال في حفرية بمنطقة العُشرة (جنوب الفتيحاب بأمدرمان) . وقد نشر تقرير هذه الحفرية بمجلة كوش "Kush" العدد الأول 1953م . وأرخ هذا الموقع الى فترة ما بعد مروي – Post-

Meroitic وهو عبارة عن مجموعة من المقابر التلية(أنظر: صلاح عمر الصادق 2006 . دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ ، دار غزة للنشر والتوزيع ، الخرطوم :89-95)

- **ثابت حسن ثابت محمد الشيخ** (1921-1996م) .

ولد ثابت حسن ثابت بمدينة الخرطوم بحري في حلة حمد 1921م . وتلقى تعليمه الأولي بها والأوسط بمدرسة أمدرمان الأهلية . والثانوي بكلية غردون التذكارية وكلية العلوم (جامعة الخرطوم) _(1940-1942م) وارسل في بعثة دراسية للمملكة المتحدة عام 1960م لتأهيله لتولي منصب مدير الآثار السودانية كأول مدير لها في يوليو1960م . شارك ثابت في تنقيبات مصلحة الآثار السودانية مع بيتر شيني عام 1945م بموقع سوبا عاصمة مملكة علوة المسيحية التي كانت تمتد من الأبواب (كبوشية) شمالاً الى القطينة على النيل الابيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل الازرق وبعض أجزاء من كردفان. وقام بحفريات مع مستر أ.آركل في خور أبوعنجة بأمدرمان (العصر الحجري القديم) (1944-1945م) كما أجري عدة حفريات بشرق الخرطوم (العصر الكوشي - المروي) وأخري بمنطقة وادي حلفا في اقصى شمال السودان (المملكة المصرية الحديثة) نشرت تقارير عنها في مجلة "السودان في رسائل ومدونات" اعوام 1935م 1949م . وفضلاً عن ذلك، أجري بنفسه حفريات باسم مصلحة الآثار في موقع ود بانقا (ولاية نهر النيل) مع الفرنسي فيركوتير في البداية ثم أكمل العمل منفرداً في الموقع . وكشفت هذه الحفريات عن قصور ومعابد تعود الى عصر الملكة أماني شخيتي(12ق م - 12م) . كما شارك برو فيسور بوقليزي رئيس البعثة الإيطالية بموقع الجيلي شمال الخرطوم ، شرق وغرب خط السكة الحديد في نهاية الستينات الماضية كما أشرف على حملة إنقاذ آثار النوبة الثالثة (1959-1960م) .

شارك ثابت حسن ثابت في العديد من المؤتمرات العلمية وقدم فيها أوراقاً بحثية عن الآثار (1960-1959م) ورأس مجلة كوش (kush) (مجلة مصلحة الآثار السودانية) كما شارك في حفريات خارج السودان (الأردن وهولندا). وانتهت خدمته بمصلحة الآثار في العام 1970م وهو يحمل نيشانا من ملك الدنمارك وشهادة إشادة من هيئة اليونسكو لإشرافه على حملة إنقاذ آثار النوبة الأخيرة . (مرجع سابق :92-95) .

- **نجم الدين محمد شريف (1934-1994م):**

ولد بقرية كويكا مركز عبري بالمديرية الشمالية بمنطقة المحس . وكان والده عمدة المنطقة . تلقى تعليمه الأول بها ثم نال دبلوم الآداب من كلية الخرطوم الجامعية فبكالريوس الشرف في علم المصريات من جامعة درم (Durham) بإنجلترا مبتعثاً من مصلحة الآثار (1957-1953م) . وتدرج في الوظائف الإدارية إلى درجة مدير عام مصلحة الآثار في العام 1971م .

قام نجم الدين بزيارات تفتيشية واستكشافية للكثير من مواقع الآثار في شمال وأواسط السودان . وعمل مفتشاً لآثار وادي حلفا . وخلال عمله بمصلحة الآثار السودانية ساهم في حملة إنقاذ آثار النوبة وفي نقل الآثار المهددة بالغرق من شمال البلاد إلى متحف السودان القومي بالخرطوم . وشارك مستر شيني في حفريات موقع دير الغزالي بشمال السودان (1953-1955م) . وعمل مع عالم الآثار الأمريكي وليم آدمز في حفريات موقع مينارتي لموسمين (1963-1962م) . كما أجرى حفرية في منطقة دبيرة شرق شمال وادي حلفا (مغمورة حالياً بمياه السد العالى) .

شارك نجم الدين في الكثير من المؤتمرات والورش العلمية داخلياً وخارجياً ومثل بلاده في هذه المؤتمرات . وعمل أستاذا زائراً بجامعة مورجان بالولايات المتحدة الأمريكية . ونشر

العديد من البحوث في مجلات عالمية وفي كتاب " تاريخ أفريقيا العام" الذى أشرفت عليه هيئة اليونسكو عام 1981م كما نشر دليل آثار متحف السودان القومي باللغتين العربية والإنجليزية .

تقاعد نجم الدين عن العمل عام 1987م وتقلد عدداً من الأوسمة والأنواط من ملك الدنمارك ومن رئيس جمهورية السودان ومن رئيس جمهورية فرنسا ووسام العلم والثقافة من رئيس جمهورية السودان (المرجع نفسه : 92-94م) .

- **أحمد محمد علي الحاكم(1938-1996م)**

ولد في بلدة السلمة بريفي بربر عام 1938م، نشأ وترعرع في مدينة عطبرة حيث تلقي دراسته الأولية والمتوسطة والثانوية بها ، تخرج بمرتبة الشرف العليا في جامعة الخرطوم عام 1963م حيث كان أول سوداني يعين في وظيفة مساعد تدريس (معيد) في تخصص علم الآثار الذي كان حينها حينها يدرس بقسم التاريخ بالجامعة. إبتعث بعدها إلي إنجلترا حيث حصل علي درجة الماجستير من جامعة كمبردج عام 1966م، عاد بعدها محاضراً بالجامعة لحاجتها للكفاءات السودانية آنئذٍ.ورجع مرة أخري إلي إنجلترا لمواصلة دراسته العليا في جامعة كمبردج حيث حصل على درجة الدكتوراه عام 1971م وكانت أطروحتة عن "طبيعة وتطور العمارة المروية 900قم-350م" (The Nature and Development of Meroitic Architecture). وبرجوعه تولي رئاسة قسم الآثار بجامعة الخرطوم خلفاً للدكتور عبدالقادر محمود عبدالله .والدكتور أحمد الحاكم هو عضو هيئة التدريس الذي تولي رئاسة القسم لعقد كامل من الزمان (1971-1981م) فتخرجت علي يدية الأفواج الأولي من حملة الشهادات الجامعية وفوق الجامعية في تخصص علم الآثار من جامعة الخرطوم والتي تدير الآن دولاب العمل الآثاري بكفاءة واقتدار في العديد من المؤسسات البحثية والتعليمية داخل وخارج الوطن . وحاز علي مرتبة الأستاذية عام 1988م. من جامعة الخرطوم.

وتولي البروفيسور أحمد الحاكم إدارة العديد من البعثات الآثارية في السودان حيث عمل في مطلع حياته الأكاديمية نائبا للبروفيسور البريطاني بيتر شيني (المدير الأسبق للآثار في حكومة السودان 1948–1955م) في إدارة الحفريات المشتركة بين جامعتي الخرطوم وغانا عام 1966م في منطقة مروي (البجراوية)، تولي بعدها إدارة حفريات جامعة الخرطوم في مناطق متفرقة من السودان شملت شمال أم درمان(وادي سيدنا– الشيخ الطيب) ،البجراوية (كبوشية) ، وادي حلفا وكردفان (جبل الحرازة) والبطانة ومنطقة البحر الأحمر.

وفي داخل الجامعة نشط في تدعيم التعاون بين الأقسام الأخرى ذات الصلة مثل أقسام التاريخ ،الجيولوجيا والتربة والمعمار كما مدد جسور التواصل مع المجلس القومي للبحوث في مشروع التكنولوجيا الموروثة ودولة العلم الحديثة في مطلع الثمانينات . وخارج الجامعة تواصل تعاونه مع الجامعات الأجنبية وكمثال لذلك مشروع الحفريات المشتركة بين جامعتي الخرطوم – كالغري الكندية في مطلع السبعينات . وهناك أيضاً المشروع السوداني – الفرنسي للأبحاث العلمية في منطقة البحر الأحمر – 1979م – 1981م . بين جامعة الخرطوم وجامعة ليون الثانية الفرنسية . وبسبب الدور الأساسي والمتميز الذي قام به قسم الآثار حينها فقد أوكلت له إدارة وتنظيم هذا المشروع الذي عنى بأبحاث متكاملة تشمل البيئة والجيولوجيا والآثار في منطقة البحر الأحمر السودانية.

رفد البروفيسور أحمد الحاكم المكتبة السودانية بعشرات المقالات والكتب التي يعجز الحيز الحالي عن إيرادها جميعاً ، لذا سإقتصر علي مقال واحد وثلاثة كتب لعلها من أبرز مؤلفاته وهي : بادئ ذي بدء فرضيته الجريئة التي أماط عنها اللثام مقاله الموسوم (مدينة مروي وأسطورة نبتة (The City of Meroe and the Myth of Napata) (مجلة آداب العدد الثاني : ص 39–46 ، جامعة الخرطوم 1975م) حيث حاجج إستناداً إلى أدلة كرونولوجية

(التزمين)،نقشية وجغرافية بأن مدينة مروي القديمة (شمال كبوشية) كانت عاصمة مملكة مروي (900ق.م–350م.) منذ بداية حكم الأسرة الخامسة والعشرين السودانية وإلي نهاية المملكة. ودحض الزعم القائل بوجود مملكتين تعاقبتا في السودان القديم إحداهما نبتة (900ق.م.–537ق.م.) والأخري مروي (538ق.م_350م). ونالت هذه الفرضية القبول لدي الكثيرين من علماء الآثار المختصين في الدراسات السودانية عامة والمروية علي وجه التخصيص.

وفي كتابه "الزخارف المعمارية وتطورها في منطقة وادي حلفا " والذي نشرته وحدة أبحاث السودان" بجامعة الخرطوم عام 1965م، كشف الحاكم من خلال دراسة ميدانية لزخارف العمارة في وادي حلفا عن ثروة هائلة من المعلومات لتجربة فنية ثَرة تتم عن ذوق فني جمالي راقٍ وتعبر عن خلفية حضارية راكزة الجذور في أغوار التاريخ . أما كتابة بعنوان "المعمار المروي –خلفية لحضارة أفريقية " فقد ظهر باللغة الإنجليزية ونشرته دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشرعام 1988م.وفي هذا المؤلف أمدنا الحاكم بخلفية تفصيلية عن تاريخ العمارة في السودان والتي بلغت إحدى ذرى عظمتها في عهد دولة مروي(900ق.م–350م).

وكان نتاج هذه المعرفة التقنية قفزة معمارية وفنية باهرة في السودان القديم . ولم يقتصر دور أحمد الحاكم علي التنقيب والدراسة والبحث الأكاديمي البحت بل إمتد ليشمل الجوانب المهنية وكيفية الإستفادة من التكنولوجيا الموروثة في حياتنا المعاصرة .ففي برنامج "التكنولوجيا الموروثة ودولة العلم الحديثة" الذي نظمه المجلس القومي للبحوث في الثمانينات بالتعاون مع العديد من جهات الإختصاص ، كان لقسم الآثار بجامعة الخرطوم دور بارز في هذا العمل العلمي حيث تم تصميم نماذج لبعض الأفران التقليدية لصهر الحديد والاستفادة من موروثنا الحضاري في هذا الجانب بل وتطوير تقنية هذه الأفران لاستخدامها بصورة أكثر نجاعة وفائدة . وكان لي شرف المشاركة في هذا المشروع الآثاري – التقني الذي كان يهدف إلي تأصيل

صناعة الحديد السودانية باستغلال موروثنا الحضاري في هذا المضمار ، بيد أن التمويل المالي وقف عقبة كؤود حالت دون تنفيذ هذا المشروع .

المبحث الخامس: مواضيع أثارية

- **هوية السودان القومية: قراءة آركيولوجية–تاريخية[1]**

مقدمة:

السودان كتراكم ثقافي–تاريخي ظهر إلى حيز الوجود منذ أزمان موغلة في القدم. والمقصود بلفظ "السودان" هنا جمهورية السودان بحدودها السياسية الحالية، فضلاً عن المشيخات والسلطنات والممالك التي كانت قائمة داخل هذه الحدود منذ أزمان بعيدة. وسكنت هذا القطر أقوام عديدة متنوعة الأعراق والثقافات. ورغم أن سؤال الهوية القومية في السودان: من نحن، ما هي علاقتنا بالآخر وماذا نريد أن نكون؟ قد طرح بشكل جلي منذ عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي–المصري) وعبرت عنه أهداف كل من جمعيتي اللواء الأبيض (1920م) والإتحاد السوداني (أغسطس 1924م) ومؤتمر الخريجين (1938–1955م). ولكن باستقراء التاريخ نلحظ أن السودانيين استطاعوا إنشاء العديد من الممالك والدول التي قوامها خليط شتى من الأجناس والثقافات مدفوعين بأشواق الوحدة الثقافية والسياسية التي يتوقون إليها منذ عشرات القرون.

وتشهد الساحة السياسية والثقافية في السودان بعد إتفاقية نيفاشا للسلام بين الشمال والجنوب (9 يناير 2005م) تحولات وتطورات ليس لها نظير. ولعل أدق وصف لها ما ذكره أحد المثقفين السودانيين بأنها تبدو وكأنها عملية الإستقلال الثاني للسودان بعد حقبة مليئة بالإنكسارات والإنتصارات. وفي تقديري أن العديد من قضايا السودان خاصة السياسية والثقافية ومنذ قيام الدولة السودانية الحديثة في مطلع يناير 1956م ناجمة عن عدم استلهامنا لمنجزات

[1] جريدة "الصحافة" ، العدد (5102) بتاريخ 2007/8/28م .

موروثنا الحضاري في أوجه حياتنا المختلفة بشكل كافٍ رغم أن التجربة الحضارية في السودن متفردة وثرَّة تآلفت فيها بشكل كبير كل العناصر الإثنية (العرقية) والثقافية القابعة في أرض هذا الكيان منذ آلاف السنين.

ويطرح هذا المقال منهجاً آركيولوجياً–تاريخياً لدراسة الشخصية القومية من خلال الأدلة المادية التي كشفت عنها التنقيبات الآثارية والسجلات التاريخية باعتباره يمثل قراءة علمية موضوعية للإجابة عن سؤال الهوية لمجموعات سكانية تتباين وبدرجات متفاوتة جغرافياً وإثنياً وثقافياً. فهل هنالك من الشواهد الأثرية والتاريخية ما يشير بأن هذا التنوع السوداني الماثل للعيان تؤطره قواسم ثقافية وحضارية مشتركة تسمح لنا بالإقرار بوجود كيان معنوي جامع يمكن أن يسمى "الشخصية القومية السودانية" أم أن هنالك "عدة شخصيات قومية" داخل هذا الكيان السياسي المسمى بـ"السودان"؟.

وفي تقديري أن حالة الشخصية القومية للنموذج السوداني –من منظور آركيولوجي– تاريخي– يمكن استبانتها في ثلاثة أبعاد هي:

1– البعد الإثني (العرقي) 2– البعد الثقافي–الإجتماعي 3– البعد السياسي

1– البعد الإثني (العرقي):

شهد السودان القديم تحركات سكانية دونما انقطاع خلال أزمان وأحقاب متلاحقة بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى فترات التاريخ المدون. وتشير الخصائص التشريحية لعظام الهياكل الآدمية العظمية التي كشفت عنها الحفريات الآثارية للحضارات المختلفة التي ازدهرت في السودان والمؤرخ أقدمها إلى ما يزيد عن تسعة آلاف عام إلى صفات مشتركة عديدة للمجموعات السكانية التي قطنت هذا القطر شماله وجنوبه. وتشير المخالفات الأثرية إلى إختلاط العناصر النوبية والزنجية والقوقازية في المنطقة الممتدة من وادي حلفا إلى الخرطوم وجنوب

الجزيرة والنيلين الأبيض والأزرق. وتجمع المصادر الأثرية والتاريخية على وجود مجموعات سكانية متشابهة في صفاتها الجسدية وحضارتها عمرت جنوب السودان واختلطت خلال الألف الثالث قبل الميلاد وحتى بداية الألف الأول الميلادي بالمجموعات السكانية في أقاليم النيل الأزرق والأبيض وجنوب كردفان. ونسبة لإستمرار إختلاط الأعراق والثقافة في السودان يصبح – كما يرى العديد من الباحثين– الحديث عن جنس معين مرتبطة بثقافة بعينها وعزله أو عزلها مما يجري من تفاعلات ثقافية–حضارية في المنطقة من وجهة النظر العلمية أو الواقعية أمراً مستحيلاً. ولهذا أطلق علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية صفة "السودانية" على المجموعات السكانية التي قطنت –ولا تزال– حدود السودان الحالي. وبمجئ القرن السادس عشر رسخت الخصائص السكانية للسودان كما نراها اليوم. وإذا كان هذا هو الحال، يصبح الحديث عن تداخل إثني (عرقي) وتمازج وإختلاط بدرجات متفاوتة وصلات قربى بين مختلف المجموعات العرقية في السودان حقيقة علمية تسندها الأدلة الأثرية والتاريخية ويؤكدها الواقع العياني المعاش.

2– البعد الثقافي–الاجتماعي:

2–1 اللغة:

كان للسودانيين مشروع للنهوض الثقافي بدأت إرهاصاته منذ عهد مملكة كرمة (2500–1500ق.م.) وتبلور بشكل واضح للعيان في العهد المروي (900ق.م.–350م) هدفه خلق أمة كوشية (سودانية) تتميز عن جيرانها في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. ولعل أبرز دليل على ذلك محاولة المرويين ابتداع أبجدية خاصة بهم في القرن الثاني قبل الميلاد. ورغم التأثير المصري الذي لا تخطئه العين في مناحي الحياة السودانية المختلفة لاسيما في الجانب الديني، إلا أن النخبة المثقفة السودانية في ذلك الزمان تمكنت من إبتداع أبجدية (23 رمزاً) كتبت بها

المعاملات التجارية والقانونية والأدعية الجنائزية على الحجر والمعادن والفخار وعلى ورق البردى والجلود.

ورغم أن هناك ظروفاً موضوعية عديدة ساعدت على التعجيل بإختراع الكتابة المروية (الخط النسخي) أبرزها الإنقطاع الثقافي عن مصر بعد فقدان السودانيين لسلطتهم السياسية في مصر وتقهقرهم جنوباً ليحكموا بلادهم من مروي (البجراوية) عام 663ق.م. إلا أنني أميل إلى رأي مفاده أن هنالك دافعاً ذاتياً قوياً أدى إلى اختراع الكتابة وهو رغبة ثلة من الصفوة المثقفة المروية ذات الإرتباط بالبلاط الملكي في الإنعتاق من إسار الثقافة المصرية الوافدة والعمل على بلورة شعور بإنتماء مشترك تجسده لغة محلية مكتوبة. ولا مشاحة أن إختراع الأبجدية المروية كان إنجازاً حضارياً متفرداً لا يجير فقط لأهل السودان بل لأفريقيا قاطبة. ويجدر التنويه إلى أن اللغة المروية قد وصلت إلى أعتاب الأبجدية بل وتمثل ونظيرتها الأخمينية–الفارسية مرحلة شبه الأبجدية. ويعتبرها كثير من الباحثين تقدماً على الكتابات القديمة (المصرية والسومرية والبابلية والآشورية وكتابة ببلوس) في الشرق الأدنى القديم وتطويراً لخطوط من خطوطها (المصرية والسومرية).

وبعد نهاية الدولة الكوشية (المروية) (350م) لا تشير الأدلة الأثرية والسجلات التاريخية إلى محاولة جادة لإبتداع أبجدية للتعبير اللغوي المشترك لأهل السودان. واستمر الحال على هذا المنوال طوال فترة الدويلات المسيحية (543–1504م) حيث أمدتنا الحفريات الآثارية بالعديد من المخطوطات والوثائق التي تشير إلى وضع لغوي مركب في السودان القديم يتسم بالتعددية. وليس أدل على ذلك من أن هذه الوثائق كتبت بلغات متعددة تشمل اليونانية والقبطية والنوبية القديمة والعربية. بيد أن ظهور الكونفدراليات الإسلامية في أواسط السودان (سلطنة الفونج) وغربه (سلطنة المسبعات والفور وتقلي) فضلاً عن فترة الحكم المهدوي (انظر أدناه) أدى كل

ذلك إلى اعتراف رسمي وشعبي باللغة العربية كأداة تواصل بين المجتمعات الثقافية في السودان –شماله وجنوبه– منذ ذلك الزمان وإلى يومنا هذا رغم تخوف البعض من أن انتشار هذه اللغة ربما يؤدي إلى طمس هوياتهم الثقافية بشكل أساسي في لغاتهم ولهجاتهم المحلية وما تكتنزه من موروث ثقافي.

2-2 العادات والتقاليد:

ولعل من أبرز خصائص أهل السودان جميعاً هو التداخل الأسري والتلاحم الإجتماعي في الأفراح والأتراح. وهذه السمة متجذرة في نفوس السودانيين كما تشير معتقداتهم في العصور القديمة. وعند مجيء الديانات السماوية (المسيحية والإسلام) عملت أيضاً على ترسيخ مفاهيم الوئام والوحدة والمحبة بين الناس على إختلاف مللهم ونحلهم. وتشير الأدلة الأثرية التي ترجع إلى العهد الكوشي (المروي) (900ق.م.-350م) إلى ظاهرة العائلة الممتدة (Extended-Family). وهي بالطبع تقليد سوداني صميم لم يتأثر –بشكل لافت للنظر– بالمتغيرات الإقتصادية عبر العصور بل ظل قيد الممارسة حتى يومنا هذا. فالعائلة عند السودانيين ومنذ العهد المروي كبيرة الحجم تشمل معظم الأهل والأقارب بعكس العائلة المصرية الفرعونية التي كانت تقتصر على الأبوين والأبناء. ومن الأدلة على عمق هذا التقليد وتجذره في الوجدان الجمعي لأهل السودان أن أسلافهم كانوا وثيقي الصلة بأهلهم وذويهم ليس فقط في فترة حياتهم بل وحتى الذين ارتحلوا للدار الآخرة من ذوي المكانة الإجتماعية والسياسية كانوا يذكرونهم في شواهد قبورهم ونقوشهم الجنائزية، فضلاً عن طبيعة المنزل السوداني المشهور بالضيافة والكرم منذ آلاف السنين، فقد كان كبير المساحة، فأصغر منزل في العهد الكوشي–المروي كانت عدد غرفه تصل إلى خمس وأكبر المنازل ذات ست وعشرين غرفة معدة لاستقبال الأهل والمعارف والضيوف.

ومن العادات الجامعة لأهل السودان الشلوخ. ولا تزال تمارس هذه العادة لدى العديد من القبائل السودانية في شمال وجنوب البلاد رغم انحسارها النسبي في العقود الأخيرة. وترجع هذه الممارسة إلى العهد الكوشي–المروي (900ق.م.–350م) إذ تبين أنها من الممارسات المألوفة في السودان القديم. وتشير اللوحات الأثرية لأشكال زعماء (لوحة الملك المروي نتكامني وزوجته الملكة أمانيتيري في معبد الأسد بالنقعة مثالاً لذلك) وأناس عاديين تظهر على خدودهم وجباههم أنماط متنوعة من الشلوخ.

ومن العادات التي لا تزال مستمرة في أغلب بقاع السودان عادة استخدام السرير الخشبي (العنقريب) وحمل الموتى عليه. وترجع عادة استخدام العنقريب لحمل الموتى إلى ما يزيد عن أربعة آلاف عام إذ ترجع إلى مملكة كرمة (1500–2500ق.م.) بشمال السودان حيث كان يوضع المتوفى على سرير خشبي (عنقريب) في وضع قرفصائي داخل المقبرة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقريب الكرمي كان يطعم أحياناً بالمايكا والعاج. واستمر استخدام العناقريب للموتى حتى العصر الحالي مع اختلاف في نوعية وكيفية استخدامها إذ اختفت عادة دفن الموتى بالأسِرة واستعيض عنها بحمل المتوفى فقط على السرير (العنقريب) إلى مكان المقبرة.

3–2 الفنون:

يعتبر الفخار من أكثر أنماط الفنون المادية التي تكشف بجلاء عن الهوية الثقافية لأصحابه. ولقد تميزت فخاريات عصور ما قبل التاريخ في السودان بأنها يدوية الصناعة وتميل في معظمها إلى اللون البني بدرجات متفاوتة كما وأن بنياتها تتراوح بين الرمل (الكوارتز) والمواد العضوية (التبن والقش). ووجدت فخاريات هذه الفترة في العشرات من المستوطنات المتباعدة جغرافياً شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات الاستوائية وشمال أفريقيا وغربها، وربما كان ذلك بدواعي اتصال حضاري مباشر أو غير مباشر حيث أن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر

الهولوسين (Holocene) كانت مؤاتية للتنقل والتداخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. وفي ظني أن القاسم المشترك الأعظم لهذه المستوطنات المنتمية لعصر ما قبل التاريخ المتأخر (حضارة الخرطوم الباكرة، 7500–5000ق.م.) هو اشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبرت عن نفسها بصورة جلية في نماذج متميزة من صناعة الفخار وزخرفته بصورة متفردة، أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة (Wavy–lines). وهذا التجانس القيمي والجمالي يعضد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتباعدة الأطراف (داخل وخارج السودان) تمثل أنموذجاً لمنطقة ثقافية مشتركة بؤرتها الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في أفريقيا.

وفي عهد مملكة كرمة (2500–1500ق.م.) تطورت صناعة الفخار السوداني من حيث الصنعة والحرق والتشكيل والزخرفة بصورة تضاهي نظائره في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. وفي عهد مملكة مروي (900ق.م.–350م) بلغت صناعة الفخار شأواً كبيراً حيث أنتجت مروي القديمة فخاريات متميزة تعتبر من أجود ما صنعه العالم القديم من الفخار. وخلال عهد الممالك المسيحية (1504–543م) حافظت صناعة الفخار السوداني على مستواها التقني الرفيع بفضل الإستخدام الواسع لعجلة الخزاف وبرزت أنماط جديدة من الأواني والأدوات والزخارف. أما في العهود الإسلامية فقد غلبت الأنماط المحلية على صناعة الفخار المتأثرة بتقاليد متوارثة وإن تم العثور على أنماط مستوردة من مصر والجزيرة العربية وشرق أفريقيا. وتلزم الإشارة هنا إلى أن هناك تجانساً كبيراً تقنياً وثقافياً بين أقوام هذه المجموعات الفخارية في كل فترة تاريخية على حدة. وفي ذات الوقت لابد من التنويه إلى قواسم حضارية مشتركة خلال الفترات التاريخية المتعاقبة للحضارة السودانية تؤمي إلى الوحدة الثقافية التي جمعت بين أسلافنا الذين أبدعوا فنون هذه الفخاريات صناعة وتشكيلاً وزخرفة في كل المشيخات والممالك والدول التي أقاموها في السودان القديم.

3- البعد السياسي:

محاولات السودانيين وأشواقهم نحو انتماء مشترك -وحدة في المشاعر والإرادة والمصالح- تجسده وحدة سياسية تستوعب التنوع الإثني (العرقي) والثقافي ليست وليدة اللحظة بل ترجع إلى أزمان بعيدة في التاريخ. وتشير المكتشفات الأثرية إلى أن أول المحاولات نحو بلورة نظام سياسي-إجتماعي يعمل على تنظيم العلاقات الإقتصادية والثقافية بين المجموعات السكانية التي قطنت السودان القديم قد تمت في حقبة ما قبل التاريخ المتأخر حيث تحولت المجموعات القبلية إلى مشيخات (Chiefdoms). وتوحدت الأخيرة في بوتقة مملكة كرمة في شمال السودان (2500-1500ق.م.) والتي تعتبر أول بناء سياسي مؤسسي تحت سلطة مركزية جمع السودان القديم (كوش) تحت وحدة ثقافية واقتصادية يسندها جيش نظامي دخل به المعترك العالمي. وكان لهذه الدولة السودانية الباكرة ثقلها الإقليمي في أفريقيا والشرق الأدنى القديم.

واتسمت الفترة التاريخية الواقعة بين نهاية دولة كوش الأولى (مملكة كرمة) وبزوغ دولة كوش الثانية (مملكة مروي) (900ق.م -350م) بالغموض والضبابية إلى حد كبير، فلم ترفدنا التنقيبات الآثارية والسجلات التاريخية بمعلومات وافية عن الأحوال في السودان (كوش) آنذاك. وكل ما نعرفه أن السودان القديم قد دخل دائرة النفوذ المصري مرة أخرى في عهد الدولة المصرية الفرعونية الحديثة (1580-1085ق.م.) ووصل النفوذ المصري إلى الشلال الرابع في عهد الملك المصري تحوتمس (1530-1520ق.م.). ودخلت مصر فترة من عدم الإستقرار السياسي (1085-751ق.م.) تمكن خلالها السودانيون من استعادة نفوذهم السياسي وتأسيس دولتهم الثانية (900ق.م.-350م). وتعتبر مملكة مروي المحاولة الثانية لأهل السودان للوحدة السياسية حيث برزت على المسرح السياسي كدولة قوية في جنوب وادي النيل في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد. وتمكنت هذه الدولة من دحر النفوذ الأجنبي وبناء مملكة قوية دامت ما يربو

عن اثني عشر قرناً. وتعتبر مملكة مروي صورة مصغرة لسودان اليوم بتباين ثقافاته وأعراقه وأدخلت في دائرة نفوذها ما يقرب ثلثي المساحة المكونة للسودان الحديث. وتنامى نفوذ هذه الدولة في بعض فترات التاريخ لتصبح إمبراطورية تحكم وادي النيل طُرّاً ما يقارب قرناً من الزمان.

وإختطت مملكة مروي مشروعاً للنهوض التقني تمثل في تعدين وصهر وتصنيع الحديد. ولا يخفى علينا ما للحديد من فوائد جمة على مر العصور وفي مختلف مناحي الحياة. وأثبت الشاهد الأثري أن السودان القديم كان أول دولة أفريقية عرفت صناعة الحديد (القرن السادس قبل الميلاد) مسجلاً تفوقاً تقنياً على مصر الفرعونية التي لم تعرف هذه التقنية إلا بحلول القرن الرابع قبل الميلاد. ولم تقتصر صناعة الحديد على المناطق الحضرية على مقربة من النيل بل ضمت مناطق مترامية الأطراف في أواسط السودان (الجزيرة) وجنوب شرقه(جبل موية) وجنوب البلاد (واو ومريدي)، فضلاً عن أقاليم غرب السودان (كردفان ودارفور) مما يومئ إلى أن صناعته كانت تمثل ظاهرة مجتمعية في السودان القديم. ولم تقتصر صناعته على الأسلحة للجيوش الملكية المروية بل شملت مستلزمات حياتية عديدة من بينها أدوات زراعية وجراحية مجلفنة لحمايتها من الصدأ.

وتشير المخطوطات والأدلة الأثرية إلى أن إنهيار دولة كوش الثانية (مروي) أدى إلى تشظي وتشرذم البلاد لفترة دامت قرنان ونيفاً من الزمان انفرط خلالها عقد الدولة المركزية. وبنهاية هذه الفترة برز نموذج الدولة الثيوقراطية (Theocratic-State) متمثلاً في ظهور الممالك المسيحية الثلاث (نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى أقرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، والمغرة التي تحتل المنطقة الممتدة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية) وعاصمتها دنقلا العجوز في حين أن مملكة علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم

تشمل منطقة شاسعة تمتد من الأبواب شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل الأزرق حتى الحدود الأثيوبية وبعض جهات كردفان). وتوحدت المملكتان الشماليتان (نوباتيا والمغرة) –في وقت غير معروف على وجه الدقة– في مملكة واحدة عرفت باسم "المغرة" وعاصمتها مدينة دنقلا وذلك لتأمين حدودها الشمالية ومواجهة أي غزو عسكري من مصر التي خضعت للحكم الإسلامي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي.

واستمر نموذج الدولة الثيوقراطية حتى بعد إنهيار الممالك المسيحية وظهور دولة الفونج في مطلع القرن السادس عشر بسبب التحالف بين الفونج والعرب (العبدلاب) في أواسط السودان والذي أدى إلى زوال مملكة علوة وتكوين مملكة الفونج (السلطنة الزرقاء) التي إمتد نفوذها من دنقلاً شمالاً إلى فازوغلي جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً. وكانت هذه المملكة تمثل أقوى وحدة سياسية ظهرت في السودان في العصر الوسيط. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدولة كانت تمثل اتحاداً طوعياً أو كونفدرالياً للعديد من المشيخات أبرزها العبدلاب (عاصمتها أربجي)، الجعليين (شندي)، الميرفاب (بربر)، الرباطاب (أبو أحمد)، المناصير (سلمات) والشايقية (مروي)، فضلاً عن مشيخات أخرى أصغر حجماً في كل من ضفر ودنقلا والخندق وأرقو. واتحدت كل هذه المشيخات والوحدات القبلية تحت نفوذ دولة الفونج بهدف حماية القوافل وتجارة الترانزيت وترقية التجارة الداخلية وتوفير الأمن ضد الغزوات الخارجية. ولا شك أن قيام دولة الفونج كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان السياسي والاجتماعي والثقافي. ورغم ظهور بعض الممالك الإسلامية الأخرى في أجزاء أخرى من السودان مثل دولة المسبعات (1559–1821م) ودولة تقلي (1570–1927م) ودولة الفور (1640–1874م، 1898–1916م) إلا أن دولة الفونج تعتبر أكبر هذه الممالك وأكثرها منعة وتأثيراً على مجريات السياسية الإقليمية حيث إمتد ظل سلطانها على عدد من المشيخات تشمل

منطقة شاسعة تمتد من دنقلا شمالاً إلى سنار جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً كما ضمت أجزاء من إقليم كردفان. ورغم نجاح دولة الفونج في إقامة دولة كونفدرالية تشمل عدداً من المشيخات السودانية، إلا أن محاولاتها لإقامة كيان سياسي عريض يضم، فضلاً عن ذلك، الممالك الإسلامية الثلاث في غرب البلاد (المسبعات وتقلي والفور) قد جانبها التوفيق.

وشهدت فترة الحكم التركي–المصري (1821–1885م) بزوغ أول وحدة سياسية للسودان الحديث بالرغم أن الهدف الأسمى من ضمه للدولة العثمانية كان كلونيالياً–اقتصادياً. بيد أن قيام حكومة مركزية في ذلك العهد بسطت سلطاتها على أغلب المناطق التي كانت تحت حكم المشيخات والسلطنات السودانية كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان الحديث. وفشلت الدولة التركية في حكم البلاد بسبب طبيعتها الاستغلالية وقهرها للشعب السوداني.

ويجدر التنويه إلى أن ذلك التغيير السياسي في العهد التركي–المصري (1821–1885م) متمثلاً في الواجهة السياسية (نظام كلونيالي–اقتصادي) وفرض سلطة الدولة المركزية على معظم أجزاء السودان الذي كانت تتقاسمه العديد من المشيخات والسلطنات (الفونج والمسبعات والفور وتقلي والدينكا والشلك والنوير وغيرها) لم يترافق مع تغيير جوهري في بنية الشخصية السودانية التي حافظت على اتساقها وانسجامها بشكل كبير حتى بعد زوال سلطتها الوطنية. وكان للدور الذي لعبه رجال الطرق الصوفية الذين كانوا ينتقلون بين أرجاء الأقاليم السودانية وما لهم من أنصار ومريدين أثر كبير في الحفاظ على درجة عالية من التناغم الثقافي بين معظم شرائح المجتمع السوداني. وقد تجلى هذا الانسجام الثقافي والتوافق الروحي بين المجموعات السودانية في بزوغ الثورة المهدية (1881–1885م) التي تمثل نظاماً ثيوقراطياً استند على تعاليم إسلامية متشحة بروح وطنية.

وتمكنت الثورة المهدية (1881–1898م) من استقطاب الكيانات السودانية التي تضررت من نظام الحكم التركي–المصري. ولم يقتصر تأثير المهدية الفكري على شمال السودان بل تعداه إلى جنوب البلاد كما يتبدى ذلك في دمج الدينكا أكبر قبائل الجنوب لفكرة المهدية العربية–الإسلامية في تراتيلهم وصلواتهم. ونجح المشروع الأيدولوجي للثورة المهدية في تحرير السودان من نير الحكم الأجنبي وإقامة دولته الوطنية. غير أن حقبة المهدية تميزت بعدم الإستقرار السياسي والحروب الخارجية سيما في أخريات عهدها. وأدى كل ذلك إلى إنهاك مفاصل الدولة التي فشلت في حماية حدودها مع دول الجوار حيث مالت هذه الحدود إلى التناقض وانعدام الفعالية بسبب عدم وضع حاميات بها بشكل دائم فكانت الثغرة التي نفذ منها الغزو الإنجليزي–المصري للسودان عام 1898م واضعاً النهاية للدولة السودانية الرابعة.

دخل السودان في عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي–المصري) عام 1898م مرحلة جديدة من تاريخه الحديث حيث استطاعت الدولة الكلونيالية أن تفرض مشروعها السياسي والثقافي على أهل السودان، إلا أنها لم تستطع أن تمحو أو تذيب النظم والثقافات المحلية للمجموعات السودانية وربما عملت على إحيائها في بعض الحالات. ومن جهة أخرى، لم تفلح الدولة الكلونيالية في إحكام قبضتها على الأراضي السودانية بصورة نهائية وكاملة، إذ أن المعارضة والثورة استمرت لفترة طويلة إلى أن تحقق الاستقلال في غرة يناير 1956م. وقامت الدولة السودانية الحالية في حدود المشيخات والممالك والسلطنات السودانية القديمة وتلك التي رسمها الحكم الأجنبي وفق مواثيق ومعاهدات دولية.

الخلاصة:

ومما تم إيراده آنفاً، يلحظ أن هنالك قواسماً ثقافية وحضارية مشتركة في اللغة والعادات والتقاليد وأشواق الوحدة السياسية لأهل السودان جميعاً. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على

أن هنالك شعوراً بالانتماء المشترك لسكان السودان منذ القدم. وليس أدل على ذلك من مشاريع النهوض الحضاري (ثقافياً وتقنياً وسياسياً) والتي كشفت عنها الحفريات الآثارية والسجلات التاريخية والتي لا تجترحها إلا أمة تشعر بتمايز عن غيرها من الأمم. وهذا بالطبع لا يتأتى إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري الذي يسمح بالإقرار بوجود كيان معنوي جدير أن يسمى بـ"الشخصية القومية" بغض النظر عن الولاءات العرقية والجهوية والأيديولوجية، وهذا ما كان من شأن السودان منذ عشرات القرون.

المراجع:

1- A.M. Abdalla, 1978. “Meroitic Civilization: Its Mediterranean Contacts and Africanness”, **Afrique Noire et Monde Mediterranean dans l ‘Antiquité’**, Dakar: 155-158.

2- E. Kleppe, 1982. “The Debbas on the White Nile, Southern Sudan”, in: **Culture History in the Southern Sudan**. (J. Mack and P. Robertshaw, eds) Memoir No. 8 of the British Institute in Eastern Africa, pp. 59-70.

3- P. Robertshaw, and Ari Siiriainen, 1985. “Excavations in Lakes Province, Southern Sudan”, in: **Azania**, vol. 20; 141-148.

4- أحمد محمد علي الحاكم، **هوية السودان الثقافية: منظور تاريخي** (الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990م) 31-32.

5- أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه. **كرمة مملكة النوبة، تراث أفريقي من عهد الفراعنة** (ترجمة صلاح الدين محمد أحمد) (الخرطوم، شركة الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م) ص 81، 187.

6- انظر: حيدر إبراهيم علي، "السودان والوحدة العربية: خصوصية الدور والانتماء"، **المستقبل العربي**، السنة الثامنة، العدد الرابع والخمسون، أغسطس 1983م، ص 84.

7- عبد الرحيم محمد خبير، "السودان القديم: بداية صناعة الحديد في أفريقيا"، **أدوماتو** (المملكة العربية السعودية)، العدد الأول، يناير 2000م، ص 42-49.

8- عبد الرحيم محمد خبير، "نشوء الدولة السودانية: منظور آركيولوجي-تاريخي" **دراسات أفريقية**، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، العدد الثامن والعشرون، ديسمبر 2002م، 26-27.

9- عبد الرحيم محمد خبير، "المنجزات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية"، **مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم**، العدد الرابع، يوليو 2005م، ص 18.

10- عبد القادر محمود عبد الله، **اللغة المروية: الجزء الأول** (الرياض، مطابع الملك سعود، 1986م) ص 155-158.

11- عمر حاج الزاكي، "عوامل الاستمرارية والتغيير في ملامح الثقافة السودانية: منطقة وادي النيل الأوسط (النموذج السوداني)"، **دراسات أفريقية**، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، العدد الثالث والعشرون، يونيو 2000م، ص 59.

12- محمد إبراهيم بكر، **تاريخ السودان القديم** (القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، 1971م) ص 136.

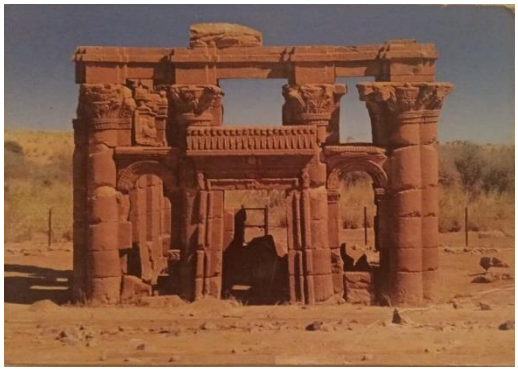

أثار النقعة (الكشك الروماني)– مملكة مروي (900 ق.م – 350م)

قبة الإمام محمد احمد المهدي (1885 – 1898م)

حول محاضرة الباحثة الألمانية أنجليكا لوفاسر بعنوان

(الملوك الكوشيون قبل الأسرة الخامسة والعشرين)[1]

أقام قسم الآثار بجامعة الخرطوم محاضرة عامة بتاريخ 2020/2/19م قدمتها باللغة الإنجليزية البروفسيور أنجليكا لوفاسر عميدة معهد الدراسات المصرية بجامعة مونستر الألمانية ومدير مشروع الآثار الألمانى فى "أبودوم" بالولاية الشمالية. قدمت المحاضرة الدكتورة نهى عبدالحافظ (رئيس قسم الآثار بجامعة الخرطوم).أدار المحاضرة (باللغة الإنجليزية) وعقب عليها البروفيسور عبدالرحيم محمد خبير (قسم الآثار بكلية العلوم الإنسانية، جامعة بحرى).

وشارك نفر من الحضور في مداخلات وأسئلة ردت عليها المحاضرة.

وتجدر الإشارة إلى أن الفكرة الأساسية للمحاضرة أن الباحثة الألمانية تود إبراز مشكلة تواجه البحث العلمى الخاص بالعهد الكوشى الثانى (نبتة – مروى) وهى تحقيق فترات الحكم للملوك الذين ظهروا على مسرح الأحداث قبل فتح مصر (751 ق.م) وإضافتها للدولة النبتية – المروية(664–900 ق. م) حيث أصبحت كوش إمبراطورية مترامية الأطراف تشمل وادى النيل (مصر والسودان) ويعرف مؤسسوها بالأسرة الخامسة والعشرين في التاريخ المصري القديم .

تناولت البروفيسور أنجليكا لوفاسر بالتفصيل أسماء ملوك(الأسرة الخامسة والعشرين) المحلية. وأوضحت أن كل ملوك هذه الأسرة (76 ملكاً) حتى نهاية العهد الكوشى (النبتى – المروي) كانت سودانية (محلية) ماعدا إسم ملك واحد هو حرسيوتف (إسم مصرى).

(1)موقع "الآثار السودانية" الأسفيري بتاريخ 2020/9/7م .

أوضحت المحاضرة أن مقابر الأسلاف للدولة الكوشية (نبتة مروى) ورصفائهم في الأسرة الخامسة والعشرين تضمها جبانة الكرو بكريمة إلى الجنوب الغربي من جبل البركل .وأبانت أن هناك أربع مجموعات للمقابر الملكية وهى :المقابر الركامية غيرالمسورة ، المقابر التى على شكل حدوه الحصان ، المساطب فالمقابر الهرمية .وضمت الجبانة الملكية مقابراً للخيل التى كانت مقدسة لدى العائلة المالكة السودانية أنذاك .وتعرضت هذه الجبانة لعمليات نهب وتخريب في فترات متلاحقة من التاريخ.

أشارت الباحثة لوفاسر إلى أن المعلومات التى تسلط أضواء متكاملة عن الملوك الكوشيين الأوائل ليست كافية سيما مايخص صلتهم القرابية وتواريخ إعتلائهم العرش .ولم تتضح الرؤية حتى عهد الملك. شبتكو (جبانه الكرو– 18). وتم التنويه إلى أن إسم أحد أقدم زعماء الدولة الكوشية(آلارا–Alara). لم يذكر بصورة متواترة ولانعرف الكثير عن سيرته إلا لماما.

وقد ورد إسـم ذلك الزعيم في لوحة للملك تهارقا (664–690ق.م) في الكوة ونعت بإسم (الزعيم أوالرئيس إبن الشمس آلارا) كما ورد إسمه في لوحة للملك نستاسين(335–310ق.م).ويعتبر الملك كاشتا شقيق آلارا هو المؤسس الفعلي للدولة النبتية – المروية وإستطاع أن يضم صعيد مصر لملكه وهو أول من حمل لقب ملك فيما عرف بالأسرة الخامسة والعشرين في تاريخ حضارات وادى النيل القديم.

ونوهت المحاضرة إلى أن هناك قوائم عديدة لتزمين الملوك الكوشيين وأقدم هذه القوائم لعالم الآثار الأمريكى جورج رايزنر (1923) والتى ضمت (68) ملكاً تم التعرف على مدافنهم في الكرو، نورى والبجراوية (الشمالية والجنوبية والغربية) .وتضم قائمة الباحثين الألمانيين (هنتزا – فينغ) (76) ملكاً ، قائمة الأمريكى دوز دنهام (72) ملكاً .وهناك أيضا قائمة

للبريطانى بيتر شيني (لم تشر إليها المحاضرة) في كتابه الموسوم ب(النوبة القديمة 1996 Ancient Nubia) وتشمل (67) ملكاً دفن (7) منهم في الكرو ، (20) منهم تم التعرف على مقابرهم بنورى و (40) من هؤلاء الملوك دفنوا في الجبانات الملكية بالبجراوية . ويلحظ أن عدداً منهم لم يتم التعرف على أسمائه بشكل دقيق كما وأن البعض الآخر لم يهتد الباحثون للتسلسل الزمنى لعهده. وعلاقته بأسلافه أو خلفائه على العرش الملكى مما يفتح الباب واسعاً للإفتراضات والنظريات التى عجزت عن إيراد تزمين متكامل للعهد النبتى – المروى. وبرغم أن الأعمال الآثارية المتواصلة منذ القرن الماضى كشفت عن العديد من اللوحات والنقوش الكوشية الملكية إلا أنها لم تسد الفجوات الزمنية للعهد الكوشي (النبتى – المروي) بشكل متكامل. والملك الفاتح "بيي" في نقشه المعروف بلوح النصر (المتحف المصرى،رقم 4886) لم يشر لا تصريحاً أو تلميحا لوضعه فى وطنه قبل تقدمه شمالاً حيث أكمل فتح مصر حتى الدلتا غير أنه قفل راجعاً للسودان (نبتة) تاركاً إدارتها لقادته فى كل من منف وتانيس بشرق لدلتا.

وجاء الحديث عن الملك شباكو(716–701 ق.م) مقتضياً خاصة أن السجلات التاريخية رفدتنا بمعلومات شحيحة عنه .وقد نوه وليم آدامز أن الملك شباكو وخليفته شبتكو شخصياتان باهتاتان (أنظر: النوبة رواق أفريقيا (252:2010). فالملك شباكو جنح إلى السلم في علاقاته الخارجية مع الإمبراطورية الآشورية التي كانت في حالة نزاع عسكرى مع الدويلات اليهودية ببلاد الشام .ويلحظ أنه إهتم بالعمران في صعيد مصر وبنى عدداً من البوابات الضخمة للإله آمون في غرب طيبة والكرنك وإسنا وأبروس. أما خليفته الملك شبتكو فقد وردت معلومات أيضاً قليلة عنه مصدرها هما: ألواح باللغة الهيروغليفية لشقيقه وخليفتة تهارقا والمصدر الآخر بعض الحوليات لملوك آشور ببلاد الرافدين وفى الأسفار اليهودية حيث دخل في معارك حربية

متحالفاً مع مملكة يهوذا ضد الملك الآشوري إلا أن جيوش الأخير انسحبت بصورة فجائية إلى بلادها بسبب تفشى وباء قاتل وسط الجنود .وأدى ذلك إلى إنسحاب الجيوش الكوشية بقيادة تهارقا عائداً إلى مصر. ويعتبر تهارقا (664–960 ق. م) أكثر الحكام السودانيين سيرورة في التاريخ القديم منذ أن قاد الجيوش الكوشية في عهد شقيقه الملك شبتكو في حروبة ببلاد الشام ضد مملكة آشور. ويلحظ أن السجلات النقشية عن عهده متوفرة بصورة أكبر من أسلافه. وقضى الفترة الأولى من حكمة في نشاط عمرانى أبرزه في كوش (جبل البركل ،الكرو، ونورى) وفى صعيد مصر طيبة ،الكرنك وغيرها . وشهد عهده حروب متلاحقة مع ملوك آشور (سناحريب ،اسارهادون وأشوربنيبال).ورجح المؤرخون أن تهارقا قد دخل في هذه الحروب لضم بلاد الشام لأملاك أمبراطوريته خاصة وأنها كانت جزء من الدولة المصرية الحديثة (1552–1069 ق .م). وبرغم إنتصاره الأول على الآشوريين إلا أنه تعرض لاحقاً لهزائم متتالية أجبرته على فقدان شمال مصر عام 664 ق.م ورجع لوطنه (كوش) بُعيد ذلك ودفن بجبانة نوري(Nuri–1). وخلفه على العرش إبن أخيه تانوت – أمانى (653–664 ق .م) الذى أراد أن يمد نفوذ الدولة الكوشية في مصر غير أنه تجرع هزائم عديدة أجبرته على التقهقر من جنوب مصر والعودة لنبتة حيث قضى بقية فترة حكمه القصيرة في تشييد بعض الأعمال العمرانية كما يستبان من لوح الرؤيا بقاعة معبد أمون فى جبل البركل .وتوفى ودفن بجبانة الكرو(Ku–16) منهياً حقبة ملوك كوش العظام الذين أسسوا امبراطورية مترامية الأطراف ضمت وادى النيل من جنوبة (النيل الأزرق – جبل موية) إلى أقصى شماله (الدلتا بمصر).

وفى تصورى أن المحاضرة بعاليه مهمة للغاية إذا أنها تعرضت لأهم حقبة في تاريخ مملكة كوش الثانية (نبتة – مروى) وأبانت المشاكل التى تواجه توثيقها بصورة دقيقة لقلة

السجلات التاريخية لملوك الأسرة الخامسة والعشرين التى يعتمد عليها لإعطاء صورة متماسكة توضح الصلات القرابية وتواريخ إعتلاء ملوكها العرش الكوشى والأحوال السياسية والإجتماعية للدولة السودانية أنذاك .ولا ريب أننا بحاجة ملحة لمزيد من البحث العلمى المنظم وبخاصة بعيداً عن المناطق الحضرية المتاخمة لضفاف النيل ببلادالنوبة (السودان ومصر) بغية الحصول على معلومات إضافية تعين الباحثين على سبر أغوار هذه المملكة التى تحولت عبر أحقاب التاريخ إلى إمبراطورية والتعرف على صلتها الحضارية بشكل أعمق بدولة كوش الأولى (مملكة كرمة 2500– 1500 ق.م) التى يعتبرها الكثير من الدارسين أنها النواة الحقيقية لها والمحاولة الأولى لأهل السودان القديم للإنعتاق من ربقة الإحتلال الفرعونى –المصرى الذى دام لقرون عديدة غير أنه لم يفلح نهائياً في إذابة الشخصية السودانية التى حافظت على إتساقها وإنسجامها وعلى هويتها الثقافية والحضارية عبر الحقب التاريخية المختلفة مقررة خصوصية بوتقة لثقافات وأعراق شكلت ماعرف لاحقاً ب "السوداناوية–Sudanism" والتى تجلت مؤخرا بصورة لافتة في ثورة 19 ديسمبر 2018م المجيدة .

الحضارة الكوشية- المروية بعيون غربية[1]

لعب السودان القديم دوراً بارزاً في تطور الحضارات الإنسانية. واجترح السودانيون العديد من المنجزات الفكرية والتقنية التي تفوقوا بها على كثير من الأمم والشعوب في العصور القديمة لعل من أبرزها إبتداع نظام متقدم في الكتابة الأبجدية (الخط المروي الإختزالي – Cursive) وإختراع الفخار وصهر وتصنع الحديد. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أهل السودان كانوا أصحاب ريادة وتفرد في كافة المجالات الفكرية والتقنية والتي تقف شاهداً على التاريخ المؤثل لهذا القطر ومكانته المرموقة في أفريقيا والشرق القديم منذ فجر التاريخ.

ولعل من أهم الحضارات السودانية التي أدت أدواراً متميزة في مسار الحضارة الإنسانية "الحضارة الكوشية – المروية" (900 ق.م – 350م) والتي عرف فيها السودان وأفريقيا جنوب الصحراء الكبري ولأول مرة ظاهرة "الدولة – State " كبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة منذ ما يربو عن أربعة آلاف عام بظهور دولة كوش الأولى (كرمة) والتي بسطت ظل سلطتها على شمال السودان الحالي وكل منطقة النوبة (2500 – 1500 ق.م) ودولة كوش الثانية (مملكة مروي) (900 ق.م – 350م). و بلغت الدولة السودانية أقصى إتساع لها في التاريخ في العهد الكوشي– المروي حيث كانت تمتد في أوج إزدهارها من شواطئ البحر الأبيض المتوسط (مصر) شمالاً إلى ضفاف النيل الأبيض (الكوة) والنيل الأزرق (جبل موية) جنوباً .

ولعل من المدهش أن هذا الإعتراف العالمي بتفوق الشخصية السودانية وتبوأها مكاناً علياً في سلم الحضارة الإنسانية لم يصل إليه رواد علم الآثار الأوائل الذين عملوا

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد (2136) بتاريخ 2011/12/2م .

في هذا القطر. وقد كان هؤلاء وكلهم من الأوربيين قد أنجزوا أعمالاً متنوعة في المسح والتنقيب الآثاري وبخاصة في شمال البلاد منذ فواتيح القرن العشرين. وفيما يلي الحضارة الكوشية – المروية فثمة إفتراضات ونظريات أثارها نفر من العلماء الغربيين حول أصل هذه الحضارة والجذور الإثنية (العرقية) للأسرة الحاكمة الكوشية التي يرجع إليها الفضل في بزوغ فجرها في فترة باكرة من تاريخ أفريقيا والشرق الأدنى القديم.

ومما شحذ همتي لتسطير هذا الموجز عن أصل الحضارة السودانية (كوش) مقال نشر باللغة الإنجليزية في مجلة "ناشونال جوغرافيك National Geographic) (عدد فبراير 2008م) للكاتب روبرت داربر – R. Draper موسوم بـ "الفراعنة السود: فصل مجهول من التاريخ يحكي عن ملوك من أدغال أفريقيا فتحوا مصر القديمة". وتنبه الكاتب إلى حقيقة هامة وهي أن مملكة كوش الثانية (مروي) لم تظهر بصورة فجائية على مسرح الأحداث في التاريخ إنما كانت إمتداداً لدولة أفريقية قوية هي "مملكة كرمة" وحاضرتها كرمة عند الشلال الثالث في أقصى شمال السودان. ونوه دراير إلى آراء بعض الرحالة الأوائل من المكتشفين للآثار السودانية في القرن التاسع عشر والذين أثار إنتباههم المنشآت المعمارية الرائعة (المعابد والأهرامات) التي تمثل أطلال حضارة كوش العتيقة أمثال الإيطالي الدكتور ج. فرليني (1834م) الذي نهب العديد من الأهرامات المروية والألماني رتشارد لبسيوس (1842– 1844م) الذي زعم أن الكوشيين الذين أنجزوا هذه الحضارة الراقية ينتمون إلى الجنس القوقازي (شعوب البحر الأبيض المتوسط) ولا صلة لهم البتة بشعوب أفريقيا الحامية.

ومن الملفت للإنتباه أن فرية الأصل القوقازي للحضارة الكوشية وجذورها الوافدة من السواحل البحرسطية لشمال أفريقيا ناجم من التفسير العرقي والنظرية العنصرية

للفكر الأوربي في القرن التاسع عشر والذي دون شك أثرَ كثيراً في التحليلات التاريخية والسياسية والإجتماعية وتلك التي تتناول التوجه القومي لعدد غير قليل من الكتاب والمفكرين الذين درسوا السجل الآثاري للسودان خلال أحقاب التاريخ المختلفة.

وتجدر الإشارة إلى ان مجموعة من علماء الآثار الأوائل الأوربيين والذين تناولوا التاريخ الكوشي قد أجمعوا –دون الإستناد إلى أدلة قوية_ على أهمية الأصول الأجنبية لإنجازات الحضارة السودانية . وتتلخص آراء هؤلاء الدارسين حول هذا الموضوع فيما يلي:

أولاً: ثمة رأي قائل بأن الأسرة الحاكمة التي أسست مملكة كوش (مروي) تتحدر من أصول مصرية فرعونية (قوقازية) . وقد أستند هذا الزعم على النقوش والآثار المادية التي كانت متوافرة حتى الربع الأول من القرن الماضي وهي تعكس – كما تذكرالأستاذة الدكتورة سامية بشير دفع الله – جانباً من نشاط هؤلاء الملوك مثل لوح النصر للملك بيي (بعنخي) ومسلة تانيس للملك تهراقا وبعض التماثيل للملك شباكو وأفراد أسرته التي اكتشفت في مصر. فقد لاحظ الباحث "برستد" أن تعلق ملوك كوش الشديد بعبادة الإله آمون لاعتقادهم بأنهم مصريون . كما لاحظ "درايتون" تطابق الأسماء في بعنخي بن آلارا السوداني وبعنخي بن حوريحور المصري فوصل إلى نتيجة مفادها أن الأول مصري كذلك لهذا السبب. غير أن هذه النظرية لا تصمد تماماً إذا ما أجلنا النظر في طابع العلاقة الحضارية بين السودان ومصر منذ فجر التاريخ. فالطابع المصري– كما يرى ثلة من المؤرخين وهم محقون في ذلك – يرجع إلى إستيطان الحضارة المصرية في السودان منذ آجال موغلة في القدم وما استصحب ذلك من وجود أعداد كبيرة من المصريين في بلاد النوبة ليعملوا في الإدارة المصرية أو في الجيوش المرابطة، كما وأن

انتشار الكهنة المصريين في معابد كوش كان له أثر كبير في نشر الثقافة والعقائد المصرية. وعلاوة على ذلك ، فإن ظهور الأسماء المصرية بين أصحاب البيت المالك في مروي القديمة لم يتعد إسمي الملكين بعنخي (Piankhy) (751–716 ق.م) وحرسيوتف (Harsiotef) (404–369 ق.م) هذا إذا ما إستثنينا الأسماء المصرية التي ظهر بعضها بين أبناء ملوك ذلك البيت الحاكم بالإضافة إلى بعض الأسماء المصرية التي حملها نفر من الموظفين والكهنة.

وهناك رأي مؤداه بأن الأسرة الحاكمة في دولة مروي ترجع إلى أصل ليبي. وصاحب هذا الرأي عالم الآثار الأمريكي جورج رايزنر الذي رأس البعثة المشتركة لحفريات جامعتي بوسطن – هارفارد (1913–1923م). وهو الذي أجرى أول حفريات آثارية أماطت اللثام عن إكتشاف أقدم الآثار الكوشية (مملكة كرمة) . وواصل تنقيباته في منطقة الشلال الرابع (نوري– البركل – الكرو) كاشفاً عن الجبانات والمعابد المروية وواضعاً أول قائمة لملوك كوش. وحسب زعم رايزنر ، فإن مقابر أسلاف الملوك الكوشيين ترجع إلى أصول ليبية جنوبية معتمداً في تأييد نظريته على بعض نتائج الحفر في الجبانة الملكية بالكرو. وقد تم العثور على رؤوس سهام ذات طابع ليبي في أقدم المقابر الملكية بالكرو ، كما تعرف على لوحة مكتوبة باللغة المصرية القديمة خاصة بزوجة فاتح مصر الملك بيي (بعنخي) وعليها قرأ رايزنر لقباً للملكة "تابيري" معناه "سيدة الطمياح" . وبناء على ذلك إطمان أنه إكتشف دليلاً قاطعاً بأن الأسرة الملكية في الكرو تنتمي إلى "الطمياح" وهم الليبيون الجنوبيون. ويدعي رايزنر أن كل أسماء أفراد الأسرة الحاكمة الكوشية (المروية) ليبية الأصل وتشبه في بنائها مثيلاتها

مـن الأسـماء الليبيـة. وسـرعان مـا تبـين خطـل هـذه النظريـة بالأدلـة الدامغـة للعديـد مـن علماء الآثار الذين توصلوا إلى النتائج التالية:

أولاً: أن السـهام الليبيـة فـي الجبانـة الملكيـة المرويـة بنبتـه عـددها (32) بينمـا النـوع المحلـي يبلـغ (39) سـهماً، أي أن عـدد رؤوس السـهام المحليـة أكثـر مـن رؤوس السـهام ذات الـنمط الليبـي، كمـا وأن ذلـك النـوع مـن السـهام المجنحـة كـان واسـع الإنتشـار فـي وادي النيـل منـذ عصـور مـا قبـل التـاريخ . حيـث عثـر علـى أنـواع منـه فـي كـل مـن الفيـوم والبـداري (مصـر) وفـي الموقـع الأنمـوذجي لحضـارة الخرطـوم القديمـة (السـودان). وبهـذا لا يمكـن إعتبـار رؤوس السـهام دلـيلاً يعتمـد عليـه للقـول بالأصـل الليبـي للبيـت الحـاكم فـي مملكة مروي.

ثانيـاً: القـراءة الصـحيحة للوحـة الملكـة تـابيري زوجـة بيـي (بعنخـي) هـي "سـيدة الصـحراء" علـى رأي عـالم المصـريات البريطـاني برايـان. ج. هيكـوك أو "سـيدة خاسـتيو" أي "سـيدة الـبلاد الأجنبيـة" كمـا يـرى المـؤرخ المصـري محمـد إبـراهيم بكـر، فكـلا القـراءتين تـدحض نظرية جورج رايزنر القائلة بالأصل الليبي للبيت السوداني الحاكم.

ثالثـاً: الـزعم بـأن أسـماء أفـراد الأسـرة الملكيـة المرويـة ليبيـة إسـتناداً إلـى المقطـع فـي نهايـة الإسـم (ــ قـه) الموجـود فـي الكثيـر مـن الأسـماء الملكيـة الكوشـية مثـل تهارقـة وأمتالقـة وأمـاني سـطباقة غيـر صـحيح كمـا يسـتبان مـن الدراسـات اللغويـة لأسـماء فراعنـة وادي النيـل. ونـومئ هنـا إلـى ترجمـة الـبعض للمقطـع (ــ قـه) الـذي إسـتمر ظهـوره فـي نهايـة الأسـماء المرويـة إلـى أنـه المقابـل لكلمـة "المبجـل" أو "المحتـرم" أي أنـه عبـارة عـن كلمـة مسـتقلة وغالبـاً تضـاف إلـى الإسـم. لـذلك لا ينبغـي الإرتكـاز عليـه للبرهنـة علـى أن الأسـماء المرويـة الخاصـة بملـوك كـوش مـن أصـل ليبـي كمـا يجـب الأخـذ فـي الحسـبان أن اللغـة

المرويــة التــي أزدهـرت فيمـا بعـد تختلـف جـذرياً عـن اللغـة الليبيـة وأن كثيـراً مـن أسـماء ملوك كوش يمكن تفسيرها على ضوء المعرفة باللغة المروية.

ويلـزم التنويــه إلــى رأي مغـاير تبنتــه طائفــة مــن العلمــاء الغـربيين لاحقـاً وعلــى رأســهم أ.ج. آركــل وب. شــيني البريطانيــان ، ج. لكــلان الفرنســي وت. كنــدال الأمريكــي وغيـرهم يفيـد بالأصــل المحلــي – الســوداني لملـوك كـوش. وقـد أثبـت البحـث الآثـاري أن هنـاك أدلـة نقشـية وأخـرى خاصــة بالعـادات والتقاليـد الحضـارية تثبـت بشـكل جلـي وقـاطع أن مؤسســي الدولــة الكوشــية – المرويــة يتحـدرون مــن أصــول إثنيــة محليــة. ويــرى بعــض بـاحثي الآثـار أن أسـلاف الملـوك المـرويين ربمـا جـاءوا مـن قريـة نـوري عنـد الشـلال الرابـع إسـتناداً إلــى مــا ذكـره الملـك نستاسـين (354–310 ق.م) فــي نقـش لــه حيـث أفـاد بـأن الـزعيم آلارا قـد نشـأ وترعـرع فـي قريـة تاكـات التـي لا تبعـد كثيـراً عـن جبـل البركـل . وقـد إقتـرح عـالم المصـريات مـايلز مكـادم (1949م) أن تاكـات هـي نـوري منشـأ الجـد الكوشـي الأكبـر آلارا. وبالإضـافة إلــى ذلـك ، فـإن هنــاك حزمــة مــن العناصــر الحضــارية تــربط ملــوك مــروي بحضــارات كرمــة (2500 – 1500 ق.م) ونظيراتهــا مــن المجموعــات النوبيــة المعروفــة (أ،ج) (2000–3800 ق.م) تنحصــر فــي طريقــة بنــاء القبــر، أسـلوب الــدفن ، عــادة التضــحية بــدفن الإنســان والحيــوان مــع صــاحب المقبــرة ، إنتشــار عــادة التحلــي بــالأقراط المســتديرة بالنســبة للرجــال ويضــاف إلــى ذلــك نتــائج دراســة التصــاوير المختلفـة لأصـحاب حضـارة كـوش (نبتـة ومـروي) فـي محاولـة للتعـرف علـى شـكل أولئـك الأقوام.

وممـا تـم سـرده آنفـاً ، يبـدو أن أصـحاب حضـارة كـوش (مـروي) كـانوا يتحـدرون مــن أرومــة حاميــة محليــة . وبــرغم قــوة تيــار الحضــارة الفرعونيــة المصــرية، فقــد حــافظ

الكوشيون على تقاليدهم السودانية العريقة ، بل ونجحوا في إقامة دولة قوية كانت إحدى القوى العظمى في العالم القديم بسبب تميزهم العسكري ومقدرتهم القتالية العالية وربما لخبرتهم التجارية أيضاً والتي لعبت دوراً كبيراً في إزدهار إقتصادهم وبالتالي تقوية نفوذهم حتى صاروا أباطرة وادي النيل طُراً في منتصف القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. إنها دون ريب صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد فهلا أحيينا ذكراها سيما في منعرجات التاريخ الفاصلة لتأكيد الذات وبعث الثقة فيها ولتغذية الوجدان بالوعي التاريخي الذي يسمح لنا بالتجديد الإبداعي للتراث المفضي إلى النهوض الحضاري لسوداننا العزيز بصورة تتفق والظرفية التاريخية والخصوصية الإجتماعية التي نعيشها.والله المستعان.

أهرامات الحضارة المروية - البجراوية

المتغيرات التقنية ودورها في حوار الحضارات:"السودان القديم" نموذجاً[1]

مقدمة :

شهد السودان القديم (كوش) ظهور العديد من الحضارات التي أدت أدواراً مهمة في مسار الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ في وادي النيل والعالم القديم .وعرف السودان الدولة كبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة منذ ما يربو على أربعة آلاف عام بظهور دولة كوش الأولى (مملكة كرمة) التي بسطت ظل سلطتهاعلى شمال السودان الحالي وكل منطقة النوبة (2500-1500 ق.م). وفي عهد دولة كوش الثانية (مملكة مروي، 900 ق.م – 350م) بلغت الدولة السودانية أقصى إتساعها لها حيث كانت تمتد في أوج ازدهارها من شواطئ البحر الأبيض المتوسط في مصر شمالاً إلى ضفاف النيل الأبيض الكوة والنيل الأزرق عند جبل موية جنوبا.

ورفدتنا الحفريات الآثارية بمعلومات ثرة عن المنجزات الحضارية المتفردة التي إجترحها السودانيون وتفوقوا بها على كثير من أمم العالم القديم. وشملت هذه المنجزات إختراع الفخار كأول قطر أفريقي وشرق أوسطي يعرف هذه الصناعة؛ كما عرف السودان صهر وتصنيع الحديد ؛ فضلاً عن إبتداع نظام متقدم في الكتابة الأبجدية (الخط المروي الإختزالي).

وستقتصر هذه الدراسة على تلك الانجازات التقنية التي تفرد بها السودان ريادة أو تطويراً خلال أحقاب متباينة من التاريخ مع تبيان دورها في إثراء التراث الإنساني في أفريقيا والشرق الأدنى القديم.

أولاً: مدخل عام :

1-1 التعريف بمفهوم " الحضارة – Civilization"

يعتبر هذا المفهوم من أكثر المفاهيم التي رانها اللبس والتشويه وطمس الدلالات فتحول إلى أبعاد قيمية تفتقد الماهية والمصداقية ، وأصبح مفهم الحضارة يطلق على أشياء وعمليات وأنساق ونظم متعارضة ليس في أهدافها ونتائجها فحسب وإنما في عناصرها ومكوناتها أيضا مما أدى إلى اقتراب هذا المفهوم إلى مفاهيم أخرى مثل الحداثة والتقدم والرقى ..الخ . ومناقشة هذا المفهوم

[1] مجلة الدراسات الانسانية ، جامعة دنقلا العدد 2 ، يناير 2009م : 24-34 .

مناقشة تفصيلية وتأصيلية لاستقصاء جذوره ودلالاته تستلزم دراسة منهجية لأصوله في المعاجم لتحديد دلالة المفهوم اللغوية والنظر إلى تطبيقاته العملية من الناحية الدينية والسياسية والأدبية والفنية ..الخ. وهذا ما لا يمكن التفصيل فيه في هذا المقام بالطبع ، بيد أن أكثر تعريفات هذا المفهوم شيوعاً جديرة بالتنويه . والحضارة في مفهومها العام تعني " ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء كان المجهود المبذول للوصول الى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود وسواء كانت الثمرة مادية أم معنوية[2]". وفى تقديري أن أكثر التعريفات صرامة ذلك الذى يقصر الحضارة على الجوانب المادية من الحياة الإنسانية ويعرفها بأنها " حصيلة الإنسان من الأسلحة التي يستخدمها في صراعه من أجل حماية وجوده العقلي والمادي". فالعملية الحضارية معادلة لإخضاع واستغلال الطبيعة، كما أنها تتضح بصفة خاصة في نمو التكنولوجيا والعلوم الطبيعية، التي يغلب عليها صفة النفعية والعقلية الحضارية والإعتبارات العملية. ولما كانت منتجات الحضارة قابلة للنقل والتراكم، نجد أن العملية الحضارية أحادية الخط وتقدمية في آن واحد[3].

أما الثقافة "culture" فشيء آخر، فهي تقتصر على الجوانب المعنوية من النشاط الإنساني وتتصف بالذاتية والنسبية وغير خاضعة للمعايير القياسية الموضوعية. وتتسم العملية الثقافية بالإبداعية والتفرد، ولذلك فهي غير قابلة للانتقال بسهولة من فترة تاريخية لأخرى. والثقافة بوجه عام تتألف من العالم والشخصية الفردية وتتجلى بشكل واضح في الدين والفلسفة والفن والأدب والأيديولوجيا.[4]

2-1 حوار الحضارات Civilization Dialogue

تردد لفظ الحوار فى العقود الأخيرة من القرن الماضي في محافل عديدة حيث وصفت به أتماط متباينة من العلاقات. ودعت العديد من الهيئات والمنظمات لحوار «الثقافات» فى الثمانينات من القرن العشرين ونشر العديد من الأوراق في كتب عن لقاءاته، لكنها لم تحدث تغييرا ثقافيا ملموسا، بيد أن مقولة الكاتب الأمريكي صموئيل هنتغتون عن «صراع الحضارات أو صدامها"Clash of Civilizations" المنشورة في دورية ,Foreign Affairs1993 " كان البديل لها هو الحديث عن حوار الحضارات. ولعل أهم شروط هذا الحوار الحضاري الإعتراف بالآخر وأن يتحقق لهذا الحوار معنى التبادل والتجدد الإستمرارية.[5]

ومما تجدر الإشارة إليه أن حوار الثقافات والحضارات ليس وليد اللحظة وإنما يطال عمره عمر الثقافة والحضارة الإنسانية برمتها.

ويحاج هذا المقال إستنادا على أسانيد آثارية بأسبقية السودان في مجال التقانة في العالم القديم كما يظهر ذلك جليا في صناعة الفخار وصهر وتصنيع الحديد في أفريقيا وأثر ذلك في حوار الحضارات (التأثير والتأثر والتبادل) الذي لا يتم بالقهر والغلبة وإنما بالانديا ح السلمي للعناصر الحضارية سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي وخلال الفترات التاريخية المتعاقبة.

ثانيا: المنجزات التقنية للحضارة السودانية:

٢-١ صناعة الفخار:

يعتبر الفخار من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان حيث ظهرت أول الأشكال الفخارية في نهاية العصر الحجري القديم الأعلى وبداية العصر الحجري الوسيط (10000 ق٠م). فأهمية الفخار لا تنبع من كونه أداة استخدمها الإنسان في فترة معينة ولا يزال يستخدمها حتى اليوم في كثير من المناطق بل لأنه أحدث تغييرات هامة في أوجه حياته المختلفة حيث مهد للكثير من الصناعات الأخرى. فعملية حرق لأواني والأدوات الفخارية مكنت الإنسان أن يتحكم ليس فقط في درجة الحرارة واستخدامها الأمثل في صنع الأواني والأدوات بل سخرها أيضا في صهر بعض المعادن مما جعل بعض الدارسين يطلق على قدامى الفخاريين لقب "المهندسين الكيميائيين الأوائل"

وجدير بالذكر أن أقدم دليل أثري موثوق به عن معرفة الإنسان للفخار أمدنا به موقع ناتسوس في إقليم هوكايدو في اليابان ويؤرخ إلى (9500 ق . ح)[6]. ويعتبر موقع السروراب 2- في وسط السودان (إقليم الخرطوم) ثاني أقدم موقع أثري في العالم القديم عرف هذه الصناعة وأقدم موقع في أفريقيا والشرق الأدنى القديم يحتوي على مصنوعات فخارية (9420 ق. ح)[7]. وتم تنقيب هذا الموقع ضمن مشروع جامعة الخرطوم للحفريات الآثارية بشمال أم درمان كاتب هذه السطور عام ١٩٧٨ م حيث شكل جزءا مهما من دراسته لفخار عصر ما قبل التاريخ في أواسط السودان باستخدام المنهج العلمي الفيزيائي والكيميائي. وأماطت الحفريات في هذا الموقع

اللثام عن أشتات كثيفة من الكسر الفخارية، فضلا عن كميات وافرة من الأدوات الحجرية والبقايا العظمية وبعض الرخويات.

كانت مجموعة الفخاريات التي تم العثور عليها في هذه المستوطنة كسرا بأحجام وأشكال مختلفة. ويبدو أن معظمها لأوان مفتوحة من الطاسات وقدور الطبخ ويزدان معظمها بزخارف على هيئة نقاط أو حزوز أفقية. ومن أبرز الزخارف ذات الأهمية الكرونولوجية (الزمنية) الحزوز المتموجة المتصلة التي وجدت بوفرة وتركزت في الطبقات المبكرة للموقع. وتظهر الفخاريات المتموجة الزخارف تشابها لصيقا في أنماطها بتلك النماذج التي وجدت في مناطق متباعدة في وادي النيل والبحيرات الاستوائية وفي شمال أفريقيا وغربها.

تتميز أقدم الأواني الفخارية في هذا الموقع ونظائره من المواقع الأخرى في السودان (موقع مستشفى الخرطوم، السقاي بشرق النيل، الخرطوم شق الدود في منطقة البطانة، شابونا (في منطقة النيل الأبيض نموذجا)[8] بأنها يدوية الصنع، تميل في معظمها إلى اللون البني والبني المحمر. وأبان التحليل العلمي الذي أجراه كاتب هذا المقال باستخدام المنظار (الميكروسكوب) البترولوجي والاختبارات الكيميائية في جامعات الخرطوم وساوثهامتون (بريطانيا) وفاخنين (هولندا) أن عجائن هذه الفخاريات الخشنة خلطت بالرمل (الكوارتز) والصخر الرملي وتكاد تخلو من المواد العضوية ويظهر بعضها سطوحا متأكلة بفعل الإستخدام والتعرية. كما أثبتت التحاليل المختبرية أن العجينة التي – منها أواني موقع السروراب–2 متوافرة محليا مما يشير إلى أن التصنيع قد تم تنفيذه في المستوطنة نفسها أو المنطقة التي حولها. (لوحة:1) ولعل من أهم نتائج التنقيب في موقع السروراب –2 الحصول على تاريخين بكربون 14 المشع لبعض الطبقات التي تحتوي على معثورات تشمل كسرا فخارية أبرزها النماذج ذات الزخرفة المتموجة المميزة لتقليد حضارة الخرطوم الباكرة، "Early Khartoum Tradition", علاوة على أدوات حجرية وعظمية ومواد عضوية. ويشير التاريخ المعطي للطبقة العلوية للمربع رقم 27 (30 سم تحت مستوى سطح الأرض) إلى حقبة زمنية تصل إلى90 _+7380 سنة قبل الميلاد، في حين يصل عمر الطبقة السفلية (٥٠سم تحت مستوى السطح الحالي) إلى حقبة تصل80_+7420 سنة قبل الميلاد[9].

ويجدر التنويه بأن أكثر مواقع الفخاريات قدما في أفريقيا والشرق الأدني القديم كما يتضح ذلك من نتائج كربون 14 المشع تشمل موقع تنتورها (الصحراء الليبية) ويؤرخ للفترة ما بين (7400 ق. م) ونبتة – بلايا (الصحراء الغربية المصرية) ويقع بين (6240– 700 ق.م) وموقع كهف قمبل في منطقة البحيرات الاستوائية واستمر خلال الحقبة بين (6650– 6160 ق.م).وتلزم الإشارة هنا إلى أن أقدم مواقع الفخار في غرب آسيا توجد في إيران (قانجدارح) حيث تؤرخ إلى (7000 ق.م) وتركيا (موقع كتال هيوك ، هضبة الأناضول) ويؤرخ إلى 6300 سنة قبل الميلاد [10].

وبإلقاء نظرة فاحصة على ما تم ايراده أنفا، يمكننا ترجيح الإحتمال بأن منطقة الخرطوم كانت مهد صناعة الفخار في أفريقيا والشرق الأدنى القديم، لا سيما وأن قدم مواقع حضارات الفخار فى تلك المناطق ذات تواريخ تقل بدرجة ملحوظة عن مواقع السروراب2 في إقليم الخرطوم.

ثمة نتيجة هامة أخرى لحفرية السروراب2– في أواسط السودان وهى توافر مجموعة فخارية تمثل الأنموذج المتميز لحضارة الخرطوم الباكرة التي وجدت مستوطناتها أيضا في العشرات من الأماكن المتباعدة جغرافيا، وقد شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات الاستوائية وشمال أفريقيا وغربها، وربما كان ذلك بدواعي إتصال حضاري مباشر أو غير مباشر حيث أن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر الهولوسين «Holocene" كانت مواتية للتنقل والتداخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. والرأي عندي أن القاسم المشترك لهذه المستوطنات المنتمية لحضارة الخرطوم الباكرة هو اشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبرت عن نفسها بصورة جلية فى نماذج مميزة من صناعة الفخار وزخرفته بطرز متفردة، أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة. وهذا التجانس القيمي والجمالي يعضد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتباعدة الأطراف تمثل أنموذجا لمنطقة ثقافية مشتركة بؤرتها الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في أفريقيا[11].

تطورت صناعة الفخار بشكل كبير خلال العهود المختلفة للحضارة السودانية. ووصل الفخار السوداني في عهد دولة كرمة (2500–1500 ق. م) مستوى رفيعاً من حيث الصنعة والحرق والتشكيل والزخرفة. ويعتبر فخار حضارة كرمة من أجود أنوع الفخار فى أفريقيا والشرق

القديم. ويضاهي هذا الفخار نظيره المصري المعاصر. ففي مصر الفرعونية لا نجد للفخار مكانة كبيرة، ربما لتوفر المواد البديلة أو الأعلى قيمة.

وفي عهد دولة مروي(900 ق.م–350 م) فقد بلغت صناعة الفخار شأواً كبيرا حيث أنتجت مروي فخاريات متميزة تعتبر من أجود ما عرفه العالم من الفخار اليدوي والمصنوع بالدولاب (العجلة)، وضم الفخار المروي أشكالا عديدة يأتي بعضها على هيئة أواني القرع والمعروف حاليا في غرب السودان باسم «البخسة». ومن أبرز الزخارف تلك التي على هيئة حزوز (ضحلة أو غائرة) ومحشوة بمادة جيرية بالاضافة إلى الأنماط المطلية والمزينة أحيانا بزخارف على هيئة أوراق الكرم[12]. ويلاحظ وجود تأثيرات أجنبية على الفخار المروي ومن أمثلة ذلك الزخارف التي على هيئة هلال وزهر اللوتس ورمز الحياة (عنخ) والتي تشير إلى أثر مصري واضح. وهنالك أيضا تأثيرات إغريقية جلية تتمثل في الزخارف النباتية التي على هيئة إكليل أو نفل (زهور ثلاثية) أو زهرة مفتوحة (رباعية الوريقات)[13].

وفي العهد المسيحي (543–1504م) حافظت صناعة الفخار السوداني على مستواها التقني الرفيع بفضل الاستخدام الواسع لعجلة الخزاف. وبرزت في هذه الفترة أنماط جديدة ومتنوعة من الآنية، ففي الفترة المبكرة لهذا العهد نلحظ أن أشكال الفخاريات تغلب عليها الجرار والطاسات ذات القواعد العادية وذوات الأرجل كما تتميز بزخارف هندسية مطلية ومختومة. وفي الفترة الكلاسيكية ظهرت إضافة إلى الأشكال السابقة – الزمزميات والدوارق والأطباق والكاسات بشكل لافت للإنتباه واستمرت العديد من الزخارف للفترة المبكرة لا سيما الزخرفة المطلية. أما في الفترة المتأخرة فنجد أن معظم أشكال الفخار تضم أكوابا وطاسات خالية من الزخارف. ويلاحظ أن زخارف العهد المسيحي لا سيما في الفترة الكلاسيكية قد تأثرت بالأنماط المستوردة من مراكز الصناعة المصرية (أسوان، بلاص، سقارا والفسطاط)[15].

وأمدتنا المواقع الإسلامية بأنواع متميزة من الفخار يغلب عليها الطابع المحلي، وهي جيدة الصنع ومتأثرة بتقاليد متوارثة. بيد أننا نجد ضمن هذه الموجودات نذرا يسيرا من الخزف الأصفر المزجج الشهير الذي ظهر في بعض المواقع على ساحل البحر الأحمر السوداني كما عثر على ما يماثله في عدة مواقع إسلامية في مصر أبرزها القاهرة «الفسطاط» وفي شرق أفريقيا وبعض المواقع بظفار فى سلطنة عمان، وفضلا على ذلك، تم العثور على متفرقات من الخزف الصيني

وموجودات أخرى (أواني زجاجية ونقوش) وهي تومئ إلى صلات تجارية وحضارية بين السودان القديم وحضارات الجزيرة العربية والشرق الأدنى القديم[16].

ومما تم إيراده أعلاه، يبدو لنا جليا أن صناعة الفخار فى السودان القديم كانت لها الريادة في أفريقيا والشرق الأدنى في عصور ما قبل التاريخ. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل طور الفخاريون السودانيون هذه الحرفة في العصور المختلفة من حيث مستوى الصنعة وإبتداع الأشكال والزخارف المتنوعة حتى غدا الفخار السوداني من أجود أنواع الفخار أسلوبا وتشطيبا فى الأزمنة القديمة.

٢-٢ صناعة الحديد:

عرف السودان القديم (كوش) صناعة الحديد منذ فترة باكرة (القرن السادس قبل الميلاد) حيث أثبت الشاهد الأثري بكل تفصيلاته أن مملكة مروي (900 ق.م -350 م) هي أول دولة في أفريقيا استطاعت أن تقوم بعملية تعدين وصهر وتصنيع الحديد. وتعتمد هذه الدراسة عن الحديد في السودان القديم على ما نشر في الأدبيات الاثارية عن الموضوع علاوة على الملاحظات الشخصية لكاتب المقال حول طبيعة خامات الحديد والأفران والمنافخ التي استغلت في عملية التعدين خلال زياراته العلمية للمدينة الملكية في مروي القديمة (البجراوية) (1975-1981،2000م)[17].

كان للحفريات التي قام بها جارستانق - Garstang ووصف نفايات الحديد في مروي بواسطة الباحث سايس 1912 م (Sayce) القدح المعلى في كشف النقاب عن الدور البارز الذي لعبته دولة مروي في تعدين وصهر الحديد في أفريقيا. وفي عام 1940 م قام عالم الأثار الإنجليزي أ.ج. آركل A.J.Arkell يرافقه الكيميانى أ. لوكاس A.Lucas بعمل مجسات اختبارية في مدينة مروي القديمة بغية تسليط مزيد من الضوء على طبيعة نفايات الحديد

والمصنوعات الحديدية التي عثر عليها في المدينة. وخلصت هذه الإختبارات إلى نتيجة مفادها أن هناك أكواما عديدة من النفايات والأدوات الحديدية حول مروي كما وأن معبد الأسد (نمرة 6) للمعبود المحلي أباد أماك قد بني فوق تل نفايات الحديد[18]. ولا ريب أن هذه الأدلة تدعم المحاجة القائلة بمحلية صهر وتصنيع الحديد في السودان القديم (كوش).

وثمة رأي لمجموعة من علماء الآثار"ف. هنتزF.Hintz ، «د. دنم Dunham و«ب. شيني Shinnie .p" استنادا إلى وجود مصنوعات حديدية في بعض المقابر الملكية المروية مؤداه أن هناك تاريخا يتراوح بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يمثل البداية الحقيقية لصناعة الحديد في السودان القديم. وهناك تاريخ بكربون 14 المشع (B.C 140+_440) لصناعة الحديد في أفريقيا الغربية (موقع تاروجا في نيجيريا) [19]. وفي تقديري أن أكثر الأدلة وثوقا حتى الآن ما رفدتنا به الحفريات في مروي القديمة (البجراوية) حيث تم الحصول على تاريخ مؤكد بكربون 14 المشع يؤرخ بداية ظهور الحديد في السودان إلى القرن السادس قبل الميلاد (B.C± MR7-51473) . وجاءت العينة التي أمدتنا بهذا التاريخ من الطبقة رقم 16 للمجس الإختباري – M50 داخل المدينة الملكية. وتكمن أهميتها في أنها كانت مترافقة مع أوان فخارية تنتمي للفترة المروية[20] مما يؤكد صدق هذا التاريخ. (لوحات: 3-4).

ورغم أن الحديد قد ظهر منذ فترة مبكرة في مصر القديمة (1700- 1600 ق.م) في عهد الهكسوس لا سيما على هيئة معدات حربية إلا أن استخدام ذلك المعدن بشكل أكثر رواجا قد تزامن مع الغزو الآشوري لمصر في عام 671 ق.م.[21] بيد أن الحديد حينها كان لا يزال سلعة مستوردة تجلب من غرب آسيا على شكل أدوات وأسلحة حيث لم يعثر على أي دليل يقيني (استنادا على وثائق مكتوبة أو بواسطة الأساليب الفيزيائية والكيميائية للحصول على تاريخ مطلق) يؤرخ لصناعة محلية للحديد في مصر القديمة. ويبدو أن أكثر الأدلة شيوعا بين الباحثين هي أن مصر القديمة قد عرفت الحديد في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد استنادا على بقايا فرن لصهر الحديد عثر عليه في موقع تل الدفنة بمنطقة الدلتا[22].

أبانت التنقيبات الآثارية أن مراكز صهر الحديد في دولة مروي انتشرت في مناطق متفرقة تمتد من الشلال الأول شمالا إلى منطقة جبل موية في إقليم النيل الأزرق. وفي موقع جبل موية عثر على كميات غير قليلة من الأدوات الحديدية ضمت أسلحة متنوعة وخلاخيل وأسورة وأقراطا تؤرخ للفترة الوسيطة والمتأخرة من العهد المروي (القرن الرابع – القرن الأول قبل الميلاد). وجدير بالذكر أن مراكز تصنيع الحديد في السودان القديم لم تقتصر على المراكز الحضرية بالقرب من النيل بل شملت بعض المناطق البعيدة داخل البلاد مثل جبل الحرازة (كردفان) ومواقع جبال طقابو وسي وسمياط (دارفور) وتؤرخ هذه المواقع بواسطة كربون 14 المشع إلى مطلع الألف

الأول الميلادي. وتعضد نتائج هذه الحفريات مقولة الباحث وينرايتWainwright بأن الأدوات الحديدية وصلت السودان من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى الأفريقية[23]. ويعتقد هذا الباحث – مثل العديدين من علماء الآثار أن مصدر الحديد في أفريقيا هو بلاد الشام حيث جلب الفينيقيون هذه التقنية من بلاد الأناضول (بدأ تعدينه في الألفية الثانية قبل الميلاد) ومن ثم نقلوها لا حقا إلى شمال أفريقيا (بلاد المغرب).

وكشفت نتائج المكتشفات الآثارية أن الحديد في دولة كوش الثانية (مروي) استخدم في صناعة أنماط متنوعة من الأدوات أبرزها أسلحة (سهام، حراب، فؤوس وسكاكين) وآلات زراعية (معازق ومجارف) وملاقط وأزاميل وأدوات جراحية مجلفنة لحمايتها من الصدأ. ومما ساعد على ازدهار صهر وتصنيع الحديد في مروي القديمة توفر خاماته في جبال الحجر الرملي النوبي حول المدينة الملكية، فضلا عن وجود كميات غير قليلة من الأخشاب اللازمة لا يقاد أفران الصهر[24].

ويجدر التنويه إلى أن نظرية صهر الحديد في مروي قد وجدت ما يعضدها من الشواهد الآثارية حيث عثر العلماء على كميات ضخمة من نفايات الحديد لا تزال ماثلة للعيان حتى الآن حول المدينة الملكية بالإضافة إلى كميات كبيرة من عجيرات (عقد) الحديد الصدئ والذي يتكون بشكل رئيسي من معدن المغنيتيت (أكسيد الحديد الأسود) وأعداد وافرة من أفران الصهر والمنافخ وأنابيب النفخ الفخارية[25]. ولعل الباحث البريطاني سايس – Sayce .H .A كان محقا عندما أطلق عبارته الشهيرة «مروي برمنجهام أفريقيا»[26]. ومما سلف إيراده فإن بعض الأهرامات الملكية المروية وعدد من المعابد قد بنيت فوق ركامات من خبث الحديد.

ويشير الشاهد الأثري إلى أن أول قبر ملكي وجد فيه دليل للحديد في دولة مروي هو قبر الملك تهارقا (690–964 ق. م) كما وجدت أدوات حديدية فى مقابر كل من الملك حرسيوتف (404–369 ق.م) والملكة أماني– شخيتي التي تؤرخ للنصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد[27]. ولكن بما أن كل المقابر الملكية المروية منهوبة حيث إمتدت إليها يد العبث، فقلة الحديد وأحيانا ندرته في العديد من المقابر الملكية ليست دليلا كافيا بأن هذا المعدن كان نفيسا في تلك الحقبة من العهد المروي.

وتأسيسا على ما سبق ، يبدو أن مروي القديمة كانت تمثل مركزا لصناعة الحديد في وادي النيل الذي انداحت منه أسرار هذه التقنية لتصل أقاليما عديدة من أفريقيا جنوب الصحراء لاسيما وأن أقدم مواقع صناعة الحديد في أفريقيا في تلك البلاد (موقع تاروجا في نيجيريا ومواقع KM3&KM2 فى شمال تنزانيا) ذات تواريخ تقل نسبيا عن موقع مروي (القرن السادس قبل الميلاد) في أواسط السودان[28].

وثمة إشارة هامة ، وهي إننا لا نعرف بشكل جلي لماذا قام السودانيون بصهر وتصنيع الحديد في القرن السادس قبل الميلاد في الوقت الذي كان فيه ذلك المعدن ما يزال نفيسا في مصر الفرعونية المعاصرة؟. يرى بعض الدارسين أن صهر وتصنيع الحديد ربما يشير إلى مكانة مروي كمركز للنشاط الصناعي أو أن ذلك كان دافعة إنتاج الأسلحة للجيوش الملكية المروية[29]. ويبدو لي أن العقلية الابتكارية المروية كان لها قصب السبق في نقل صناعة الحديد إلى وادي النيل وأنه يمثل مشروعا للنهوض الحضاري للدولة السودانية آنذاك. وأجد نفسي مائلا إلى الرأي القائل بأن اكتساب معرفة صهر وتصنيع الحديد قد عرفتها بلاد كوش (السودان القديم) عبر الإتصالات التجارية والحضارية مع بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى لاسيما وأن هذه الصناعة كانت معروفة فى تلك الأصقاع منذ فترة باكرة نسبيا وسابقة لوادي النيل. ولا ريب أن معرفة قدماء السودانيين المبكرة لتقنية الفخار فى الألف الثامن قبل الميلاد خاصة عملية التحكم في درجة الحرارة واستخدامها الأمثل بواسطة الأفران مكنتهم لاحقا من الاستيعاب السريع لتقنية المعادن (النحاس والحديد) والاستفادة منها في شتى ضروب الحياة. وتمثل أفران صهر الحديد فى مروي القديمة تطورا جليا لا تخطئه العين عن أفران حرق الفخار في حضارات الخرطوم الباكرة[30] (7500– 5000 ق.م) والشهيناب (4500–3500 ق. م) في أواسط السودان[31].

ورغم أن الأدلة الآثارية تشير إلى زيادة مضطردة في تقنية الأدوات الحديدية في الفترة المتأخرة من دولة مروي مقارنة بعهودها الباكرة [32]، إلا أن ذلك الزخم في تقنية الحديد لم يترافق مع تغيير جوهري فى البنية السياسية والإجتماعية للدولة المروية. ويبدو أن مرد ذلك يكمن في أن تقنية الحديد المروية كانت مشروعا حداثيا لم يتوافر له الإطار المعرفي الكافي والنسق الإجتماعي والإقتصادي المؤاتي الذي يسمح بتوطينه في السوية الثقافية للمجتمع السوداني آنذاك. ومن جهة أخرى، أدت الأحداث السياسية العاصفة التي حلت بدولة مروي في آخر

عهدها وما رافقها من تداعيات فى شتى المجالات إلى تقويض ذلك المشروع التقني فلم يتحول إلى مشروع نهضوي يفضي إلى تغييرات أساسية في بنية المجتمع السوداني حينها.

الخلاصة :

وما تم تبيانه آنفا يشير بجلاء إلى الدور البارز الذي لعبه السودان القديم في مسار الحضارة الإنسانية على المستوى الإقليمي (أفريقيا والشرق الأدنى). ولم يكن السودان معبرا للتيارات الحضارية الوافدة فحسب بل كان في ذات الوقت أحد مراكز الحضارة الرئيسية التي كان لها الريادة في إبتكار تقنيات جديدة منذ الفترة المتأخرة لعصر ما قبل التاريخ. ومثلت منطقة الخرطوم (مواقع حضارة الخرطوم الباكرة المؤرخة للعصر الحجري الوسيط) أنموذجا لمنطقة ثقافية مشتركة إنداحت منها فكرة صناعة الفخار وزخرفته إلى أجزاء عديدة من القارة الأفريقية لاسيما جنوب الصحراء الكبرى. وطور الفخاريون السودانيون هذه الحرفة خلال العصور المختلفة من حيث مستوى الصناعة والأشكال والزخارف حتى أضحى الفخار السوداني من أجود أنواع الفخار أسلوبا وتشطيبا في العصور القديمة. وتجدر الإشارة إلى النماذج المتنوعة من الفخار السوداني التي وجدت في العديد من المواقع الآثارية للحضارات المجاورة. وفي نفس الوقت تم العثور على أمثلة من فخار الحضارات المعاصرة في العشرات من المواقع الآثارية السودانية.

ويبدو أن معرفة السودانيين المبكرة لصناعة الفخار في الألف الثامن قبل الميلاد لاسيما عملية التحكم في درجة الحرارة واستخدامها الأمثل بواسطة الأفران مكنتهم لا حقا من الإستيعاب السريع لتقنيات المعادن (النحاس والحديد) حيث تمثل أفران صهر الحديد في دولة كوش الثانية (مروي) (900ق.م–350م) تطورا جليا لا تخطئه العين عن أفران حرق الفخار في حضارات الخرطوم الباكرة (7500–5000ق.م) والشهيناب(4500– 3500 ق. م) في أواسط السودان. ولم يقتصر دور قدماء السودانيين على إيصال تقنية صهر وتصنيع الحديد إلى وادي النيل فحسب بل استفادوا من هذه التقنية في شتى مناحي الحياة ونقلوها بدورهم عبر الوسائط السلمية إلى العديد من الأمصار الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى. وتجدر الإشارة إلى أن قدامى السودانيين كانوا مستوعبين أكثر من كونهم مقلدين لصيغ الحضارات الوافدة إليهم. فقاموا بتكييفها لتتسق مع مزاجهم ولتتماهى مع مطالبهم، فنخلوها وتمثلوا منجزاتها وأضافوا إليها إبداعات

حضارية جديدة أماط اللثام عنها إرث حضاري متفرد كشفت عنه التنقيبات الآثارية والسجلات التاريخية.

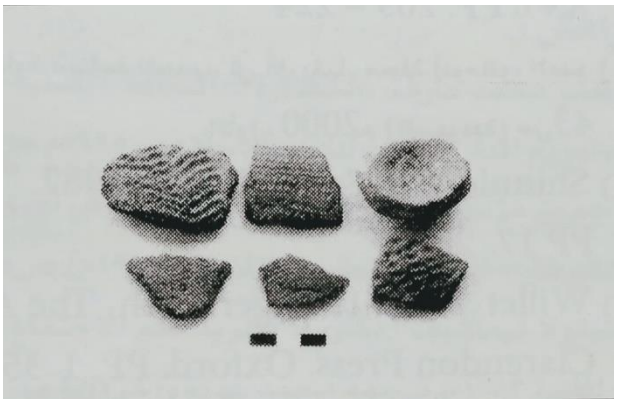

لوحة (1) فخار من حضارة الخرطوم الباكرة. موقع السروراب2

لوحة (2) فخار من حضارة عصر ما قبل التاريخ: موقع أركويت

لوحة (3) مجس اختباري D50,E50 في موقع مروي(البجراوية) وتظهر فايات الحديد يسار الصورة

لوحة (4) فرن لصهر الحديد – مروى (البجراوية)

الحيوان في الحياة السودانية: بانوراما تاريخية[1]

عرف السودان القديم (كوش) الحيوانات (البرية والبرمائية) منذ عهود سحيقة بقيمتها الإقتصادية والروحية ولعل أقدم دليل لإستئناس الحيوان البري في السودان جاءنا من موقع الشهيناب (50كم شمال مدينة أم درمان) والذي يؤرخ لفترة العصر الحجري الحديث (4000-3000ق.م) واوضح علماء الآثار وجود عظام ماعز وأبقار أليفة تشابه بعض الأنواع التي تربى الآن في جنوب السودان ويعتقد بعض الباحثين أنها ربما وصلت البلاد من جنوب غرب آسيا عن طريق مصر. وظهرت الأبقار ذات القرون الطويلة في منطقة النوبة جنوب مصر في عهد المجموعة الحضارية (أ)(3700-3100ق.م) . وتشير أنواع الحيوانات التي تم التعرف عليها في مواقع أثرية ترجع للعصر الحجري الحديث إلى أن أحوال البيئة في الأقليم الشمالي للسودان كانت تشبة إلى حد كبير الأحوال الموجودة حالياً في جنوب السودان والتي تشتمل على حشائش سافنا وأجزاء شبه إستوائية .وربما تكونت في موسم الأمطار بعض المستنقعات الي تستمر لفترة زمنية طويلة نسبياً. وكانت الثروة الحيوانية أحد الجواذب التي جعلت الفراعنة المصريين يوجهون أنظارهم صوب جنوب وادي النيل.

وفي عهد مملكة كوش الأولى (كرمة) وهي أول مملكة سودانية في التاريخ(2500-1500ق.م) نلحظ بوضوح أهمية الحيوان في مختلف المناشط الحياتية .وتشير نتائج الحفريات الآثارية بدءاً من الحفرية الرائدة لعالم الآثار الأمريكي جورج رايزنر(1923) والسويسري شارلس بونيه (1997م) إلى أهمية الحيوان في إقتصاديات كرمة وفي طقوسها الجنائزية. وأشارت الدراسات إلى أن 90% من عظام الحيوانات في مملكة كرمة ترجع إلى أنواع أليفة وإن 66%منها كانت للضأن والماعز وأن 34% كانت للماشية ونسبة ضئيلة للعظام ترجع للحمير والكلاب. كذلك وجدت عظام القردة الأفريقية الشهيرة وعظام طيور فضلاً عن الأوز النيلي والتمساح والأسماك وكانت صنوف عديدة من هذه الحيوانات كالأبقار والأغنام تمد السكان بالبروتين اللازم سواء كانوا زُرآعاً أو رعاة.

وفي عصر مملكة كوش الثانية (مروي) (900ق.م- 350م) تواصل الدور المهم للحيوان في الحياة الإقتصادية سواء بالنسبة للرعاة أو المزارعين. وتشير الدلائل الأثرية إلى أن

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد الاسبوعي (573) بتاريخ 2006/6/22م .

غالبية سكان مملكة مروي كانوا رعاة يجوبون سهول البطانة والجزيرة .وتشير المخلفات العظمية أن الحيوانات التي كانت سائدة لدى البدو المرويين وبعض سكان ضفاف النيل هي الأبقار والضأن والماعز. أما الجمال فمعلوماتنا عنها ضئيلة .وأقدم دليل لإمتلاك الكوشيين (المرويين) للجمال جاءنا من موقع قصر إبريم (النوبة المصرية) حيث أشار تحليل كربون 14 المشع إلى ظهور الجمل في بدايات الألف الأول الميلادي .وتم العثور على آثار لعظام جمال وتماثيل وأسرج في بعض المدافن الملكية المروية (البجراوية). أما الحمار فقد كان معروفاً للسودانيين منذ عهود بعيدة وكان لدى المصرين الذين نقلوا عليها تجارتهم بين صعيد مصر وشمال مملكة مروي. أما الحصان السوداني فقد إشتهر بالقوة والسرعة وإكتسب شهرة عالمية. ولقد ورد في النقوش الآشورية لبلاد الرافدين (العراق القديم) مايفيد بأنهم كانوا يستوردون الخيول السودانية. وحفلت العديد من كتابات المرويين بذكر الخيول كما صوروها في نقوشهم. ويعتقد بعض المؤرخين أن أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الملك السوداني بعانخي لغزو مصر وفتحه لها حبه الجارف للخيول لما أظهره من غضب شديد للحالة السيئة التي وجدت عليها الخيول في المدن المصرية التي فتحها كما وأنه كان فارساً معتدا بنفسه حيث أعد مقبرة للخيل بجوار مقبرته في الكرو عند جبل البركل. ومهما يكن من أمر ، فلا يزال أهل السودان – بسبب خلفيتهم الحضارية القديمة –من أكثر شعوب أفريقيا والشرق الأدنى حباً وتربية لها والإستفادة منها . وتعود بي الذاكرة لعدة سنوات خلت حيث كنت أعمل محاضراً بجامعة الملك سعود بالرياض وأتابع عن كثب سباقات الخيل في المملكة العربية السعودية. ولقد لفت إنتباهي أن أكثر رواد سباقات الخيل هناك هم أبناء الجالية السودانية مقارنة بنظرائهم من الجاليات الأخرى. وربما يشير ذلك إلى صدى الإرث التاريخي في الإهتمام بالخيول لدى أهل السودان .

ولعبت الحيوانات البرية دوراً فاعلاً في الإقتصاد السوداني منذ أزمان بعيد وتؤكد الأدلة الأثرية أن السودان القديم (كوش) كان يصدر للإمبراطورية الرومانية الأسود والنمور والأفيال. وكانت الأسود تستخدم في حلبات المصارعة الرومانية الشهيرة بين الإنسان والحيوانات المتوحشة. وتم العثور على حظائر لإيواء الحيوانات البرية في ميناء عقيق جنوب مدينة طوكر (ولاية البحر الأحمر) قبل تصديرها إلى روما وغيرها من الثغور الرومانية .

وإذا ما تناولنا النواحي الروحية – الدينية للحيوانات البرية في السودان نجد أنها إحتلت دوراً بارزاً فإستخدمت القرون ورؤوس الحيوانات كقرابين مقدمة للمعبودات في حضارات المجموعات النوبية (أ) و(ج) وعهد مملكة كرمة. ولا ريب أن وجود أعداد كبيرة من رسوم الحيوانات البرية تماثيلها في الحفريات تؤكد أهمية الحيوان في تاريخ السودان القديم . ويشير بعض الدارسين (أنظر: عبد الرحيم سيد أحمد وآخرون 1993م) : التطورات الحديثة في تجارة وتربية الحيوان البري في السودان) إلى الأهمية الروحية للحيوانات البرية في مملكة مروي حيث تم إكتشاف معابد للإسود والأفيال والكباش خاصة في شمال وأواسط شرق السودان . وقد أظهرت الحفريات الآثارية وجود تماثيل أسود ترجع للعهد المروي (900ق.م – 350م) وذلك في كل من أم سوده والنقعة والمصورات الصفراءشرق مدينة شندي ويمكن أن نلاحظ بعضاً من تماثيل الأسود التي أحضرت من أم سوده عند المدخل الداخلي لمتحف السودان القومي .

وليس أدل على أهمية الحيوان في حياة السودانيين منذ القدم أن أسلافهم كانوا يرمزون به إلى معبوداتهم الدينية فقد صور المعبود أمون – وهو الإله الرسمي للدولة الكوشية – المروية – أحياناً على هيئه إنسان له رأس الكبش الذي يعتبر رمزه المقدس. أما المعبود الرئيسي للسودانيين في العهد الكوشي – المروي فهو الإله الأسد (أباداماك) وكان يصور أحياناً على هيئة إنسان له رأس أسد واقيمت له المعابد في مروي والنقعة والمصورات كما صور ايضاً على هيئة ثعبان له رأس أسد ويدان آدميتان وعلى رأسه تاج مركب كتيجان الملوك .

ومما يدل أيضاً على أن الحيوانات الوحشية كانت ذات أهمية كبيرة لسكان مملكة مروي وجود رسومات للأفيال والزراف والنعام في الأواني الفخارية إضافة إلى وجود رسومات منحوتة على الصخرة بموقع المصورات الصفراء (شرق شندي) دلت على وجود الأسود والقرود والزراف والأفيال والحلوف والنعام. كما عثر على تمثال لفيل كامل الحجم داخل مايعرف ب(الحوش الكبير).

ووجدت كذلك رسومات جدارية منحوتة بمعبد الأسد النقعة كما قدم بعض المؤرخين وصفاً لرسومات الأفيال والزراف وأبوحراب والنعام والقرود والأسود والعديد من الحيوانات الأخرى على الصخور في وادي الحمار وجبل قيلي وجبل تقر وغيرها من المواقع المروية .

ويذكر بعض المؤرخين أن الكثير من الصيد كان يستجلب من السودان بواسطة الأروبيين أمثال البقا وأبو حراب والماعز الجبلي وألمها والغزال العادة والتيتل والجاموس البري والفيل ووحيد القرن والأسود والنمور وأبو نباح والبشمات وذلك من خلال رحلات الصيد في الصحراء الغربية (كردفان ودار فور) وأقاليم النيل الأزرق والأبيض ومنطقة الدندر (المرجع السابق). ولعل من الدوافع الرئيسية – كما هو معلوم – للغزو المصري للسودان في العهد الفرعوني والعربي والتركي هو السيطرة على الموارد الطبيعية والتي من أهمها الحيوانات البرية وجلودها وأجزائها المتمثلة في العاج وريش النعام وقرن الخرتيت لاسيما في العهد التركي.

واستمرت الأهمية الإقتصادية للحيوانات البرية وأجزائها حيث كانت مكونا رئيسياً لصادرات السودان في عهد المهدية وسلطنة دارفور خاصة في عهد الخليفة عبد الله التعايشي والسلطان على دينار حيث برزت أهميتها في إهداء العاج وريش النعام وكسوة الكعبة الشريفة في موسم الحج.

أما في فترة السبعينيات و الثمانينيات من القرن الماضي فقد نشطت التجارة المشروعة وغير المشروعة في سن الفيل حيث يعتبر السودان المصدر الأول لسن الفيل في العالم في الفترة ما بين (1983–76م) وفي الوقت الحاضر قد تستعمل الحيوانات البرية كهداية سيادية للدول لتقوية الاواصر بين السودان والعديد من الدول خاصة الدول العربية.

قائمة المراجع:

أولا: المراجع العربية:1–أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه 1997.كرمة مملكة النوبة:تراث أفريقي من عهد الفراعنة(إشراف صلاح الدين محمد أحمد)،شركة دار الخرطوم للطباعة و النشر والتوزيع،الخرطوم.

2–عبدالرحيم سيد أحمد وآخرون 1998."التطورات الحديثة في تجارة وتربية الحيوان في السودان". مجلة السودان للعلوم البيطرية ص50–79.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1-Arkell,A.J.1953.Shaheinab.London.

2-ReisnerG.A.1923-1924.Excavations at Kerma.Parts 1-111 and 1V.HAS5-6.Boston
3-Shinnie,P.1971.Meroe.A Civilization of the Sudan .London.

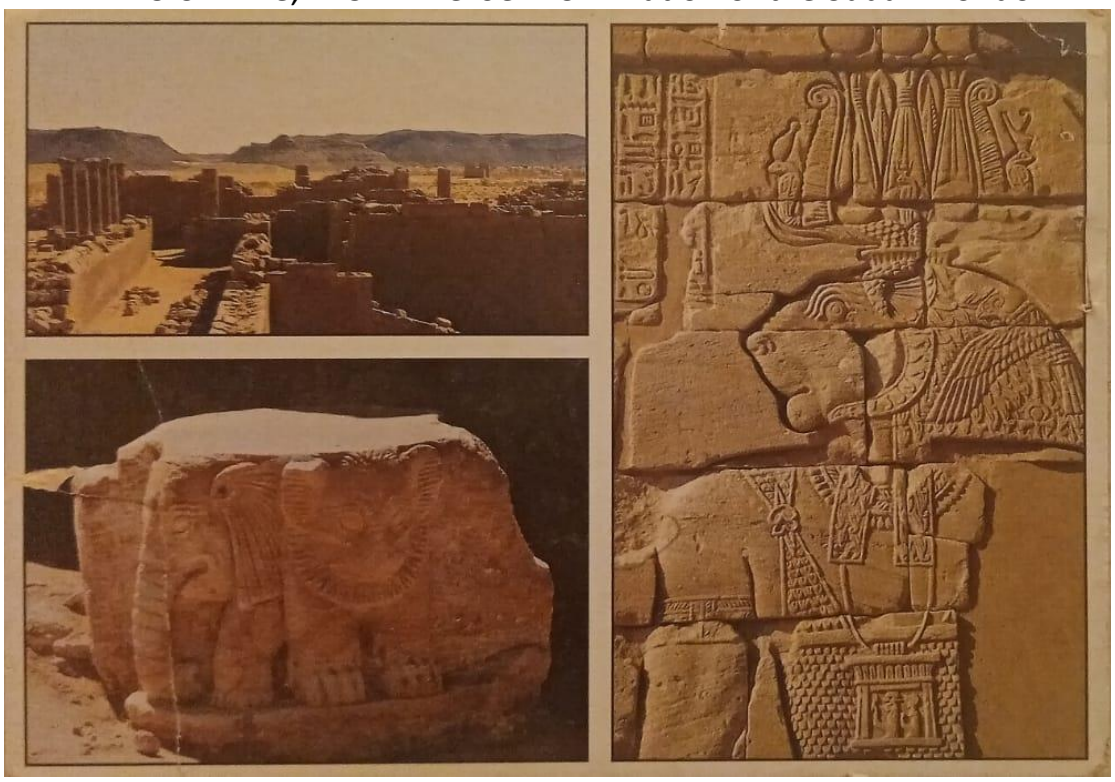

صورة لموقع المصورات الصفراء المروي : أشكال حيوانات متنوعة .

الباحثون السودانيون والعمل الآثاري في المملكة العربية السعودية[1]

يعجبني تعريف أحد العلماء بأن " الآثار في جوهرها هي قصة الإنسان كما تظهرها الأشياء التي تخلفت عنه وهي بالدرجة الأولى البحث عن المعرفة وليس مجرد البحث عن الأشياء". وجدير بالذكر أن السودان كان من أوائل الدول العربية والأفريقية التي إهتمت بالمسح والتنقيب عن الآثار حتى قبل بزوغ فجر الإستقلال في غرة يناير 1956م. وكانت البداية للعمل الآثاري في السودان المسوحات الآثارية ببلاد النوبة (شمال السودان وجنوب مصر) وهي ثلاثة مسوحات: الأول (1907 – 1911م) والثاني (1929 – 1934م) والثالث (1959 – 1960م). وشهدت فترة الخمسينات والستينيات المنصرمة تأهيل الكادر الرائد من الآثاريين السودانيين (عبد الرحمن آدم: 1924 – 1954م، ثابت حسن ثابت: 1921 – 1996م، نجم الدين محمد شريف: 1938 – 1994م، أحمد محمد علي الحاكم 1938 – 1996م، أسامة عبد الرحمن النور (1940 – 2007م). وركز هؤلاء الرواد أعمالهم في المسوحات والتنقيبات الآثارية بداخل السودان.

أما الجيل الثاني من الباحثين السودانيين في مجال التنقيبات الآثارية فقد تخرج في جامعة الخرطوم وتتلمذ على الرواد الأوائل من علماء الآثار السودانيين وأساتذة أروبيين معظمهم من بريطانيا والنرويج. وعند إنشاء قسم الآثار بجامعة الخرطوم (1965م) ترأسه في البدء البروفيسور بيتر شيني (بريطاني) الرئيس المؤسس للقسم ومعه البروفيسور مصطفى الأمير(مصري)، وخلفه البروفيسور عبد القادر محمود عبد الله (1970 – 1971م) فالبروفيسور أحمد محمد علي الحاكم (1971 – 1981م)(رحمه الله). وقد قاما بدور كبير في تأسيس هذا القسم بالجامعة. وعاونهما أساتذة غربيون (جون قاولت،راندي هالاند،بيرس

[1] موقع "الراكوبة" الاسفيري بتاريخ 2014/11/3م .

كروكر،إلزا كِلِب، رتشارد بيرس وبول كالو) وسودانيون (العباس سيد أحمد محمد على، علي عثمان محمد صالح، يوسف مختار الأمين، خضر عبد الكريم وإبراهيم موسى).

وتلقت الدفعات الأولى من الآثاريين السودانيين الذين تخرجوا في جامعة الخرطوم دراساتهم العلمية في مجال التخصص باللغة الإنجليزية كما تتلمذوا على أيدى أساتذة جلهم من الغربيين (بريطانيا، النرويج،فرنسا ،سويسرا والمانيا) يمثلون مدارس أروبية متنوعة في مجال الآركيولوجيا والحفريات. ولا تسعفني الذاكرة بأسماء كل هؤلاء الخريجين. بيد أن أبرزهم في الدفعة الأولي (1971 – 1976م) (زهير حسن بابكر، فيصل الشيخ بابكر(رحمه الله)،أحمد ابوالقاسم الحسن، عبد الحليم بابو فاتح، فتح العليم عبد الله، عباس الشيخ، الزاكي عبد الحميد،صلاح محجوب ومحمد فريد) والدفعة الثانية (1972 – 1977م) (يوسف حسن مدني، علي التجاني الماحي، عبد الرحيم محمد خبير، حسن حسين إدريس ،فيصل الشيخ،عبدالرازق حسن وصديق قسم السيد) والدفعة الثالثة (1973–1978م)(السيد الأنور عبد الماجد، محي الدين عبد الله المليك (رحمه الله)، هاشم السنجك والفاتح الحسين) والدفعة الرابعة (1974–1979م)(صلاح الدين محمد أحمد،الطيب خليفة،عبدالمجيد عثمان وشادية صلاح عبدالرحمن علي طه).

ولعل من اللافت في التأهيل الأكاديمي للدفعات الأولى من خريجي جامعة الخرطوم أنها سارت على نهج الأسلاف من الرواد السودانيين إذ تلقي أغلبها دراساته العليا في الغرب (جامعات كمبردج، ليستر ردينق، ساوثهامبتون (بريطانيا)، برجن (النرويج) وكالقاري (كندا) والسوربون (فرنسا) وجنيف(سويسرا) وبرلين(المانيا) .غير أن ثلة من هؤلاء الآثاريين إختارت العمل خارج السودان سواء في المحيط الأوربي (النرويج والمانيا)، أو العربي (شبه الجزيرة العربية).

التجربة السودانية في الآثار السعودية:

تغرب عن الوطن مجموعة من علماء وباحثى الآثار منذ مطلع السبعينات الماضية كان أبرزهم البروفيسور عبد القادر محمود عبد الله (أستاذ الدراسات السودانية والمصرية السابق بجامعة الخرطوم) والذي إلتحق بجامعة الملك سعود(الرياض) مشاركاً في تأسيس قسم الآثار بهذه الجامعة العريقة والذي وضع لبناته عالم الآثار السعودي المعروف البروفيسور عبد الرحمن الطيب الأنصاري عام 1978م. وإلتحق بهذا القسم الرائد في دراسات آثار الجزيرة العربية وفي فترات متقاربة مجموعة من الآثاريين السودانيين (د. أحمد أبو القاسم الحسن: 1980 –2009م، أ. د. يوسف مختار الأمين: 1983 –2014م، د. عبد الرحيم محمد خبير: 1983 – 2000م، أ. د. العباس سيد أحمد زروق: 1985 – 2005م، عبد الرحيم حاج الأمين (رحمه الله) من الهيئة القومية للاثار السودانية: 1985 – 2009م ود. الصادق ساتي حمد الأمين السابق لمتحف السودان القومي: 1985 –2000م). ومحمود محمد محمود وحمزة النميري(معهد الكليات التكنولوجيا سابقاً–جامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا حالياً). وهناك الدكتور محمد أحمد بدين (عمل بمصلحة الآثار بالخرطوم ثم بوكالة الآثار السعودية في الثمانينات الماضية).ومن الجيل الجديد للآثاريين السودانيين الذي أتيحت لهم فرصة العمل بآثار المملكة العربية السعودية خلال السنوات القليلة الماضية ولايزالوا يواصلون عملهم هناك (كلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود في الرياض) كل من الأستاذ الدكتور كباشي قسيمة (جامعة دنقلا) والأستاذ الدكتور أزهري مصطفى صادق (جامعة الخرطوم)،الأستاذ الدكتور جمال جعفر الحسن،الدكتور فائز حسن عثمان(جامعة جازان) فالدكتور أحمد حامد نصر(جامعة حائل).

كانت تجربة العمل الآثاري للباحثين السودانيين في المملكة العربية السعودية جديدة من عدة أوجه، أولاً أن التأهيل العلمي لتخصص الآثار في السودان يركز على مقررات عن آثار وادي النيل وأفريقيا وبخاصة جنوب الصحراء، مضافاً إليها بعض المقررات المقتضبة عن آثار الشرق الأدني القديم بصورة لا تمكن الباحث (الطالب) من الإلمام الشامل بآثار جزيرة العرب، بلاد الرافدين وبلاد الشام حتى يتمكن من العمل في المسوحات والحفريات والتصنيف للموجودات الحضارية لتلك المنطقة بشكل علمي دقيق.لذا فقد بذل الباحثون السودانيون جهداً غير قليل في الإطلاع على آثار جزيرة العرب بوجه عام وعلى آثار المملكة بوجه خاص بصورة مكنتهم من متابعة طبيعة البحث العلمي في هذه المنطقة من الشرق الأدنى ذات الموروث الحضاري العريق. وثانياً، فإن نظام المسوحات والحفريات في المملكة العربية السعودية يختلف عن نظيره بالسودان. ففي الأول (السعودي) نلحظ أن باحثي الآثار هناك يطبقون النظام الأمريكي وهو ما يعرف بـ " نظام الظواهر Loci System " حيث يقسم الموقع إلي عدة ظواهر، تدرس كل منها في البدء كوحدة مستقلة، ومن ثم تجمع الظواهر مع بعضها لتشكل طبقة إستيطانية أو مرحلة معمارية (حضارية). أما في السودان فيعتمد الآثاريون في تنقيب عن المستوطنات على النظام الأروبي (البريطاني) وهو نظام الوحدات البنائية (Building units) . وهذه التجربة الثرّة لبعض باحثى الآثار السودانيين أضافت لهم معرفة جديدة لم تتوفر لنظرائهم داخل الوطن ليس فقط في أساليب المسح والتنقيب الاثاري وإنما أيضاً في إستخدام التقانات الحديثة والمواكبة للتحديث والتطوير المتسارع في حقل الآثار بسبب الإمكانات المادية المهولة للجامعات – وبخاصة جامعة الملك سعود التي عملوا فيها فيها لعدة عقود. وهي– كما هو معلوم– أفضل الجامعات العربية بمعايير التصنيف العالمي والمستوي الأكاديمي الرفيع إذ لا تزال تحتل المرتبة الأولي على المستوي العربي والإقليمي والمرتبة الـ " 200" على مستوي العالم.

يلزم التنويه إلي أن تجربة العمل الآثاري للباحثين الأوائل القادمين من السودان للمملكة العربية السعودية تركزت بموقعين مهمين هما: "قرية الفا"و (جنوب المملكة على 700 كم جنوب غرب العاصمة الرياض) وهو موقع يرجع تاريخياً لحقبة ما قبل الإسلام بين القرن الرابع قبل الميلاد والرابع بعد الميلاد. والموقع الثاني هو "الربذة" ويمثل مستوطنه إسلامية تقع إلي الجنوب الشرقي من المدينة المنورة بحوالي 200 كم وإشتهرت كمدينة إسلامية مهمة على طريق الحج القادم من العراق القديم والممتد بين الكوفة ومكة المكرمة والمسمى " درب زبيدة ".

إشترك عدد من الباحثين السودانيين في تنقيبات موقع " الفاو " والذي يحتوي على مراحل إستيطانية ترجع إلي عهود مملكتي " معين" و"كندة" وإلي المملكة الأخيرة ينسب أمير شعراء العربية أمرؤ القيس بن حجر الكندي.وأسفرت حفريات هذا الموقع عن أطلال معمارية، وكتابات عربية قديمة (المسند الجنوبي)، فضلاً عن رسوم فنية، وتماثيل ومصنوعات معدنية ومسكوكات وحلى وزجاج وأواني وأدوات حجرية وفخارية. وأماطت اللثام عن مجتمع متحضر رغم بعد منطقة "الفاو" عن منابع الحضارات وروافدها، إلا أن التجارة والثقل السياسي الذي مثلته مملكتا معين وكندة استطاعتا أن تجذبا إلي "موقع الفاو" أجمل مميزات تلك الحضارات، وأن تتفاعل معها وتنتج حضارة خاصة بها متميزة بشكل واضح عَما جاورها.

وعمل الباحثون السودانيون في مختلف مراحل العمل الآثاري من مسوحات، تنقيبات، تصنيف للمعثورات ودراستها وترميم للموجودات الحضارية. ونذكر هنا الدور المتميز الذي قام المرمم السوداني الراحل الأستاذ عبد الرحيم حاج الأمين (مرمم سابق بالهيئة القومية للاثار والمتاحف السودانية، 1960 – 1985م) في صيانة آثار موقع "الفاو" السعودي وإبتكاره لأساليب

جديدة وعملية في الترميم مستفيداً من خبرته في ترميم آثار النوبة بوادي حلفا قبل غرقها ومن معارفه التي إكتسبها في العمل مع البعثات الأوربية (البولندية والإيطالية).

لامراء أن تجربة العمل الآثاري لفئة من الباحثين السودانيين بالمملكة العربية السعودية كانت فريدة في نوعها، فبالإضافة إلي أنها عملت على توسيع مداركهم المعرفية والثقافية في مجالهم المهني، فقد أضافت لهم وشائج زمالة وصداقة أصبحت وبرغم تقادم الزمن وثيقة العُرّي بأشِقائهم من الباحثين وعلماء الآثار العرب (مصر، سوريا ،لبنان، الأردن، فلسطين والعراق) الذين عملوا معهم بجامعة الملك سعود في الرياض.وإستفاد بعض طلاب تخصص الآثار في السودان من هذه الصلات الأكاديمية متمثلة في الزيارات العلمية لبعض هذه البلدان(مثال لذلك زيارات طلاب الآثار بجامعة بحري(جوبا سابقاً) لجمهورية مصر العربية أعوام 2008-2009م) وتأسيس إتحاد الآثاريين العرب الذي نبعت فكرته من مجموعة الآثاريين العرب الذين كانوا يعملون بقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود في التسعينات الماضية .وعلاوة على ذلك ، فقد نقل السودانيون الكثير من سمات وخلال أهلنا الطيبين في سوداننا العزيز إلي الجاليات العربية والأجنبية والتي ما فتئت تشيد بتلك الأخلاق السودانية الإنسانية النبيلة والتي يندر أن تجد لها نظيراً في الشعوب الأخرى.

وحري بكاتب هذه الأسطر أن يثبت هنا الدور الكبير الذي قام به العّلاَمة السعودي الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري – رائد الآثاريين الخليجيين وعالم الآثار العربي المرموق – بتخيره لمجموعة متميزة من الآثاريين العرب بغية إنجاز العمل الآثاري بموقع "قرية الفاو" بجنوب المملكة العربية السعودية، يعد الأول من نوعه على نطاق الوطن العربي. ولقد أكد هذا العالم الجليل عندما سئل ذات مرة عن سبب إعتماده في تنقيبات "قرية الفاو" بشكل أساسي

على الآثاريين العرب سعوديين وغيرهم من الجنسيات العربية دون سواهم وكانت إجابته: أنه يسعى دوماً إلي هدف تحقيق الوحدة العربية أيًا كانت حتى ولو تجسدت عبر عمل علمي عربي مشترك كنموذج تنقيبات "قرية الفاو". وفي تصوري أن الرجل قد نجح فيما كان يصبو إليه. فقد **أسس "مدرسة عربية في تخصص علم الآثار"** إنداح أثرها الإيجابي على كافة بلدان الجنسيات العربية التي شاركت فيها. ومن المأمول أن تأتي أُكُلها خيراً علمياً وفيراً بظهور عشرة مجلدات عن "آثار قرية الفاو": صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية خلال الأشهر القليلة القادمة. والله المستعان وهو الهادي إلي سواء السبيل.

موقع "قرية الفاو" جنوب المملكة العربية السعودية

موقع الربذة الاسلامي جنوب شرق المدينة المنورة

البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة (مراجعة نقدية لكتاب الأستاذ الدكتور على فهمي خشيم)[1] .

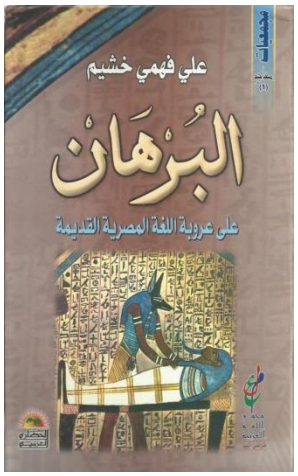

المـــؤلف: **أ. د. علي فهمي خشيم**

الناشـــر: **مركز الحضارة العربية – القاهرة (الطبعة الأولى)**

سنة النشـر: **1428هـ/ 2007م**

مقاس الكـتاب: **17 × 34سم**

عدد الصفحات: **912 صفحة**

رقـم الإيداع: **2007/2519م**

عـــــــرض: أ.د. عبد الرحيم محمد خبير

يشـتمل الكتـاب علـى مقدمـة (ص1 –51) ومعجـم مفصـل للغـة المصـرية القديمـة (ص55–912). تطـرق الباحـث فـي المقدمـة للحـديث بوجـه عـام عـن اللغـات واللهجـات فـي المنطقـة العربيـة. وأبـان أن ثمـة علاقـة بـين اللغتـين المصـرية القديمـة والعربيـة العدنانيـة أو الُمضـرية، لغـة جزيـرة العـرب التـي نـزل بهـا القـرآن الكـريم وإنتشـرت بفضـله إلـى أقاصـي الـدنيا. وتشـير الأدلـة التاريخيـة إلـى الصـلات بـين هـاتين اللغتـين معـاً، أو كـل علـى حـده، ولغـات الـوطن العربـي القديمـة فـي مختلـف أقطـاره بحكـم النشـأة الأولـى مـن جهـة وبحكـم الصلات المستمرة عبر أطوال التاريخ.

أثـار هـذا المؤلـف ضـجة فـي الأوسـاط العلميـة الأوربيـة والعربيـة وقوبـل بالدهشـة مـن قبـل العديـد مـن العلمـاء. وقـام "علـي خشـيم" بدراسـة مقارنـة للغـة المصـرية القديمـة (الهيروغليفيـة) بالمكافئـات العربيـة للمفـردات المصـرية الفرعونيـة. وكـان قـد أبـان فـي كتابـه المعنّـون: (آلهـة مصـر العربيـة، الجـزء الثالـث، المجلـد الثـاني 1990: صـفحات 583–644) التوافـق الـذي يوشـك أن يكـون تامـاً بـين المصـرية القديمـة والعربيـة فـي قضـايا مـن مثـل الإسـم، العـدد، علامـة الجمـع، العطـف، التثنيـة ، الإضـافة ، المنـادى ، الضـمائر ،

[1] مجلة "أدوماتو" ، المملكة العربية السعودية ، العدد 26 ، يونيو 2013م : 92 – 93 .

أسماء الإشارة، أداة التعريف، الأسماء الموصولة، الصفة، الأفعال، حروف الجر، أدوات الإستفهام،...الخ.

وناقش في كتابه: ((الُبرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة)) (المصرية القديمة والعربية المعاصرة) بالتفصيل إشتراك اللغتين في مسائل: تركيب الجملة، الإشتقاق، أدوات الإستثناء، إنّ "التوكيد" ، نون الوقاية، البدل، القلب والإبدال، الأضداد، القطع والإسقاط ، المزيد والمضعّف والمضاعف، الفعل المعتل الآخر، المفاضلة، المبالغة، النسبة، الإسم الموصوف، المصدر، "سوف" المستقبل، أدوات الإستفهام ، المركبة، التعدية.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة المصرية القديمة قد شاركت نظيرتها العربية في عدد كبير من التعريفات ، فإن لم يكن ، لأن العربية تطورت بصورة فاقت غيرها، فإن المقارنة ببعض العربيات تكشف عن التماثل فيما بينها. وشاركت المصرية العربية في إتخاذ التاء للتأنيث، واستعمال الواو للجمع، وتظهر في الفعل الماضي في العربية: سمعو (ا) وفي المضارع: يسمعو (ن)، وفي الأمر: أسمعو (ا). وفي الإسم: سامعو (ن). الألف مزيدة رسماً والنون أيضاً مزيدة بدليل حذفها عند الإضافة: سامعو الخبر.

واتفقت المصرية والسبئية (لغة اليمن القديمة) في إتخاذ الياء للمثنى (المصرية: تا (أرض) تاوى (أرضان) وفي السبئية : ثنتي صفحتي: صفحتان. ثنى محفدي: محفدان) . وهي كالعربية عرفت ياء النسبة (رس: جنوب. رسيت: جنوبية – بياء النسبة وتاء التأنيث).وتميزت المصرية بالنسبة إلى المؤنث بالياء(ضحوت:القمر(=ضحوة).ضحوتي:قمري.وهذا نادر في اللغة العربية عدا بعض الكلمات،كالنسبة إلى أهل الملامة وهم جماعة صوفية:ملامتي،ملامتية.

ووافقت المصرية السبئية والأمازيغية (البربرية – في شمال أفريقيا) في تعدية الفعل بالسين: س. خرخر: أوقع (أخرّ). س. هاي. أهبط (أهْوى). س.حم: سخن (أخمَى) س. نشت: قوىّ (نشط). كما عرفت ميم المكان(مأغرت=مغرت:كهف.مغارة.مكتار(مكتر:حصن،برج=مجدل).وكذلك ميم

الآلـــة:مأركبتإ=مركبت: عربـــة، مركبـــة...الخ. ولـــو أن هـــذا قليـــل ، غيـــر أنهـــا تشـــارك الكنعانيـــة التـــي تنـــدر فيهـــا مـــيم المكـــان،وهي مرحلـــة متطـــورة لـــم تبلغهـــا اللغتـــان إلا نـــذراً بعكس الحال في العربية العدنانية.

وهنـاك بعـض الظـواهر البـارزة المشـتركة بـين المصـرية والعربيـة فـي حاجـة إلـى شـيئ مـن التفصـيل توضـح للقـارئ مـا قـد يـراه غريبـاً عنـد المقارنـة مـا بـين اللغتـين وتزيـل اللـبس لديـه عنـد مكافـأة كلمـة مصـرية بـأخرى عربيـة وأهمهـا – إضـافة إلـى مـا تـم إيـراده أعـلاه: القلـب والإبـدال. فالقلـب أو القلـب المكـاني فـي المعـاني هـو أن يقـدم حـرف الجـذر الثلاثـي ليحـل محـل آخـر فـي نفس الجـذر، يـؤخر ويظـل المعنـى مـع هـذا واحـداً ، مـن مثـل : (جـذب/ جبـذ، عطـس، سـعط/ لـوع، ولـع، فـرغ / فغـر). وهـو مـا لا يـزال فـي اللهجـة، مثـل الليبيـة يطفـى/ يفطـى (= يُطفـئ) ، يشـعل/ يشـلع، (قعمـز/ قمعـز). وفـي اللهجـة المصـرية الدارجـة : (أرانـب/ أنـارب). وسـواء كـان هـذا القلـب نتيجـة خاصـية فـي اللغـة العربيـة عنـد إبـن جنـي مـا أسـماه (الإشـتقاق الكبيـر) أو نتيجـة إخـتلاف اللهجـات فهـو ظـاهرة معروفـة علـى كـل حال.وهـذا مانجـده فـي اللغـة المصـرية القديمـة كذلك:فكلمـة "م رح" مـثلاً تتـرجم إلى الإنكليزية (Lance) وهي العربية "رمح".

أمـا الإبـدال فهـو مـن أكثـر الظـواهر شـيوعاً فـي العربيـة، ومعنـاه أن يبـدل صـوت بـآخر يكـون فـي الغالـب الأعـم قريبـاً مـن الصـوت المبـدل، ولا يمتنـع أن يكـون بعيـداً عنـه. وهـذا مـا يعـرف بـ "التعاقـب" كـذلك، حيـث لا نـدري فـي معظـم الأحيـان أي الصـوتين أصـلي وأيهمـا مُبْـدل. فنقـول إنهمـا تعاقبـا ، أي حـلَّ أحـدهما محـل الآخـر أو أعقـب أحـدهما الآخـر. ويلحـظ أن العلاقـات التـي تبـرر الإبـدال اللغـوي فـي أربـع: التماثـل ، التجانـب، التقـارب والتباعـد. والإبـدال مشـهور فـي تـاريخ العربيـة الفصـحى وفـي اللهجـات العربيـة الحديثـة. ومـن الأمثلـة المعروفـة فـي كتـب قواعـد اللغـة المصـرية القديمـة الكلمـة الشـهيرة "س د م " "s d m" وهـي تعنـي "سـمع". وقـد أُبـدلت العـين بالصـوت " د d" فهـي " س ع م" وهـذه مقلـوب " س م ع " كمـا نـرى ، ولكـي نؤكـد أنهـا مقلوبـة ومبدلـة نوضـح أنهـا قُلبـت فـي لهجـة عـرب الشـمال الأفريقـي (= الجبابليـة) وأبـدلت عينهـا غينـاً فكانـت " م ز غ" = سمع بالعربية الفصحى(أنظر :الجندي 1978م).

ومما سلف ذكره، يتضح أن ثمة تشابه لا تخطئه العين بين اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ونظيرتها العربية (الفصحى والعامية). بيد أن علماء الغرب الأروبي ولأهداف سياسية استعمارية كانت تتوشح العلم – كما ذكر الباحث على خشيم – وجهوا اللغة الهيروغليفية ورموزها وجهة تتفق مع نمط كتابتهم وأصوات لغاتهم، فكانوا أن قلبوا أشكال هذه الرموز (مئات الرموز إضافة إلى أربعة وعشرين حرفاً هجائياً) وعكسوها صورة ومسار كتابة. فالرموز الهيروغليفية تكتب عادة من اليمين إلى اليسار وأحياناً من أعلى إلى أسفل ، فلكي تسهل قراءتها حولّ المتأخرون من علماء الغرب مسار الكتابة لتصبح من اليسار إلى اليمين وترافق مع ذلك عكس صور الرموز بالطبع، فصرنا نقرأ الهيروغليفية مقلوبة ،أي أننا نقرأ التاريخ مقلوباً هو الآخر!.

ومما زاد الطين بله – كما نوه خشيم– أن نقلت الرموز الهيروغليفية حرفياً إلى الحروف اللاتينية برغم أن المصرية القديمة تحتوى على أصوات لا وجود لها في اللغات الأروبية ، من مثل العين والحاء والخاء والقاف ، مما لا مقابل له في الألف ياء اللاتينية. وتبع ذلك أن كل باحث غربي من المهتمين بالهيروغليفية كان يستنبط رمزاً من اللاتينية يضيف تحته نقطة أو خطأ يومئ به إلى الصوت المعني. ومن هنا جاء الإختلاف في العلامات. وعلاوة على ذلك ، إفترض الغربيون أن المصرية لا تحتوي على أصوات نجدها في العربية من مثل الضاد والطاء ، فوضعوا بدلاً منها الدال أو التاء، ودرجت القراءة على هذه الصورة حتى رسخت، وهي قد لا تكون كذلك. وزادوا على ما تقدم ، أن إفترضوا تحريكاً للصوامت ، إذ المصرية كبقية العروبيات تعتمد الصوامت وأكثروا من الصائت (e) مساوقة للغات الأروبية دونما دليل على وجود هذا الصوت في المصرية القديمة (cf. Budge1920) .

وتحدث في الفصل الثاني(الأخير) من هذا الكتاب(صفحات 55–909) عن المعجم في اللغة المصرية القديمة مبيناً قواعد هذه اللغة والكلمات الأحادية والثنائية المقطع. ويحتوي المعجم أيضاً على آلاف الحروف اللاتينية المصورة للرموز الهيروغليفية والترجمة إلى الإنكليزية، وإلى يمينها النص المصري بالحروف العربية ثم ترجمة المعنى بالإنكليزية إلى العربية، يلي هذا بين قوسين ( ) المقابل العربي،

المصدر أولاً ببنط مميز ثم ما إشتق منه بعد ذاك، إذا كانت ثمة ضرورة لتوضيح المكافئ بصورة أكثر تفصيلاً. وقد يكتفي أحياناً بذكر الكلمة العربية المكافئة للكلمة المصرية دون تفصيل لوضوحها. ويلحظ أن كل كلمة جديدة الدلالة تبدأ بنجمة يتلوها المشتق منها أو ما له بها صلة دلالية ، ثم تلي كل كلمة أخرى بدلالة أخرى بذات النجمة – وذلك تسهيلاً على القارئ حتى يتمكن من الربط بين اللفظ والدلالة والإشتقاق.

خلاصة القول ، إن كتاب علي فهمي خشيم (البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة) يعتبر إضافة جديدة للمكتبة الآثارية سيما وأنه قد أمدنا بمنهج غير مسبوق لدراسة اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) مما يعطي دفعة جديدة للبحث العلمي الخاص بهذه اللغة. وقد تميط هذه القراءة الجديدة اللثام عن وقائع وأحداث مجهولة في التاريخ المصري الفرعوني. ولا أخال نفسي أعدو الحقيقة إذ قلت أن هذا المنهج الرائد في دراسة اللغة المصرية القديمة قد يكون ملائماً أيضاً لسبر أغوار "اللغة الكوشية – المروية" المنحدرة أساساً من أصول فرعونية مصرية متأخرة – (ديموطيقية وهيراطيقية) ولا تزال لغزاً محيراً لدارسي حضارة السودان القديم.

ولابد أن أثبت هنا أن هذه الإصدارة ستكون مرجعاً مهماً للمشتغلين بآثار وتاريخ الحضارة المصرية الفرعونية ونظائرها في العالم القديم لسنوات عديدة آتية. ويلزم التنويه أن هذا الكتاب قد سطر بلغة عربية قشيبة وبأسلوب أكاديمي جاذب مما يجعله في متناول المتلقي سواء أكان متخصصاً أو قارئاً عادياً. والله المستعان.

المراجع :

الجندي،أحمد علم الدين،1978. اللهجات العربية في التراث.جزءان،الدار العربية للكتاب، طرابلس.

خشيم،علي فهمي،1990. آلهة مصرالعربية،الجزء الثاني،المجلد الثاني(نشر مشترك: الدارالجماهيرية "ليبيا" ودارالآفاق الجديدة "المغرب").

Budge,W.1920.An Egyptian Hieroglyphic Dictionary,London.

خواطر آثاري في بلاد الفايكنقز[1]

بدعوة من مركز دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية قُيِّضَ لي أن أشارك في المؤتمر العالمي السابع للدراسات السودانية الذي عقد في مدينة بيرجن (النرويج) في الفترة ما بين (3 –10 أبريل2006م) الماضي. تحت شعار "السودان خمسون عاما من الاستقلال: نحو السلام والإستقرار والهوية". سعدت بهذه الدعوة لهذه الرحلة العلمية القصيرة لسببين: أولهما: إنها للنرويج وكاتب هذه السطور نهل من معين المدرسة الإسكندنافية في تخصص علم الآثار. فقد تتلمذ في جامعة الخرطوم (1972–1977م) على يد العديد من الأساتذة النرويجيين (البروفيسورات راندي هالاند، الزا كليب وريتشارد بيرس)؛ وثانيهما: إنني لم أغادر السودان منذ خمس سنوات خلت وكنت قبل ذلك في حالة تسفار دائم خارج الوطن بغية تحقيق بعض الآمال الحياتية، بيد أنني ألقيت عصا التسفار مستقرا نهائيا في الوطن ولكن ليس كمثل أعشى قيس راضياً من الغنيمة بالإياب.

ولا ريب أن السفر أيا كان شاق ولا يخلو من جهد وربما مخاطر. والسفر بهدف المتعة والتنزه في الأزمنة القديمة يكاد يكون معدوما ولو أنه كان يحدث لمسافات قصيرة بسبب صعوبة المواصلات من جهة ولكلفته من جهة أخرى، لكل ذلك كان السفر في الزمان الماضي في أغلب الأحوال إما للتجارة أو العلم أو القتال. وهذه النشاطات وما فيها من جهد ومشقة لا تتيح لصاحبها فسحة من الزمن للإستمتاع بجماليات الحياة والتفكر في بديع صنع الله في هذا الكون الفسيح. غير إنني منيت النفس ببعض فوائد السفر التي لخصها الإمام الشافعي بقوله: "سافروا في الأسفار خمس فوائد: تفريج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد". ولعل الترويح عن النفس بتغيير المكان والشخوص بغية اكتساب معرفة وتجربة جديدة كان ما أرنو إليه.

غادرت مطار الخرطوم ومعي اثنان من الزملاء (رئيس قسم الآثار بجامعة الخرطوم– ومدير الهيئة القومية للآثار والمتاحف) في يوم قائظ الحر. وفي ذات الوقت كانت أقصى درجة للحرارة في مدينتي أوسلو وبيرجن (النرويج) تبلغ صفراً مئوية. وبعد ست ساعات من الطيران المتواصل حط بنا الطائر الميمون بمطار أمستردام الذي طالته تغييرات عدة من ناحية التوسعة

[1] صحيفة "الآيام" ، الاعداد (8502) ، (8503) بتواريخ 5/17/ ، 2006/5/18م .

والتنظيم جعلته تحفة فنية وأكثر جاذبية وجمالا عما كان عليه في مطلع التسعينات حينما رأيته لأول مرة وكنت وقتذاك في زيارة علمية لهولندا قضيت خلالها شهرا ونيف بجامعة "فاخنين" حيث أجريت تحليلات معملية (بأشعة اكس والتحليل الحراري) لعينات من السيراميك شكلت جزءا من أطروحتي لرسالة الدكتوراه. استمعت حينها بجمال بلاد "هانس" المنخفضة "نيزرلاندز" والتي كنا قد تعرفنا على جغرافيتها منذ الستينات ونحن آنذاك في المرحلة الأولية. ركبنا إحدى طائرات الخطوط الهولندية الملكية في رحلة قصيرة لم تتجاوز الساعة والربع لنجد أنفسنا في مدينة بيرجن النرويجية. وكان في استقبالنا أحد الزملاء السودانيين (محمود سليمان) الذي يدرس للماجستير في جامعة بيرجن. وتحركت بنا عربة الأجرة "الفان" في طقس يمور بزخات المطر الذي خفف كثيرا من غلواء زمهرير برد ذلك القطر الإسكندنافي الجميل. ومدينة بيرجن التي بلغناها بعد رحلة ممتعة تحدها سبعة جبال وتتخللها العديد من الخلجان والفيوردات الرائعة وتتناثر فيها المنازل والمباني العديدة على إمتداد البصر وحول الخلجان في منظر سياحي بديع وكأنها حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبعة. ودلفت بنا السيارة تجوس مسارب المدينة ذات الأنفاق الجبلية المتعرجة إلى أن وصلنا الفندق العتيق والذي أعد لإستقبال معظم المؤتمرين. ووجدنا فيه كل مستلزمات الإقامة المريحة سيما وأنه يقع على مرمى حجر من مكان إنعقاد المؤتمر.

بيرجن التي استضافت مؤتمر الدراسات السودانية السابع يقطنها ربع مليون نسمة، مدينة جامعية حديثة في الوقت الحالي، غير أنها ذات ماضٍ عريق. فقد أسسها الملك أولاف كاير (1066–1093م). وأصبحت المدينة عاصمة لمملكة النرويج في القرن الثالث عشر الميلادي. وظلت أهم مدن النرويج لمدة تصل إلى ستمائة عام خاصة وأنها ميناء ذات موقع استراتيجي على الساحل الغربي النرويجي، فضلا عن أهميتها التجارية في العصور الوسيطة الأوروبية.

ولابد من التنويه هنا إلى أن النرويج قطر ذو تاريخ قديم ومؤثر في قارة أوروبا. فالعديد من الناس شاهدوا أفلاما تحكي عن تاريخ "الفايكنقز – Vikings" ولا تزال قصة "الفرد ورجال الشمال" عالقة بأذهان بعض أبناء جيلنا الذين أطلعوا على جانب من تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. وشهدت أوروبا في القرنين الثامن والعاشر الميلاديين – وبالتحديد شواطئ الجزر البريطانية وأيسلندا غزوات بحرية للفايكنقز القادمين من ساحل النرويج الغربي. فلقد إجتاح الفايكنقز مساحات شاسعة من أوروبا الغربية وكونوا العديد من المستعمرات ليس فقط لإشباع

حب المغامرة الذي تميزوا به بل لأهداف أسمى تشمل توسيع الرقعة الزراعية لبلادهم الجبلية ولإنشاء مستعمرات ومراكز تجارية من أجل بسط سلطانهم السياسي على أوروبا الغربية وبلاد بحر البلطيق.

ويحتوي متحف الآثار في مدينة بيرجن على معثورات حضارية شتى تميط اللثام عن ملامح من الحياة في النرويج في حقبة "الفايكنقز" تشمل نماذجاً لمنازلهم وملابسهم وكميات من الأواني والأدوات الحياتية صنعت من البرونز والفضة والزجاج، فضلاً عن الأثاثات المنزلية وأدوات الزينة والأسلحة (السيوف والرماح والفؤوس) والعملات الفضية.

بدأ البرنامج العلمي المعد لنا [باحثو الآثار من الجامعات (الخرطوم وجوبا) والهيئة القومية للآثار السودانية] من مركز التنمية النرويجي ومعهد الآثار بجامعة بيرجن قبل ثلاثة أيام من إنعقاد المؤتمر العالمي السابع للدراسات السودانية (5–3 أبريل) حيث طلب منّا إلقاء محاضرات وإقامة سمنارات لطلاب الدراسات العليا (تخصص الإنسانيات) في جامعة بيرجن وجدت قبولاً وتفاعلاً من الطلاب (نرويجيون وجنسيات أخرى) الذين بهرتهم عراقة آثار الحضارة السودانية لمختلف العصور التاريخية كما تم تقديم النصح والإرشاد العلمي لبعضهم. ولعل من اللافت للإنتباه في تجربة النرويج التعليمية – وبالطبع في بقية الأقطار الغربية– أن هنالك تقدماً كبيراً في استخدام تقانة المعلومات ووسائط الإعلام المتعددة (الملتمديا) في مؤسسات التعليم العالي. فالوسائل التعليمية –التي لا تزال مستخدمة في الدول النامية– (السبورة والفيديو والبروجكتر ... الخ) اختفت تماماً منذ منتصف التسعينات الماضية في الغرب. لذلك لا بد من تطوير وسائلنا التعليمية التي عفا عليها الزمن لمواكبة التقدم المذهل في تقانة المعلومات ولإتاحة الفرصة لأكبر عدد من الشرائح المجتمعية في السودان للإستفادة من ثمرات التعليم بشقيه العام والعالي.

وعطفاً على موضوع الزيارة الرئيسي وهو المؤتمر السابع للدراسات السودانية والذي إنعقد في كلية القانون بجامعة بيرجن؛ فقد تم الإعداد له بصورة جيدة. وكانت اللجنة المنظمة للمؤتمر وعلى رأسها البروفيسور اندرز جوركيلو والسيدة مريان–بوي تتابع وبدقة متناهية كل الترتيبات اللازمة من وصول المادة العلمية (الأوراق البحثية) وتصنيفها، فضلا عن تجهيزات الحجوزات في مختلف خطوط الطيران وتأشيرات الدخول وحجوزات الفنادق. وبلغ عدد حضور المؤتمر

188 عالماً وباحثاً من المهتمين بالدراسات السودانية من مختلف القارات (أفريقيا وآسيا وأوروبا والأمـريكتين). وشـملت محـاور الأوراق العلميـة التـاريخ والآثـار والهويـة والإغتـراب واللغـات والدراسات البيئية واستغلال الموارد والسياسات التعليمية والإقتصادية والإجتماعية واتفاقية السلام الشامل في السودان.

ولعل مما يستلفت الإنتباه الحضور الكثيف للعلماء والباحثين السودانيين. ومعظمهم من فئة الشباب في مختلف التخصصات والذين تنادوا من السودان والعديد من المهاجر الأوروبية والأمريكية لتدارس هموم الوطن الذي ينتظره مستقبل واعد سيما وأنه يتفيأ الآن ظلال السلام بعد إتفاقية نيفاشا. ومن المؤمل أن يصار إلى سلام شامل يندا ح لغرب وشرق البلاد في المستقبل المنظور. ولا ريب أن ذلك هو الهدف المرتجى لكل أهل السودان وليس ذلك ببعيد المنال إذا ما جنحت الأطراف السودانية للحوار السلمي من أجل الإستقرار والتنمية في وطن ينعم بالثروات والخيرات ويتسع للجميع.

وأتاحت فترة إنعقاد مؤتمر الدراسات السودانية لكاتب هذه السطور فرصة لتجديد علاقاته بالعديد من العلماء والباحثين كما هيأت له هذه الزيارة فسحة من الزمن للإلتقاء بالعديد من العلماء البارزين في مجال الآثار خاصة والدراسات الإنسانية والعلوم التطبيقية بشكل عام والذين وفدوا لهذا المؤتمر من مختلف بلدان العالم.

ولعل من أبرز الشخصيات التي لفتت نظري في هذا المؤتمر الدكتور محمد على التوم –سفير السودان في النرويج– والحق يقال فقد كان الرجل شخصية آسرة، يستقبل الجميع هاشاً باشاً بصورة لا يملك المرء فكاكاً سوى الإشادة بها كما حضر غالب جلسات المؤتمر مشاركاً ومعقباً، فله صادق الشكر والتقدير على أصالته السودانية.

واتسمت مناقشات محاور المؤتمر بالجدية في التناول والعلمية في الطرح رغم تبيان الحلول المطروحة للعديد من القضايا. وأبرزت الحوارات أهمية الإستئناس بآراء العلماء والباحثين السودانيين خاصة أولئك الذين يعيشون في المهاجر الغربية (أوروبا وأمريكا) سيما وأنهم الأكثر مواكبة لأحدث تقنيات البحث العلمي ومستجدات العصرنة، لذا فإن مشاريعهم البحثية وآرائهم العلمية تنعكس بالضرورة إيجاباً على الواقع السوداني.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض البلدان العربية فطنت مؤخرا لأهمية استشارة العلماء والباحثين العرب الذين يعيشون في المهاجر الغربية فحازت مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع قصب السبق حيث دعت مؤخراً لمؤتمر للعلماء العرب المغتربين بهدف التعاون من أجل توطين العلم في العالم العربي. وفي تقديري أن هذه الخطوة جد صائبة من أجل استعادة دور أمتنا الإسلامية التي كانت رائدة في وضع اللبنات الأولى للحضارة الإنسانية في مختلف المجالات. بيد أنها إنزوت بعيداً الآن عن حركة الحضارة العالمية التي ينفرد بها الغرب في مجال العلم والتقانة والمعلوماتية. والغرب ليس كله شرٌّ مستطير كما يرى البعض. وليس أدل على ذلك من تجارب بعض رواد نهضتنا الثقافية الذين فطنوا ومنذ قرنين من الزمان أو ينيف للجوانب الإيجابية للحضارة الغربية، فالإمام محمد عبده يقول بعد عودته من فرنسا "وجدت هنالك إسلاماً بدون مسلمين" ورفاعة رافع الطهطاوي صاحب كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" يقول: "الفرنجة قوم ذو عزيمة يجيدون الصنائع والعلوم البرانية". واستناداً لما سبق، فلا بد من الإستفادة من إيجابيات الحضارة العصرية حتى ننتشل أمتنا من وهدة الثالوث المرعب "الفقر والجهل والمرض"، والرأي عندي إننا بحاجة في البدء للأخذ بجوهر حضارة الغرب المتمثلة في العقلانية والموضوعية والدقة والنظام والإنضباط والإستفادة الكاملة من جميع الطاقات قبل اللهاث وراء التكنولوجيا الغربية. فالنقل النسخي للتكنولوجيا الغربية يتجاهل –دون ريب– الأطر والبنى التحتية التي يعمل النسق الإنتاجي التكنولوجي في إطارها. فالتباين بيننا وبين الغرب ليس في المسائل العقدية والحضارية فحسب بل أيضاً في الأوضاع التاريخية والواقع السياسي. فلنستفد من الثمرات المادية للحضارة الغربية لحل مشاكلنا الحياتية دونما الذوبان في أتونها الثقافية، مما يفضي إلى طمس هويتنا الحضارية وإلى اختفاء جوهر المشكل والتحدي الذي نعيشه ونستورد بالتالي مشكلات وتحديات العصر الغربي. ولنا في تجربتي اليابان والصين مثالان جديران بالاحتذاء والتقبيس.

صورة تذكارية لثلة من المشاركين في المؤتمر العالمي للدراسات السودانية السابقة(2006م)

بمدينة بيرجن (النرويج)

حول المشاركة السودانية في المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات النوبية بلندن(1-6أغسطس 2010م)[1]

بدعوة من المتحف البريطاني قُيِّض لي أن أشارك في المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات النوبية بلندن في الفترة ما بين (1-6 أغسطس 2010م).

بلغ عدد المشاركين في هذا التجمع العلمي الكبير (240) عالماً وباحثاً من مختلف بقاع العالم (أوربا وأمريكا) ، إضافة إلى ما ينيف عن (20) آثارياً ومؤرخاً سودانياً بالإضافة إلى (5) آثاريين من جمهورية مصر العربية.

وقدم (19) متخصصاً سودانياً أوراقاً علمية متنوعة خصص عدد كبير منها لآثار وتراث منطقة الشلال الرابع بالولاية الشمالية وهي المنطقة المتأثرة بمياه سد مروي.

وتطرقت هذه الأعمال العلمية للمسوحات والحفريات التي شارك فيها هؤلاء الباحثون لإنقاذ التراث السوداني. ولعل من إيجابيات قيام سد مروي من وجهة النظر الآثارية أنه أكسب عددا غير قليل من الباحثين السودانيين الخبرة العملية اللازمة في المسوحات والحفريات بمشاركتهم عبر مؤسساتهم العلمية (جامعة الخرطوم، شندي ودنقلا ومركز أبحاث التراث بجامعة وادي النيل في عطبرة) والمهنية (الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية) في إنجاز العديد من الأعمال الآثارية الحقلية والتي أماطت اللثام عن إرث حضاري سوداني شديد التفرد يضاهي في مناحي عديدة نظائره في العالم القديم (أفريقيا والشرق الأدنى).

بدأ البرنامج العلمي المعد للمشاركين في هذا المؤتمر (الأحد أول اغسطس 2010م) بالتسجيل واستلام بطاقات الحضور بمركز كلور (المتحف البريطاني) . واشتمل برنامج اليوم التالي (الاثنين 2 أغسطس 2010م) على الإحتفال الرسمي الذي تصدرته الكلمات الرسمية (الترحيبية) من أمين المتحف البريطاني (د. فيفيان ديفز) والقائم بأعمال السفارة السودانية بلندن السفير محمد عبد الله التوم، فمدير الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية (د. حسن حسين إدريس)

[1] صحيفة "السوداني" المحلق الإسبوعي ، العدد (1669) بتاريخ 2010/8/30م .

وممثل الجمعية العالمية للدراسات النوبية (د. درك ولسبي)

ومن ثم بدأت الجلسات الأولى التي ابتدرها د. صلاح الدين محمد احمد (نائب المدير العام لهيئة الآثار السودانية) بورقة علمية عن مشروع سد مروي لإنقاذ الآثار. ومن ثم واصل عدد من الباحثين محاضراتهم عن مواضيع شتى خاصة بحقبة ما قبل التاريخ في شمال وأواسط السودان.

وتوالت جلسات المؤتمر (صباحية ومسائية) خلال إسبوع كامل. ولعل ما يستلفت الإنتباه لهذا اللقاء العلمي الحضور المكثف للعلماء والباحثين السودانيين (آثاريين ومؤرخين) ومعظمهم من فئة الشباب حيث قدم نفر غير قليل من هؤلاء أوراقاً بحثية اتسمت بشكل عام بالجدة والتميز والمواكبة باستخدام أحدث الوسائل العلمية في العمل الحقلي (المسوحات والحفريات) والمعملي فضلاً عن استغلال آخر ما توصل إليه العلم من وسائل العرض المتعددة (الملتمديا).

وشملت الأوراق العلمية للسودانيين

البروفيسورات :

- #يوسف #فضل #حسن (السودان الإسلامي والعالم الخارجي) ؛
- #عبدالقادر #محمود #عبدالله (معبد الشمس في مروي: معبد شمس "حقيقي") ؛
- #علي #عثمان محمد #صالح (مستوطنة أثرية من العصر الوسيط بمنطقة المحس)
- #خضر #آدم #عيسى (المسوحات والحفريات الإنقاذية الحديثة في منطقة النيل الأبيض في الموسم الثامن 2009م) ؛
- #عبدالرحيم #محمد #خبير (الإختبارات النوعية والتقنية لفخار العصر الحجري الحديث في إقليم الخرطوم).

الدكاترة:

- #صلاح #الدين محمد أحمد (مملكة كوش الثانية في منطقة الشلال الرابع) ؛

- #انتصار #صغيرون #الزين (الآثار الإسلامية بشمال السودان) ؛

- #عبدالرحمن #علي (الفترة الإسلامية في منطقة الشلال الرابع) ؛

- #أزهري #مصطفى #صادق (مقابر الأطفال: ممارسة جنائزية في منطقة النيل الأوسط، دليل من موقع الصور النيوليثي المتأخر) ؛

- #صديق #بابكر أحمد (المسح الإستطلاعي الآثاري والإثنوغرافي لنطاق السبلوقة : منطقة ام درمان)؛

- #كباشي #حسين #قسيمة (تقييم مشروع إنقاذ آثار سد مروي) ؛

- #فوزي #حسن بابكر (دراسات الرسومات الصخرية: أربعة مواسم في منطقة النيل الأوسط)؛

- #إخلاص #عبداللطيف (الرمز K3 في الحضارة الكوشية) ؛

والباحثون :

- محمود سليمان بشير (إكتشاف مقبرة مروية في بربر: ولاية نهر النيل) ؛

- حليم صبار (دور اللغة والثقافة النوبية في حل الغاز علم النوبيات والمصريات)

- مرتضى بشارة محمد (المقبرة الملكية المحتملة في التمير – مروي) ؛

- عبد الرحمن إبراهيم سعيد (آثار جبل أبو فاطمة) ؛

- يوسف العبيد صالح (استخدام نظم المعلومات الجغرافية GIS في السودان:دراسة آثارية من منطقة المحس)

- ندى بابكر محمد (موقع فانقول الأثري).

واتسمت مناقشات محاور المؤتمر بالجدية في التناول والعلمية الصارمة في الطرح. وأبرزت الحوارات أهمية الإستئناس بآراء العلماء والباحثين لاسيما من الدول الغربية (أوربا وأمريكا) خاصة وأن مشاريعهم العلمية في السودان والتي تطبق أحدث تقنيات البحث ومستجدات العصرنة ستنعكس بالضرورة إيجاباً على الواقع العلمي والثقافي السوداني .

ومن أبرز الشخصيات التي لفتت نظري في هذا التجمع العلمي الكبير والتي لا تزال تقوم بأدوار مهمة في مسار الآثار السودانية

- وليم آدامز (الولايات المتحدة)
- شارلس بونية (سويسرا)
- هرمان بل (بريطانيا)
- راندي هالاند (النرويج)
- هانس نشروم(السويد)

حيث شارك هؤلاء بفعالية في جلسات المؤتمر وحواراته رغم تقدمهم في السن خاصة وأن بعضهم قد تجاوز العقد الثامن من العمر ومما تجدر الإشارة إليه أن مسؤولي المتحف البريطاني أقاموا حفلتي استقبال للمؤتمرين بإحدى قاعاته (متحف بتري) وبمتحف الفاوندلنق – Foundling .

ويلزم التنويه أيضاً بالترحيب الحار للسفارة السودانية في لندن بالمؤتمرين السودانيين والأجانب الذين شاركوا – ولا يزالون في المشاريع الآثارية بالسودان. وأقام لهم القائم بالأعمال السوداني حفل استقبال بدار السفارة (cleveland Row 3) حيث قضى الجميع وقتاً ممتعاً تجاذبوا فيه أطراف الحديث عن العمل الآثاري في البلاد بين الواقع الراهن وآفاق المستقبل في جو سوداني أصيل. فلأسرة السفارة السودانية بلندن الشكر والتقدير والإمتنان

صورة جماعية للمشاركين في المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات النوبية .

المحتف البريطاني (لندن) : 6-8 اغسطس 2010م

حول المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية

(سويسرا ، 1–6 سبتمبر 2014م)[1]

بدعوة من جامعة نيوشاتل (Neuchatel) قُيضّ لي أن أشارك في فعاليات المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية بسويسرا (مدينة نيوشاتل) في الفترة ما بين (1–6 سبتمبر 2014م. سعدت بهذه الدعوة لسببين :– أولهما : إنها إلى سويسرا الرائعة الجمال والتي اشتهرت بين بقية الأقطار بأنها بلد السياحة الأول في العالم وعرفت قبل ذلك بصناعة الساعات (67% من إنتاج العالم للساعات) والأجبان الشهيرة في العالم الأروبي ، وثانيها : إنني لم أغادر السودان منذ أربع سنوات خلت بسبب الأعباء الإدارية المتزايدة بجامعة بحري. بلغ عدد المشاركين في هذا التجمع العلمي العالمي (272) عالماً وباحثاً من مختلف قارات العالم (أفريقيا ، آسيا ،أروبا ، أستراليا وأمريكا الشمالية) ، إضافة إلى ما يربو عن (30) آثارياً ومؤرخاً سودانياً ، علاوة على (4) آثاريين من جمهورية مصر العربية. بدأ البرنامج العلمي المعد للمشاركين في هذا المؤتمر يوم الأثنين أول سبتمبر 2014م بالتسجيل وإستلام بطاقات الحضور بقاعة المؤتمرات الرئيسية بجامعة نيوشاتل .

وإشتمل برنامج اليوم الأول على الإحتفال الرسمي الذي تصدرته الكلمات الرسمية (الترحيبية). وشرّف الجلسة الإفتتاحية وزير السياحة والآثار والبيئة السوداني المهندس أحمد حسين الهد وسفيرة السودان بسويسرا رحمة صالح العُبيد ونائب رئيس البعثة السفير محمد المرتضى مبارك ، إضافة إلى مجموعة من الطاقم الإداري للسفارة السودانية بجنيف . وشكر وزير السياحة والآثار والبيئة حضور هذا الملتقى العلمي وأثني على مجهوات بعثة الآثار السويسرية العاملة بالسودان التي بذلت جهوداً كبيرة في تسليط الأضواء على حضارة السودان القديم (مملكة كرمة ،2500– 1500 ق.م) ، وخص بالشكر رئيس البعثة السويسرية السابق البروفسيور شارلس بونية والحالي البروفيسور ماثيو هونقر. وأشار في ثنايا حديثه لإمكانات

[1] مجلة الدراسات الانسانية ، جامعة دنقلا ، العدد (15) ، يناير 2016م : 205–2011 .

السودان الهائلة في مجال السياحة والآثار والتى تتطلب تضافر الجهود الداخلية والخارجية للإرتقاء بهذا المجال خدمة للثقافة والإقتصاد الوطني .

وشكرت سفيرة السودان في كلمتها – باللغة الإنجليزية – الحكومة السويسرية وجامعة نيوشاتل المنظمة للمؤتمر ولمعرض الآثار السودانية الذي أقيم على شرف هذا المحفل العلمي المتميز. وتحدث رئيس الجمعية العالمية للدراسات النوبية (مقرها الرئيسي لندن) البروفيسور فانسا روندوت الذي رحب بدوره بالمؤتمرين متمنياً لهم مداولات علمية ذات مردود إيجابي للآثار السودانية. قدِمت الأبحاث التي قرأت في المؤتمر تحت عدة رؤوس مواضيع رئيسة شملت عصور ماقبل التاريخ ، فجر الحقبة التاريخية ، الحقبة المروية ، العصور الوسيطة ، الدراسات اللغوية والعمل الميداني (المسودات والحفريات).

وبدأت الجلسة الأولى (الثلاثاء الثاني من سبتمبر 2014م) التي تصدرتها الورقة العلمية للدكتورة دوناتلا يوساي (رئيس البعثة الإيطالية بالسودان) عن عصور ما قبل التاريخ في أواسط السودان ، ومن ثم واصل عدد من الباحثين محاضراتهم عن مواضيع شتى خاصة بفجر الفترة التاريخية وحضارة كرمة. وتوالت جلسات المؤتمر (صباحية ومسائية) خلال إسبوع كامل . ولعل ما يستلفت الإنتباه لهذا اللقاء العلمي الحضور المكثف للعلماء والباحثين السودانيين (آثاريين ومؤرخين) . ومعظمهم من فئة الشباب حيث قدم نفر غير قليل من هؤلاء أوراقاً بحثية إتسمت بشكل عام بالجدة والتميز والمواكبة بإستخدام الوسائل العلمية الحديثة في العمل الحقلي (المسودات والحفريات) والمعملي ، علاوة على إستغلال آخر ماتوصل إليه العلم من وسائل العرض المتعددة (الملتميديا).

وشملت الأوراق العلمية للسودانيين (جامعات الخرطوم ،بحري ، شندي ، دنقلا والهئية القومية للآثار والمتاحف السودانية وهيئة سد مروي ونفر من الباحثين السودانيين في الدياسبورا) الذين حضروا جلسات المؤتمر أو أُقرِأت أوراقهم نيابة عنهم (العدد =35). البروفيسورات : عبد القادر محمود عبد الله (الإنقسام ، التنافس ، التآمر والمصالحات في العائلة الملكية السودانية القديمة) ، على عثمان محمد صالح (إكتشاف عاصمة عيزانا في قلب مروي)، عمر حاج الزاكي (الغزو الأكسومي لأرض المرويين : مهمة محلية خاصة) ، خضر آدم عيسى (الإكتشافات الأثرية الحديثة على إمتداد النيل الأبيض – الموسم التاسع) ، عبد الرحيم محمد

خبير (حرق فخاريات عصور ما قبل التاريخ في السودان) ، إبراهيم موسى محمد (تقنية الحديد في مدينة "ماو" المحصنة – أواسط دارفور ، الألف الأول الميلادي) ، عباس سيدأحمد وجمال جعفر (موقع نبتى مبكر من حفريات جامعة دنقلا بحبل البركل) والدكاترة : عبد الرحمن على محمد – المدير العام لهيئة الآثار والمتاحف السودانية (إنقاذ الآثار ذات العلاقة بالسدود في السودان)، صلاح الدين محمد أحمد (المشروع القطري " كوشاب ")، إنتصار صغيرون الزين (الإسلام في السودان بين التاريخ والآثار)، صديق بابكر أحمد (المخلفات الأثرية الإسلامية في قرية " صحابة " جنوب منطقة دنقلا) ، نجود حسن بشير (أضواء على الحفائر بمنطقة مروي)، فوزي بخيت (عادات الدفن في إقليم النيل الأزرق وشرق السودان). عبد المنعم أحمد عبد الله (الأهرامات بين الموت والحياة في السودان : الملكية والشعبية)، إخلاص عبد اللطيف (كرمة في هيراكيوبولس)، يحى الطاهر فضل (مواقع العصور الحجرية (القديمة والوسيطة) في منخفض القعب غرب دنقلا)، محمد جلال هاشم (المنحوتات الصخرية (القونق) في منطقة المناصير (الشلال الرابع)) والباحثون : معاوية صالح (مستقبل السدودالجديدة في السودان)، على أحمد (المسح الأثري لمنطقة سودري 2011:تقرير أولي)، محمد الفاتح حياتي (ودشنينا من منظور الدليل الأثري)، فيصل عبد الله (الحفريات الإنقاذية لشرق جبل البركل)، شادية عبدرية ومحمد خضر (أدوات الزينة الأنثوية وإستمراريتها في الحضارات النوبية المعاصرة)، محمد التوم (قلعة الزومة بمنطقة الشلال الرابع)، نعمات عبد الرحمن محمد (الحفاظ على اللغة النوبية بين جيلين)، سناء البطل (الثقافة المادية للإسلام في السودان)، هيفاء الطيب (التواصل المسيحي بين الماضي والحاضر)، محمد سعد (جبانة بربر المروية – دراسة بيوآركيولوجية)، حماد محمد حامدين (دور الرخويات في النوبة والسودان القديم)، رحاب خضر (الزينة الشخصية في كوش"8ق.م–4م)، محمود سليمان (الجبانات المروية في منطقة بربر)، يوسف العُبيد (الأحداث التاريخية والأثرية في مدينتي شندي والمتمة:مسح آثاري داخل حدود المدينتين)، أحمد نصر كبوشية (صناعة الأدوات الحجرية الآشولية في السودان من موقع جبل القريان، شرق أدنى نهر عطبرة) وأماني مسعود (العصر الحجري الحديث في أواسط السودان: مشكل المصطلحات وبعض القضايا الحضارية).

وإتسمت مناقشات المؤتمر بالجدية في التناول والعلمية الصارمة في الطرح. وأبرزت الحوارات أهمية الإستئناس بآراء العلماء والباحثين لاسيما من الدول الغربية (أروبا وأمريكا الشمالية) خاصة وأن مشاريعهم العلمية في السودان والتي تطبق أحدث تقنيات البحث ومستجدات العصرنة ستنعكس بالضرورة إيجاباً على الواقع العلمي والثقافي السوداني.

ومن أبرز الشخصيات الغربية التي لفتت نظري في هذا التجمع العلمي الكبير والتي لاتزال تقوم بأدوار مهمة في مسار الآثار السودانية وليم آدامز (الولايات المتحدة)، شارلس بونيه (سوايسرا)، دترش ويلدونج (المانيا)، لازور توروك (هنغاريا)، راندي هالاند (النرويج)، وهيرمان بيل (بريطانيا)، حيث شارك هؤلاء بفعالية في جلسات المؤتمر وحواراته رغم تقدمهم في السن خاصة وأن بعضهم قد تجاوز العقد التاسع من العمر وقد وخط الشيب رؤوسهم وحرث الزمان أثلام وجوههم .بيد أن بعضاً من حيوية وروح دعابة لاتزال هناك لم تفارق هذا الرهط من باحثي الخمسينات والستينات والسبعينات الماضية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه قد أقيم عرض للإصدارات الجديدة خلال أيام المؤتمر ضمت أعمالاً آثارية عن السودان نشرتها بعض دور النشر العالمية (بريطانيا ، المانيا وبلجيكا). كما وأن منظمي المؤتمر بجامعة نيوشاتل قد أقاموا حفل إستقبال على شرف إفتتاح معرض آثار مملكة كرمة على شاطئ بحيرة المدينة (نيوشاتل). و إستضيف المؤتمرون في رحلة بحرية على متن باخرة في مياه هذه البحير الرائعة الجمال .

وعقد في الجلسة الختامية للمؤتمر الإجتماع السنوي التقليدي للجمعية العالمية للدراسات النوبية (السبت السادس من سبتمبر 2014م). ووقف الأعضاء دقيقة واحدة حداداً على أرواح زملائهم الذين إنتقلوا إالى الدار الآخرة في الفترة مابين إنعقاد المؤتمر الثاني عشر (1-6 أغسطس 2013م) والثالث عشر (6-1 سبتمبر 2014م) وهم : جون الكسندر (بريطانيا)، وتوماس هاج (الولايات المتحدة)، جان لكلانت (فرنسا)، أونقي فيلا(فرنسا)، مايكل بود (فرنسا)، جيب الله على جيب الله (مصر)، سلفتينا برسينا (روسيا)، خضر عبد الكريم أحمد (السودان)، مايكل أزيم (فرنسا)، هيلين جاكوث غردون (الولايات المتحدة)، أمجد بشير على (السودان) ونتاليا يومر نسبييا (روسيا).

وناقشت الجمعية العمومية للجمعية العالمية للآثار النوبية المواضيع المدرجة في جدول أعمالها والتى شملت منشورات الجمعية ، العضوية الجديدة ، إختيار الأماكن التي ستعقد فيها المؤتمرات القادمة للجمعية . وبعد التشاور والمداولات وتمحيص المقترحات ، وافق المؤتمرون على عقد المؤتمر العالمي القادم للدراسات المروية بمدينة "براغ" عاصمة جمهورية التشيك عام 2016م كما أختيرت العاصمة الفرنسية "باريس" مقراً للمؤتمر العالمي الرابع عشر للدراسات النوبية في العام 2018م .

وعلى هامش هذا المؤتمر عقد الباحثون السودانيون إجتماعاً ناقشوا فيه الفكرة المقدمة من البروفيسور عبد القادر محمود عبد الله (جامعة النيلين) والخاصة بتكوين إتحاد يجمع شمل الآثاريين السودانين بغرض دعم العمل الآثاري في السودان من الناحية العلمية والبحثية .وتم تشكيل لجنة تمهيدية لخدمة هذا الغرض تضم البروفيسور عبد القادر محمود عبد الله (رئيساً)، والدكتور فوزي بخيت(الهيئة القومية للآثاروالمتاحف)(مقررا) وعضوية كل من البروفيسور عمر حاج الزاكي(أمدرمان الإسلامية) ، والدكتورة إنتصار صغيرون الزين(جامعة الخرطوم) والدكتور أحمد نصر كبوشية(جامعة النيلين) . وحددت مهمة هذه اللجنة بوضع النظام الأساسي للإتحاد ودعوة الجمعية العمومية لإجازته بهدف تشكيل اللجنة التنفيذية للقيام بالمهام لتحقيق الأهداف التي انشأ من أجلها هذا الكيان الأكاديمي بغرض دفع مسيرة العمل الآثاري خدمة للعلم والوطن.

خلاصة القول، فقد حقق المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية الذي عقد بسويسرا (1–6 سبتمبر 2014م) نجاحاً منقطع النظير سواء على المستوى الأبحاث التي نوقشت بمستوى علمي رفيع أو عبر الإجتماعات التي عقدت بين مختلف العلماء والباحثين بغرض التعاون والتواصل الأكاديمي للإفادة من الخبرات ودفع مسيرة العمل الآثاري في السودان نحو الغايات التي حددت له لإماطة اللثام عن تاريخ هذا القطر العريق الذي لعب أدواراً جد مهمة في مسار الحضارة الإنسانية عبر أطوال التاريخ المختلفة .

وجدير بالإشارة ،أن كل المؤتمرات الخاصة بالدراسات النوبية قد عقدت خارج السودان . لذا وجب القول ، بأن الوقت قد حان للدخول في دائرة تنظيم هذه المؤتمرات بالخرطوم خلال السنوات القليلة القادمة سيما وأن هدفها الأول خدمة التراث السوداني الذي هو مناط هويتنا القومية ذات التاريخ المؤثل والمجد التليد. والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

صورة جماعية للمشاركين في المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية.

سويسرا – (نيوشاتل) : 6-1 سبتمبر 2014م

المبحث السادس : تجارب اكاديمية برفقة ثلة من كبار العلماء:

- **أحمد محمد علي الحاكم**

في الثالث عشر من شهر فبراير عام 1996م إنتقل إلى رحاب الله تعالى عالم جليل وأكاديمي ضليع ذلكم هو البروفيسور أحمد محمد علي الحاكم أستاذ علم الآثار بجامعة الخرطوم والمدير العام لهيئة الآثار والمتاحف القومية الأسبق . وبرحيله إحتسب الوطن إبناً مخلصاً من أبنائه البررة ومربياً قديراً ورائداً من رواد تخصص علم الآثار في السودان قضي جل حياته دارساً وباحثاً وأستاذاً في هذا الفرع من الدراسات الإنسانية .

تربطني بالراحل المقيم والماثل الغائب صلة تلمذة وزمالة وصداقة وثيقة العُرّي تطال ربع قرن من الزمان. قيُّض لي أن أتعرف عن كثب على هذا الأكاديمي المرموق ، فكنت أحد غرسه الأول في حقل الآثار السودانية. وكان أول لقائنا في مطلع السبعينات وكنت وقتئذ في بداية دراستي بجامعة الخرطوم ، ضمن الدفعة التاريخية الثانية التي تخصصت في علم الآثار (1973-1977م)، تتلمذت عليه في مرحلتي البكالوريوس والماجستير ، وعملت مساعداً له في مشروع حفريات جامعة الخرطوم بشمال أمدرمان (وادي سيدنا-الشيخ الطيب) أعوام (1978-1983م)، فضلاً عن مشاركته في أغلب الأعمال الآثارية التي أجراها في مناطق متفرقة في السودان (1977-1983، 1990-1991م).

ولد فقيدنا العزيز في بلدة السلمة بريفي بربر عام 1938م، نشأ وترعرع في مدينة عطبرة حيث تلقي دراسته الأولية والمتوسطة والثانوية بها ، تخرج بمرتبة الشرف العليا في جامعة الخرطوم عام 1963م حيث كان أول سوداني يعين في وظيفة مساعد تدريس (معيد) في تخصص علم الآثار الذي كان حينها يدرس بقسم التاريخ بالجامعة. إبتعث بعدها إلي إنجلترا حيث حصل علي درجة الماجستير من جامعة كمبردج عام 1966م، عاد بعدها محاضراً بالجامعة لحاجتها للكفاءات السودانية آنئذٍ.ورجع مرة أخري إلي إنجلترا لمواصلة دراسته العليا في جامعة كمبردج حيث أحرز درجة الدكتوراه عام 1971م وكانت أطروحتة عن "طبيعة وتطور

العمارة المروية 900 ق .م"–350م" (The Nature and Development of Meroitic Architecture). وبرجوعة تولي رئاسة قسم الآثار بجامعة الخرطوم خلفاً للدكتور عبدالقادر محمود عبداللة .والدكتور أحمد الحاكم هو عضو هيئة التدريس الوحيد الذي تولي رئاسة القسم لعقد كامل من الزمان (1981–1971م) فتخرجت علي يدية الأفواج الأولي من حملة الشهادات الجامعية وفوق الجامعية في تخصص علم الآثار من جامعة الخرطوم والتي تدير الآن شئون العمل الآثاري بكفاءة واقتدار في العديد من المؤسسات البحثية والتعليمية داخل وخارج الوطن . وحاز علي درجة الأستاذية عام 1988م. من جامعة الخرطوم بجداره وإستحقاق .

وتولي البروفيسور أحمد الحاكم إدارة العديد من البعثات الآثارية في السودان حيث عمل في مطلع حياته الأكاديمية نائبا للبروفيسور البريطاني بيتر شيني (المدير الأسبق للآثار في حكومة السودان 1948–1955م) في إدارة الحفريات المشتركة بين جامعتي الخرطوم وغانا عام 1966م في منطقة مروي (البجراوية)، تولي بعدها إدارة مسوحات وحفريات جامعة الخرطوم في مناطق متفرقة من السودان شملت شمال أم درمان(وادي سيدنا– الشيخ الطيب) ،البجراوية (كبوشية) ، وادي حلفا وكردفان (جبل الحرازة) والبطانة ومنطقة البحر الأحمر .وكان فقيدنا الكبير طيب المعشر ،نقي السريرة ،عف اللسان ، ذا تواضع جم ،حفياً باهله ومعارفه .وكان السعي الحثيث لطلب العلم رغم تبوأه فيه شأواً علياً هو مبتغاه وغاية قصده .فلقد عرف عنه إنه كان قارئاً نهماً حيث كان الكتاب رفيقه في المغدي والرواح ،فنخل مافي المكتبات من معلومات بل وأفاد منها بأفضل مما إستوعبها . ومن شيمة النيّره أيضاً إنه كان لا يأنف أن يرتشف من خبرات الأخرين سواء أكانوا زملاءه أو تلامذته مما أكسبه محبتهم وثقتهم . وإستطاع بذلك أن يردم تلك الفجوة الفاغرة التي يصنعها العديد من أهل العلم بين نتاج المعرفة المدرسية (السكولائية) وبين الخبرات الحياتية وزخمها الدفاق .

ولا أخالني أعدو الحقيقة إذا قلت أن كل الذين عرفوه عن كثب لا يختلفون في أن الرجل كفؤ لا يطرف له جفن ومن أصحاب الذكاء اللمَاح والبصيرة الثاقبة . ومابذله من مجهودات بدأب وصبر وجلد في سبيل تطوير قسم الآثار بجامعة الخرطوم أتي أكله نجاحاً وألقاً لذا فهو جدير بالإشادة والتقريظ . ففي عهده تم تعيين معظم أعضاء هيئة التدريس السودانيين الذين أكملوا دراساتهم العليا في الغرب(أروبا وأمريكا الشمالية) وعادوا بعدها لتولي مهامهم التدريسية والبحثية

بالقسم . كما قام بنفسه بتدريب وتأهيل عدد لايستهان به من الباحثين والفنيين في مجال العمل الميداني وقام بتوسيع مباني القسم، تأهيل وحدة التصوير وتعيين مصور متفرغ لها علاوة على إقامة المعارض والندوات لتسليط الإعلام على موروثنا الحضاري والتعريف به.

وفي داخل الجامعة نشط في تدعيم التعاون بين الأقسام الأخرى ذات الصلة مثل أقسام التاريخ ،الجيولوجيا والتربة والمعمار كما مدد جسور التواصل مع المجلس القومي للبحوث في مشروع التكنولوجيا الموروثة ودولة العلم الحديثة في مطلع الثمانينيات . وخارج الجامعة تواصل تعاونه مع الجامعات الأجنبية وكمثال لذلك المشروع الحفريات المشتركة بين جامعتي الخرطوم – كالغري الكندية في مطلع السبعينيات . وهناك أيضاً المشروع السوداني – الفرنسي للأبحاث العلمية في منطقة البحر الأحمر – 1979م – 1981م . بين جامعة الخرطوم وجامعة ليون الثانية الفرنسية . وبسبب الدور الأساسي والمتميز الذي قام به قسم الآثار حينها فقد أوكلت له إدارة وتنظيم هذا المشروع الذي عنى بأبحاث متكاملة تشمل البيئة والجيولوجيا والآثار في منطقة البحر الأحمر السودانية.

أحمد محمد على الحاكم الحاضر الغائب أحد الرموز العلمية المشرفة ليس لجامعة الخرطوم فحسب بل لحقل العمل الآثاري والثقافي في وطننا العزيز. فهو أحد المثالات النموذجية التي يرنو إليها طلاب وباحثو علم الآثار ، لما لا؟ فهو من الأساتذة القلائل الذين وضعوا بصمات جليّة على مسيرة العمل الآثاري في السودان فكراً وممارسة لا سيما في مجالات البحث والتأهيل والتدريب للكوادر الوطنية ما ينيف عن ثلاثة عقود من الزمان.

والبناء مهما سمق فهو مدين لمن وضع حجر أساسه كما يقولون. فقد كان أستاذنا الراحل يتسم بمزية حميدة وهي الثقة الكبيرة في مقدرات النابهين من تلاميذه الذين تمور نفوسهم بفورة الشباب وشغفه بالبحث العلمي حيث دأب على تكليفهم – لاسيما في أطروحاتهم العلمية – على القيام بمسوحات وحفريات أثرية جد هامة كانت بداية الإنطلاق لإكتساب الخبرة العلمية التي وضعت أساساً مكيناً لهم في دوائر تخصصاتهم .

لم تقتصر أنشطة أحمد الحاكم داخل أروقة الجامعة على العمل في قسم الآثار بل إمتدت لتشمل المشاركة في التدريس في كلية الهندسة – قسم المعمار حيث ظل يدرس ولسنوات عديدة

مادة تاريخ العمارة في السودان " فأفاد منه خريجو كلية المعمار بجامعة الخرطوم أيما فائدة ، فضمخ بذلك المعرفة العلمية البحتة بعبق تراثنا وتاريخنا المجيد .

ومما لا ريب فيه أن الوعي الناضج بالتراث والآثار يرفدنا بدفعات نفسيه –معنويه مانحة للعزة والكبرياء ،قادرة علي إستبانة تاريخنا المؤثل الثاوي في أديم أرضنا المعطاءة . ولا غرو في ذلك، فكل الأمم التي إرتقت مدارج الحضارة والتقدم تستمد دوماً قوتها المعنوية من تاريخها الذي يشكل درعاً واقياً لها من الإستلاب ويحافظ علي هويتها وشخصيتها الذاتية التي لن تكتمل نفسياً وحضارياً إلا بتجسير آليات التواصل بين الماضي والحاضر إستشرافاً للمستقبل الواعد .

رفد البروفيسور أحمد الحاكم المكتبة السودانية بعشرات المقالات والكتب التي يعجز الحيز الحالي عن إيرادها جميعاً ، لذا سإقتصر في هذه العجالة علي مقال واحد وثلاثة كتب لعلها من أبرز مؤلفاته وهي : بادئ ذي فرضيته الجريئة التي أماط عنها اللثام مقاله الموسوم (مدينة مروي وأسطورة نبتة The City of Meroe and the Myth of Napata)– (مجلة آداب العدد الثاني : ص 39–46 ، جامعة الخرطوم 1975م) حيث حاجج إستناداً إلى أدلة كرونولوجية (التزمين)،نقشية وجغرافية بأن مدينة مروي القديمة (شمال كبوشية) كانت حاضرة مملكة مروي (900ق.م–350م.) منذ بداية حكم الأسرة الخامسة والعشرين السودانية وإلي نهاية المملكة. ودحض الزعم القائل بوجود مملكتين تعاقبتا في السودان القديم إحداهما نبتة (900ق.م.–537ق.م.) والأخري مروي (538ق.م_350م). ونالت هذه الفرضية القبول لدي الكثيرين من علماء الآثار المختصين في الدراسات السودانية عامة والمروية علي وجه التخصيص.

وفي كتابه "الزخارف المعمارية وتطورها في منطقة وادي حلفا " والذي نشرته وحدة أبحاث السودان" بجامعة الخرطوم عام 1965م، كشف الحاكم من خلال دراسة ميدانية لزخارف العمارة في وادي حلفا عن ثروة هائلة من المعلومات لتجربة فنية ثَرة تتم عن ذوق فني جمالي راقٍ وتعبر عن خلفية حضارية راكزة الجذور في أغوار التاريخ . فالفن المعماري في السودان ليس وليد اللحظة بل يعبر عن تجربة تاريخية إبتدرها الكوشيون (أهل حضارات كرمة ومروي) الذين قادوا الدولة السودانية قديماً نحو وحدة ثقافية وبناء شخصية قومية إستطاعت أن تستوعب الكثير من صيغ الحضارات العالمية المعاصرة مع إحتفاظها بطابعها الإبداعي ولونها المحلي المميز دونما إنسياح في بنيات تلك الحضارات . وكانت هذه الشخصية السودانية كما أبان عالمنا الراحل

معروفة للعالم القديم والكلاسيكي ، فعرفها الفراعنة المصريون والإغريق والرومان وغيرهم وتناولوها في أساطيرهم وملاحمهم وقصصهم وأخبارهم وتبوأت مكانة عليَة في آدابهم .

أما كتابة بعنوان "المعمار المروي –خلفية لحضارة أفريقية " فقد ظهر باللغة الإنجليزية ونشرته دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر عام 1988م. وفي هذا المؤلف أمدنا البروفيسور حاكم بخلفية مكينة عن تاريخ العمارة في السودان القديم والتي بلغت إحدي ذري عظمتها في عهد دولة مروي (900 ق م–350م). فالقصور الملكية والأميرية ،الجبانات الملكية في الكرو، نوري ، كبوشية ، إهرامات البجراوية ، الدور والحمامات المروية الشهيرة كلها تشي برقي وعظمة فن العمارة السوداني ،حيث إستفاد أسلافنا الأوائل من مظاهر التقدم التقني في عصرهم ، فعرفوا صناعة الحديد التي ظهرت في البدء في هضبة الأناضول (تركيا) بواسطة الحيثيين في الألف الثاني قبل الميلاد . ومما يجدر التنوية بة أن قدماء السودانيين كانوا أول من إستخدم الحديد في أفريقيا بل وأنشاوا أفران الصهر وأذدهرت صناعة الحديد في السودان القديم في الوقت الذي كان فيه هذا المعادن مايزال نفيساً ويستخدم في صناعة الحلي والزينة عند كثير من الأمم المعاصرة لحقبة إذدهار الحضارة السودانية (الكوشية) مما حدا بالعالم البريطاني أ.هـ. سأيز عام 1912م . إلي وصف مدينة مروي القديمة بأنها "برمنجهام أفريقيا" . وشملت إستخدامات الحديد في السودان القديم شتي مناحي الحياة ، في الأدوات الطبية الجراحية بعد جلفنته لحمايته من الصدأ وفي صناعة الأسلحة والآلات الزراعية وبعض الأدوات الحياتية الأخري . وفضلاً عن ذلك أفاد الأقدمون من صناعة الحديد في عملية التحكم في درجة الحرارة وإستخدامها الأمثل ، فبنوا الأفران التي استغلت في إنتاج الطوب الأحمر الذي إستخدم بصورة واسعة في بناء الدور والقصور وصناعة الفخار كما إستخدموا الجبص والأعمدة الحجرية المزخرفة .

وكان نتاج هذه المعرفة التقنية قفزة معمارية وفنية باهرة في السودان القديم . ولم يقتصر دور أحمد الحاكم علي التنقيب والدراسة والبحث الأكاديمي البحت بل إمتد ليشمل الجوانب المهنية وكيفية الإستفادة من التكنولوجيا الموروثة في حياتنا المعاصرة .ففي برنامج "التكنولوجيا الموروثة ودولة العلم الحديثة" الذي نظمه المجلس القومي للبحوث في الثمانينات بالتعاون مع العديد من جهات الإختصاص ، كان لقسم الآثار بجامعة الخرطوم دور بارز في هذا العمل العلمي حيث تم تصميم نماذج لبعض الأفران التقليدية لصهر الحديد والإستفادة من موروثنا الحضاري في هذا

الجانب بل وتطوير تقنية هذه الأفران لإستخدامها بصورة أكثر نجاعة وفائدة . وكان لي شرف المشاركة في هذا المشروع الآثاري – التقني الذي كان يهدف إلي تأصيل صناعة الحديد السودانية بإستغلال إرثنا الحضاري في هذا المضمار ، بيد أن التمويل المالي وقف عقبة كأداء حالت دون تنفيذ هذا المشروع .

عاش الراحل مهجوساً علي الدوام بموروث أمته الحضاري . فقد كشف في كتابه الموسوم "هوية السودان الثقافية – منظور تاريخي " – صدر عن جامعة الخرطوم عام 1990م عن الدور الطليعي والحضاري للسودان كأحد أهم المنافذ التي أطلت منها القارة الأفريقية إلي العالم الخارجي . وأبان إستناداً إلى أدلة علمية راجحة بأن السودان لم يكن معبراً أو قنطرة للتيارات الحضارية لأفريقيا فحسب بل كان بوتقه إنصهرت فيها شتي هذه التيارات (وثنية – مسيحية– إسلامية) في صياغة جديدة. وعلاوة علي ذلك ،كان لسوداننا دور رائد في توليد وإثراء التيارات الثقافية والحضارية في وادي النيل والعالم القديم .وكانت محصلة ذلك هذا الإمتزاج العرقي والتلاقح الفكري الذي أعطي وطننا الحبيب زخماً حضارياً هائلاً تفرد به علي العديد من البلدان.واستطاع الإسلام كدين عالمي أن يستوعب الكثير من السمات السودانية وأن يتعايش مع هذا الواقع المحلي بما فيه من تعددات. وقد ترك الأثر الحضاري بصمات لا تخطئها العين علي المظهر السوداني للإسلام دون أن يمس جوهر العقيدة الغراء . وأفضي كل ذلك إلي إتسام الشخصية السودانية بسماحة الإسلام وإعتداله وسعة أفقه.

ثمة إشارة هنا ، وهي أن ماسطرته آنفاً من ذكريات ومعلومات ماهي إلا نفثات يراع وغيض من فيض مما تحفل بة سيرة هذا العالم الرائد الذي توخاه حمام الموت بغتة وهو في أوج عطائه

وتمر علينا الذكري الخامسة والعشرون لرحيل عالم الآثار أحمد الحاكم وقد خطا العمل الآثاري في السودان خطوات جادة نحو الأمام بفضل الدعائم الراسخة التي أرساها نفر من رعيلنا الأول وعلي رأسهم أحمد الحاكم ، فضلاً عن الجهود المقدرة والإهتمام الكبير الذي بذلته العديد من الجهات الرسمية خلال العقدين الماضيين ، فأصبحت بحمد الله وتوفيقه آثارنا معروفة بشكل لافت للنظر في العديد من بلدان أوربا وأفريقيا والشرق الأدني .

وكان للمجهود المتميز الذي بذلته الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية أثر بالغ في التعريف بقسط وافر من تراثنا التليد من خلال الندوات والمعارض لاسيما معرض "ممالك علي النيل " الذي نظمته الهيئه القومية للآثار والمتاحف في التسعينات الماضية بالتعاون مع معهد العالم العربي بباريس وطاف العديد من بلدان العالم . ولا ريب أن هذه المجهودات جديرة بالإشادة وإن كانت لا تطال جل طموحاتنا ولا تتناسب وحجم إرثنا المادي (الثابت و المنقول) .

وللنهوض بالعمل الآثاري في السودان بشكل كبير لابد من تواصل الأجيال ولخلق آلية تنسيق بين كافة الجهات المهتمة بالآثار وذلك لإبراز دورها الفاعل والمهم في مختلف مناحي الحياة الثقافية والإجتماعية والإقتصادية والتنموية .وفي تصوري أن إنشاء الإتحاد العام للآثاريين السودانيين الذي ظهر بحمد الله إلى حيز الوجود عبر انتخابات ديمقراطية في الثامن من مارس لهذا العام يمثل بداية الإنطلاقة الحقيقية لدفع دولاب العمل الآثاري السوداني .ومن المؤمل أن يباشر الإتحاد أعماله خلال الأيام القليلة القادمة .لذا فإن روح احمد الحاكم تناجينا وتحثنا على السير الجماعي لتطوير قطاع الآثار والسياحة المرتبطة به في سودان التاريخ العريق والماضي التليد. فهلا شمرنا عن ساعد الجد وبنينا سودانا واحدا موحدا إقتصاديا وحضاريا وثقافية.نتعشم ذلك والله المستعان.

- **عبد القادر محمود عبدالله**

ولد في يوم السبت 1937/5/26في مدينة الكاملين بمحافظة الجزيرة .تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط بمدينة الكاملين ،والثانوي بمدرسة المؤتمر الثانوية الحكومية بام درمان .تخرج في جامعة الخرطوم قسم التاريخ(التاريخ القديم) بمرتبة الشرف الثانية القسم الأول عام1962وعلى مرتبة الشرف الأولى من جامعة درم 1965 وحاز على درجة الدكتوراه في الدراسات المروية من جامعة درمDurham ببريطانيا عام 1970.وترأس شعبة الآثار كأول سوداني يترأس قسم الآثار بجامعةالخرطوم (1971-1970).

عمل محاضراً فمحاضر أول (أستاذ مشارك) بقسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة الخرطوم (1975-1970) كما عمل أستاذا مشاركا فأستاذا في قسم الآثاروالمتاحف بجامعة الملك سعود (2001-1978) .وكان أمينا لندوة الجزيرة العربية بجامعة الملك سعود لنحو اربعة وعشرين عاما(2000-1976).وحرر مع آخرين مجلدات بحوثها الثلاثة .وكان أحد المؤسسين للإتحاد العام الآثاريين العرب في التسعينات المنصرمة.

كان عبدالقادر محمود عالما بارزا .وحصل على جائزة الملكة اليزابيث كأفضل باحث بجامعة درم (Durham) في العام 1966.وفاز بالجائزة التقديرية المقدمة من الإتحاد العام للآثاريين العرب

عن كتابه الموسوم ب"الكتابة الابجدية في مصر القديمة "عام 2000م.

ويعتبر عبدالقادر محمود أحد أابرز علماء اللغات القديمة(الهيروغليفية المصرية والكوشية المروية).وتتلمذ على يد العلامة البريطاني مكادم وله عشرات البحوث عن تاريخ وحضارة السودان القديم جلها بالإنجليزية منشورة في مجلات علمية محكمة في داخل وخارج السودان .وتمت قراءة بعضها في مؤتمرات عالمية في الغرب الأروبي والأمريكي .كما أصدر العديد من الكتب من أبرزها :اللغة المروية الجزء الأول(الرياض 1986)،الكتابة الأبجدية في مصر القديمة(1995الرياض) وبيي(بعانخي) اول سوداني ملكا للسودان وصعيد مصر(الرياض2004).وانشأ موقعا عاملا في الإنترنت عن السودان بعنوان ؛ هكذا السودان قديما وحديثا:

وللبروفيسور عبدالقادر تلاميذ كثر داخل السودان وخارجه .وأحسب نفسي محظوظا أن تتلمذت عليه كما زاملته محاضرا بقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود في الرياض في الثمانينات والتسعينات الماضية .ولقد عرفته عن كثب طيب المعشر ،سمح السجايا مع دقة وانضباط في العمل قل نظيره.توفي إلى رحمة مولاه في السابع من يناير 2021م. الا رحم الله أستاذ الأجيال عبدالقادر محمود وغفر له وأسكنه فسيح جناته مع الصديقين و الشهداء وحسن أولئك رفيقا إنه سميع مجيب الدعاء .

- **بيتر شيني P.Shinnie**

بيتر شيني أحد مؤسسي الآركيولوجيا الأفريقية ، رحل عن عمر ناهز 92 عاما قضي جله (70عاماً) في مهنة الآثار ، مديراً لمصلحة الآثار السودانية (1948 – 1955م) ، فباحثاً للآثار في مناطق متفرقة من أفريقيا (السودان ،غانا ويوغندا) ،فأستاذاً بجامعة الخرطوم (1967م) مؤسساً لقسم الآثار مع زميله المصري البروفيسور مصطفي الأمير ، وقضي بقية عمره أستاذاً للآثار بجامعة كالقري في كندا .

قاد البعثة المشتركة لجامعتي الخرطوم– غانا (1966م) بالبجراوية (الآثار المروية) ثم حفريات بعثة جامعة كالقاري الكندية لمروي القديمة (1973 – 1984م).للبروفيسور شيني عشرات المقالات والعديد من الكتب في في مجال الآثار الأفريقية والتي قام بتأليفها أو تحريرها أبرزها مؤلفه"مروي:حضارة السودان"1967م و "العصر الحديدي في أفريقيا 1971م". وكنت ضمن طلاب الدفعة التاريخية الثانية بجامعة الخرطوم التي تعرفت علي هذا العالم الكبير إبان رحلة علمية لقسم الآثار لمنطقة البجراوية في مطلع السبعينات الماضية ومن ثم توطدت علاقتي به إلي أن إرتحل عن هذه الدنيا .

تميز البروفيسور بيتر شيني بالتواضع الجم رغم مكانتة العلمية السامقة كأحد رواد علم الآثارفي أفريقيا جنوب الصحراء . وأورد أدناه حادثة لي معه تبين تواضعه وجميل أخلاقة . فلقد أورد معلومة مقتضبة في كتابه المعنون " النوبة القديمة " 1991م عن موقع السروراب – 2 (العصر الحجري الوسيط) الذي قمت بتنقيبه عام 1978م وذلك إستناداً إلي معلومة زودته بها أستاذة نرويجية كنت قد أبلغتها بها من قبل برغم أنني كتبت لاحقا–قبل نشر كتابه– تقريراً في ورقة علمية عن هذا الموقع تمت قرأتها في المؤتمر العالمي لدراسات ما قبل التاريخ لشمال وشمال –شرق أفريقيا الذي عقد ببوزنان (بولندا) في الفترة مابين 11–15سبتمبر 1984م ونشرت مساهمات جلساته عام1989م. وعاتبت البروفيسور شيني علي ذلك في رسالة ودية ، فما كان منه إلا أن قام بالرد علي رسالتي بصورة لطيفة تنم عن تواضع كبير، وإليكم رد العلامة بيتر شيني في رسالته لشخصي الضعيف لله : (مترجم).

جامعة كالقاري
كلية العلوم الإجتماعية
19 أبريل 2000م
عزيزي عبدالرحيم

شكراً جزيلاً علي رسالتك بتاريخ 28مارس والتي تشير فيها إلي الخطأ الذي إقترفتة في كتابي " النوبة القديمة "Ancient Nubia عندما لم أشر إلي ورقتك التي قرأت في مؤتمر بوزنان (بولندا) 1989م في قائمة المراجع .

إعتذاري لك ، وإذا كانت هناك ثمة طبعه ثانية أؤكد أن ورقتك العلمية ستتضمنه . ولم يمكنني الناشرون من إضافة قائمة مراجع مفصلة في نص الكتاب . أتمني أن تكون قد وجدت الكتاب مفيداً . لا أجد نفسي مسروراً بما يفعله الناشرون الذين لم يأخذوا بتصويباتي الأخيرة وكمثال عبارة " الساقية" في الصفحات(10-1) وفي اللوحة رقم (2)،فضلا عن أشياء ثانوية أخرى.

كل شيئ يسير بصورة حسنة هنا (يقصد كالقاري بكندا) . سأسافر إلي بولندا لتقديم ورقة (علمية) وإلي كمبردج لإجتماع جمعية علماء الآثار الأفريقية (SAfA) ومنها إلي غانا في الشتاء . أتمني أن تكون كل الأمور معك وبقية الأصدقاء القدامي علي مايرام . هل عباس (يقصد بروفيسور عباس سيد أحمد) معكم(يقصد بجامعة الملك سعود بالرياض وكنت أعمل فيها آنذاك) ؟ . دعه يكتب (يراسل) .

في خدمتكم دوماً
بيتر شيني

UNIVERSITY OF CALGARY

FACULTY OF SOCIAL SCIENCES
Department of Archaeology
P.L. Shinnie, M.A., LL.D., F.S.A., F.B.A.
Telephone: (403) 220-6018
Fax: (403) 282-9567

19th April 2000

Dear Abdelrahim,

Many thanks for your letter of 28th March pointing out my mistake in 'Ancient Nubia' when I left your paper from the 1989 Poznan conference out of the bibliography. My apologies – and if there is ever a second edition I will make sure it is included. The publishers would not let me include detailed references in the text. I hope you found the book useful – I am not pleased with the publishers who did not put in my last corrections for example Sagia on pp. 8, 10 and Saquia on plate 2 and other minor matters.

All well here – I go to Poland to give a paper in May and to Cambridge in July for the SAfA meeting and then to Ghana for the winter. I hope all is well with you and other old friends – is Abbas with you. Ask him to write

Yours ever

Peter

2500 University Drive N.W., Calgary, Alberta, Canada T2N 1N4 • www.ucalgary.ca

- **راندي هالاندR.Haaland**

علمتنا أبجديات علم الآثار وأصوله خلال عملها بقسم الآثار في جامعة الخرطوم (1972-1975م).أستاذة عالمة موسوعية قدمت عطاء ثرا لطلابها بجامعة الخرطوم مع دماثة خلق ووفاء يندر أن تجد له نظيرا.و لاتزال المخيلة تحتفظ بذكريات نضرة عن تدريسها بالجامعة بإنجليزية جميلة تنطقها بطريقة السهل الممتنع .وكانت لاتقتصر في تدريبها لطلابها على المقررات التطبيقية الملزمة حسب المنهج الدراسي المرسوم بل تشجعهم لمرافقتها للعمل الحقلي في مشاريعها البحثية في مناطق عديدة بالسودان (أقاليم الخرطوم : مواقع الشهيناب والكدرو-1 والنيل الأبيض: ربك ونهر النيل: عطبرة).

ووفرت العديد من المنح الدراسية لطلابها الذين أصبحوا أعضاء هيئة تدريس بجامعة الخرطوم والهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية.وساعدت البعض على إكمال دراساته العليا لمرحلتي الماجستير والدكتوراه بجامعة بيرجن في النرويج .وأمدت شخصي الضعيف بعينات من فخار موقع ربك (النيل الأبيض) النيوليثي(Neolithic) وذلك خلال دراستي لفخار عصر ماقبل التاريخ في السودان استكمالا لدراستي للدكتوراه بجامعة ساوثامبتون ببريطانيا (1996م).

وقامت بإجراء التسهيلات اللازمه للعديد من الباحثين السودانيين عن طريق وكالة التنمية النرويجية لماوراء البحار (NORAD) لحضور المؤتمر العالمي السابع للدراسات السودانية في النرويج (جامعة بيرجن) في الفترة مابين (8-4 أبريل 2006م).

وكان لي شرف المشاركة في ذلك المؤتمر وقدمت فيه ورقة علمية عن آثار جنوب السودان بعنوان : Archaeology of Southern Sudan :Present Status and Future Prospects.وأتاح هذا التجمع العلمي لمجموعة من الآثاريين السودانيين المشاركة وهم: د.حسن حسين إدريس (المدير الأسبق للهيئة القومية للآثار والمتاحف)، د.صلاح محمد احمد(امين أمانة الكشف الأثري بالهيئة القومية للآثار والمتاحف)،د.انتصار صغيرون الزين (رئيس قسم الآثار بجامعة الخرطوم) و د.عبدالرحيم محمد خبير(رئيس قسم الآثار بجامعة جوبا).وقدم

هؤلاء أوراقا علمية في المؤتمر كما قاموا ومعهم د.انورعبدالماجد(أستاذ سابق بجامعة الخرطوم وزمبل أبحاث بجامعة بيرجن حينها) بطلب من بروفيسور راندي هالاند بالقاء محاضرات لطلاب الدراسات العليا بجامعة بيرجن عن مساهماتهم في البحث الآثاري في السودان.

ومن علائم معاملتها الطيبة اهتمامها بطلابها وزملائها حتى بعد أن تاهل بعضهم وصاروا باحثين يعملون في العديد من المؤسسات العلمية بكفاءة وإقتدار إنها كانت ولاتزال تتابع نشاطاتهم البحثية وأخبارهم الإجتماعية .وأذكر إنني تأخرت بعض الوقت عن الحضور للاحتفال الخاص باليوبيل الذهبي لقسم الآثار بجامعة الخرطوم وكنت أزمع مقابلتها قبل تدشين المعارض.قابلني د.أحمد حسين(قسم الآثار بجامعة الخرطوم) وبعد التحية قال لي:" بروف راندي منذ وصولها القسم سألت عنك ياخبير أذهب لها الحين فهي مع ضيوف أجانب بمكتبي قبل أن يبدأ تدشين الإحتفال".هي كذلك تتابع طلابها وتتفقد أحوالهم الحياتية.نسأل الله لها طول العمر مع الصحة والعافية والمزيد من العطاء للبشرية.

- **وليم آدمز W.Adams**

رحل عن دنيانا إلى عالم الخلود عالم الآثار الأمريكي المعروف وليم آدمز (جامعة كنتكي) في 22 آب أغسطس 2019م عن عمر يناهز أل 92عاما.و يعتبر آدمز من أهم علماء الآثار الغربيين الذين أثروا الأدبيات الآثارية السودانية باعماله الرائدة.جاء إلى السودان عام 1959مترأسا حملة إنقاذ آثار النوبة الثالثة بقيام السد العالي جنوبي مصر وغمره لمساحات شاسعة من النوبة السودانية والمصرية والتي يقبع بجوفها تراث حضاري وضع وادي النيل أحد أهم مراكز الحضارة في العالم القديم.

وبالرغم من أن اليونسكو وفرت الدعاية وجمعت معظم الأموال لحملة إنقاذ آثار النوبة فإن تنظيم الإدارة الفعلية لهذا العمل المعقد. ترك للحكومتين السودانية والمصرية (آدمز 2010: 47).

ويلزم التنويه إلى إنني سطرت نعيا موجزا بالفيسبوك معددا فيه أبرز أعمال وليم آدمز ومشيرا لتنقيبانه بالنوبة المصرية(قصر أبريم) والسودانية(مينارتي وكلبنارتي),فضلا عن ذكرياتي معه إبان فترة الدراسة بجامعة الخرطوم في زيارته للسودان عام 1979م وتواصلي معه لاحقا واللقاء معه لماما في مؤتمرات علمية بالخارج(المؤتمر العالمي الثاني عشر والمؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات النوبية بلندن 2010م ونيوشاتل بسويسرا 2014م).

وساقدم أدناه قراءة علمية منهجية موجزة لبعض أعمال وليم آدمز الآثارية وبالتركيز على تنقيباته ودراسات الفخار الذي يجمعني وإياه في تخصص واحد.وقيض لي أن أتخصص في دراسات الفخار السوداني القديم كأول باحث سوداني حصل على درجة الماجستير من جامعة الخرطوم في هذا المجال (1982م) فالدكتوراه من جامعة ساوثامبتون بانجلترا (1996م) مما ذاد إهتمامي بأبحاث آدمز وأسلوبه العلمي في دراسة الفخار وبخاصة نتائج تصنيفاته لفخار النوبة في العصر الوسيط كما يوضحها مجلدان موسومان ب Ceramic Industries of Medieval Nubia2vols

وأشير هنا إلى أن آدمز شارك في حملة آثار النوبة الثالثة مرتين منتدبا من اليونسكو مساعدا لمصلحة الآثار السودانية في المسوحات والتنقيبات كما ترأس أيضا بعثة جامعة كنتكي الأمريكية التي أجرت مسوحات وحفريات بالنوبة السودانية .وتمركز العمل الإنقاذي في النوبة العليا السودانية بتنقيب الجبانات (بإسلوب الخندق (Trenching Method)على الضفة الغربية للنيل.أما على الضفة الشرقية لنهر النيل فقدد خصصت لمسوحات وحفريات البعثة الإسكندنافية بقيادة سيف سودربيرف 1962.ونجم عن هذه المسوحات والتنقيبات الكشف عن مايربو عن 1000موقعا أثريا على ضفتي نهر النيل. وأنجز التنقيب في أكثر من ثلثها(Adams 1977:66م).

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن الإنجازات الأكثر اهمية لعمل آدمز في إقليم النوبة تصنيفه للفخار السوداني في العصر الوسيط،(1550–300م.).وتبنى هذا الباحث نموذجا معروفا في الدراسات الآثارية الأمريكية يستند إلى إستمارة تصنيف تحتوي على :التزمين،التحقيب الحضاري ،وفصائل الفخاريات Family Wares بتفرعاتها العديدة ،الصناعة،البنية، المعالجةالسطحية ،اللون ،الأشكال *والزخارف* .

أسفر هذا التصنيف الذي شمل كل فخاريات إقليم النوبة عن تقسيم المادة المكتشفة إلى عدة مجموعات حضارية رئيسة:(المروية،المجموعة المجهولة 'س'،الإنتقالية،المروية،المسيحية المبكرة،المسيحية الكلاسيكية،المسيحية المتاخرة ،المسيحية النهائية ومابعد المسيحية) وتغطي أحقابا زمنية تتراوح بين300–1550عاما.

وخلص آدمز في دراساته التطبيقية من خلال منهج تداخل المساقات Interdisciplinary Approach إلى أن فخار إقليم النوبة في العصر الوسيط ذو ملامح محلية متاثرة بعناصر مصرية وإغريقية وتقل فيه بدرجة ملحوظة التاثيرات النبتية–المروية للشمال الأوسط بالسودان.

وفي تصوري أن نتائج دراسات آدمز للفخار السوداني في العصر الوسيط وما أفرزته من معلومات مهمة تحتاج الآن إلى مقارنات دقيقة وشاملة بإستخدام منهج علمي أكثر صرامة مع الإستعانة ببراديم Paradigm مدعما بحزم إحصائية مناسبة ومعالجة حاسوبيا.

ولعل الهدف الأسمى هو استكناه طبيعة الوجه الحضاري والعلاقات المتبادلة بين المجموعات السكانية في إقليم النوبة والتعرف على آلياتها التي أنتجت هذه الصناعات المتميزة.ولاريب أن إعادة التركيب التاريخ الحضاري لهذه المنطقة (النوبة) Reconstruction of cultural history البالغة الأهمية في تاريخ وادي النيل بل أحد أبرز مراكز الحضارات في العالم القديم لهو عمل يستحق الجهد الدؤوب والمثابرة لبلوغ الهدف المرتجى.وأنوه بأن لي علاقة أكاديمية قديمة مع عالم الآثار الامريكي وليم آدمز وحدث أن التقيته بجامعة الخرطوم (1979م) وبالمتحف البريطاني بلندن(2010م) ولا حقا في نيوشاتل بسويسرا(2014م) .وفي لقياه بكافتيريا المتحف البريطاني لندن في الثالث من أغسطس 2010م على هامش المؤتمر العالمي للدراسات النوبية الثاني عشر (6-1اغسطس2010م بالمتحف البريطاني لندن) تبادلنا أحاديثاً أكاديمية وذكريات ثرة.ولدهشتي وبرغم تقدمه في العمر فلقد ذكرني بأول لقاء لنا في محاضرة أقيمت على شرفه بمناسبة زيارته للسودان1979م بقسم الآثار في جامعة الخرطوم.وكان قد إستمع لمحاضرة عن الحفريات الآثارية للجامعة بشمال غرب أمدرمان شاركني فيها إثنان من الزملاء (طلاب ماجستير آنذاك)من الدفعات التاريخية لهذا التخصص بالجامعة الأم وهم :السيد الأنور عبدالماجد(أستاذ سابق بقسم الآثار في جامعة الخرطوم فجامعة بيرجن-النرويج) وأحمد أبوالقاسم الحسن(جامعة حائل بالسعودية).وعندما نشرت المعلومات بعاليه في صفحتي بالفيسبوك أرسل لي الزميل والصديق د.علي بحر الدين علي دينار(خريج قسم الآثار بجامعة الخرطوم 1980وأستاذ حاليا بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة) تعليقا على المحاضرة التي أقامها قسم الآثار بجامعة الخرطوم على شرف وليم آدمز وتضمنت تنويرا عن العمل الآثاري بالقسم ولطلاب الدراسات العليا والمشار الله بعاليه بالقول:

"وأنا أيضاً أتذكر تلك المحاضرة، وتقديم دكتور أحمد الحاكم له في شعبة الآثار، وفي ختام المحاضرة طلب الحاكم من الطلاب المتقدمين في القسم للحديث عن أبحاثهم، وأتذكرك يا خبير حديثكم بإستفاضة (بإيقاعكم السريع بالإنجليزية) عن بحث الماجستير آنذاك، وكان أن ختمت حديثك ب"This just a brief description) أو شيئ من هذا القبيل، مما أدي لضحك من الحضور".

**المراجع :

أدمز وليم2010 .النوبة : رواق افريقيا،القاهرة .

*Adams.Y.W.1977Nubia:Corridor to Africa. Penguin Books. London

*Adams. Y.W.1986 Ceramic Industries of MedievalNubia.2vols.Kentucky.U.S.A

- **ديفيد بيكوك D.Peacock**

السيرة الذاتية للبروفيسور الممتاز Professor Emeritus ديفيد بيكوك (1939–2015 م) ثرية ولاتحتويها السطور أدناه:

فهو أحد الكبار من أساتذة قسم الآثار بجامعة ساوثامبتون Southampton في المملكة المتحدة.ونشير بأنه أحد أبرز ثلاثة علماء في العالم في تخصص علم السيراميك الآثاري المستند إلى التحليلات.الجيولوجية والبيئية Archaeological Ceramics(الآخران هما الأمريكيان : أنا شبردA.Shepard مؤلفة كتاب : Ceramics for the Archaeologist1956 وفردريك ماتسون F. Matson صاحب مؤلف Ceramics and Man1965 .وأحسب نفسي موفقا أن أشرف على بحثي للدكتوراه في"فخار عصر ماقبل التاريخ في أواسط السودان " (1991–1995م).

ولد ديفيد بيكوك في مدينة "بيتربروف Peterborough" بشرق إنجلترا .تلقى تعليمه حتى المرحلة الثانوية بمدرسة ستامفوردStamford .وحاز على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف الأولى فالدكتوراه متخصصا في الجيولوجيا من جامعة سينت–اندروس.Saint Andrews باسكتلندا.

وعمل زميل أبحاث في قسم الآثار بجامعة بيرمنجهام (1965–1968م) ومن ثم إنتقل الى جامعة ساوثامبتون التي عمل بها إلى أن تقاعد بالمعاش في العام2004.وشغل وظيفة رئيس قسم الآثار(1998–2003) فعميدا بالإنابة لكلية الآداب(2000–2001م).

وعمل مع الأمم المتحدة (اليونسكو UNESCO) في تنقيبات قرطاج Carthage بتونس. ومن ثم ذاد إهتمامه بدراسة الآثار الكلاسيكية(الرومانية) وبخاصة السيراميك .وأصدر كتابه المعنون:الفخار في العالم الروماني:المنهج الإثنوآركيولوجي

Pottery in the Roman World-:An Ethnoarchaelogical Approach (1982م)

والأنفرا والإقتصاد الروماني : مع ديفيد وليم (1986م)

Amphorae and the Roman Economy:An introductory Guide(with David Williams (1986م).

ووجه بيكوك إهتمامه لاحقا بصورة خاصة للآثار الرومانية في مصر.وقام بتنقيب موقعين من أهم المواقع الرومانية بمصر هما:مونز كلادونيس 1993-1989 (Monslaudianus) ومونز بورفيرايت-1998-1994)Mons Porphrite .وأثبتت أبحاثه أن قصر القديم Q-AlQadim هي أقدم الموانئ المصرية الرئيسية للتجارة عبر البحر الاحمر مع شبه الجزيرة العربية والهند.

و نسبة للنجاحات الكبيرة التي حققها بيكوك في أعماله الآثارية، فقد حصل العام 2011م على ميدالية كنيون (Kenyon) للتميز العلمي من الأكاديمية البريطانية كما حاز على ميدالية "بومرانس Pommerance"من المعهد الامريكي للآثار.

تعرفت على ديفيد بيكوك عن كثب في العام 1990م عندما تسجلت للدكتوراه بجامعة ساوثامبتون. وبدأ لي من الوهلة الأولى أنه عالم متواضع إذ إستقبلني ببشاشة وأريحية وقدم لي التهنئة بقبولي بالجامعة التي تعتبر واحدة من أبرز الجامعات البريطانية في تخصصات الآثار والجيولوجيا وعلوم الطيران والبحار والمحيطات.ويضم قسم الآثار علماء كبار من أمثال بيتر أكو P.Ucko(عميد الكلية وأستاذ سابق بمعهد الآثار بجامعة لندن) وزامل أنتوني آركلA.Arkell مؤسس دراسات ماقبل التاريخ في السودان منذ الأربعينات والخمسينات الماضية ولهما أعمال مشتركة عن تطور حضارات ماقبل الأسرات في مصر الفرعونية .كما إنضم للقسم وقتها العلامة كولن رينفرو C.Renfrew(أستاذ سابق بجامعة كمبردج) الذي عرف بمساهماته القيمة في علم الآثار النظري (Theoretical Archaeology) .

ويعرف ديفيد بيكوك بأنه منظم ودقيق في عمله .وغرس في تلاميذه الكثر حب المعرفة والإلتزام الصارم بالمنهج العلمي .ويلحظ أنه يميل في أبحاثه إلى منهج"تداخل المساقات Interdisciplinary Approach مع الإرتكاز إلى النموذج الفكري(Paradigm) والمثال الإرشادي (Model) في صياغة إشكاليات البحث(Problematique) بصورة موضوعية بغية إستخلاص أكبر قدر من المعلومات من المادة الأثرية قيد الدراسة .ولعل من أهم وصاياه لتلاميذه ضرورة إجراء الدراسات المعمقة في مشاريعهم البحثية ودعمها بالتطبيقات العملية.كما

نوه إلى عدم التسرع في إصدار الأحكام قبل التثبت من الأدلة الترجيحية التي تمثل ثمرة النتاج البحثي الذي يقدم إضافة نوعية للمعرفة الإنسانية .

ووصفه زملاؤه في جامعة ساوثامبتون في نعي له نصاوحرفا :

David was a brilliant and influential scholar who inspired a generation of " .archaeologists across the World

"إن ديفيد باحث ألمعي ذو تأثير علمي ملهم لجيل من الآثاريين حول العالم ".نسال الله أن يجعل أعماله ذات مردود إيجابي في مجال الآثار ودراسات الحضارات القديمة خدمة للعلم والإنسانية".

- **غانم وحيدة.**

من علماء الآثار الذين تركوا أثرا إيجابيا في مسيرتي الأكاديمية الآثاري المتميز الأستاذ الدكتور غانم وحيدة (بريطاني الجنسية وعراقي الأصل) زميل الأبحاث (Research Fellow) بمعهد ماكدونالد للأبحاث الآثاريةبجامعة كمبردج(بريطانيا).

تخرج غانم وحيدة من قسم الآثار بجامعة بغداد وحصل لاحقا على الدكتوراه في دراسات ماقبل التاريخ (مواقع العصر الحجري القديم بجبال زاقروس بشمال العراق).عمل باحثا بهيئة الآثار العراقية(1964-1969م) ثم بادارة آثار إمارة ابوظبي (2006م) كما عمل أستاذا بجامعات الخرطوم (1977-1979م)،جامعة الملك سعود بالرياض(1979-1985م) فجامعة الكويت (1986-1990م).

لغانم وحيدة سيرة علمية غنية لايحتويها هذا الحيز سواء في التدريس أو الأبحاث العلمية النظرية والتطبيقية .فلقد إشترك وحيدة باحثا ورئيسا للعديد من المسوحات والحفريات الآثارية داخل العراق وخارجه .وشارك في حفريات تل الرماح ،تل الصوان ،زارذي وسامراء وجبال زاقروس في العراق .(1964-1969م).

وأجرى بحوثا إثنوآركيولوجية بمنطقة كبويتا بجنوب السودان في السبعينات المنصرمة كما قام بمسح إستطلاعي(بالإشتراك مع د.بول كالو من جامعة كامبردج) بإقليم البحر الأحمر جنوب ميناء بورتسودان .وشمل نشاطه الآثاري بالمملكة العربية السعودية حفريات بموقع صفاقة(الدوادمي) يرجع للعصر الحجري القديم الأسفل (أشولية).وشارك في تنقيبات موقع "الفاو" بجنوب غرب الرياض بحوالي 700كم (ستة مواسم) كما عمل في تنقيبات موقع الربذة الإسلامي قرب المدينة المنورة(ثلاثة مواسم) (1979-1985م).

لغانم وحيدة بحوث عديدة منشورة في دوريات علمية محكمة في البلاد العربية،أروبا وكندا(مجلة Nyame Akuma، Proceeding of the Prehistoric Society and Resume de communication) والعالم العربي (أطلال السعودية وسومر العراقية وغيرها) .

تعرفت على الفقيد في السنة النهاية لدراستي للبكالريوس (1977م) وإبان دراستي للماجستير بجامعة الخرطوم(1979-1981م) الماضية .وتوطدت علاقتنا العلمية والإجتماعية منذ ذلك الحين .وتشاركنا بعمل علمي وهو دراسة فخار موقع أركويت الأثري بشرق السودان (العصر الحجري الحديث) ونشرنا معا تقريرا علميا مفصلا عنه في مجلة "السودان والنوبةSudan&Nubia no7,2003:62-69 التي يصدرها المتحف البريطاني بلندن. .وأذكر فضله إذ قام بتزكية طلبي للعمل بجامعة الملك سعود بالرياض (قسم الآثار والمتاحف) في الثمانينات المنصرمة وتزاملنا لثلاث سنوات وعملنا معا في تنقيبات موقع "قرية الفاو:صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية" بجنوب المملكة.

تواصلنا في التسعينات عند حضوري لكمبردج لجمع مادة علمية لأطروحتي للدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة ساوثامبتون بجنوب انجلترا 1995م وأذكر زيارته لي في كمبردج بمقر إقامتي بشقة بشارع Trumbinbgton على مقربة من متحف فتزوليم Fitzwilliam Museum.ودعاني لاحقا لمأدبة عشاء مع أسرته الكريمة حيث تبادلنا شريط ذكريات جميلة عن أيام جامعة الخرطوم وجامعة الملك سعود بالرياض تشاركنا الحكي زوجته الفاضلة الزميلة الدكتورة شادية صلاح عبدالرحمن علي طه. ولم تنقطع الصلة بيننا رغم تباعد التلاقي إلى أن نعى الناعي رحيل عزيزنا المفاجئ أول فبراير 2018م بدولة الإمارات العربية المتحدة .

ألا رحم الله غانم وحيدة العالم الخلوق والمتواضع وجعل الجنة مثواه.تعازينا الحارة لأسرته الكريمة بكمبردج ولذويه ومعارفه وطلابه .إنا لله وإنا إليه راجعون.

- **عبدالرحمن الأنصاري**

ومن علماء الآثار الذين عملت معهم وكانوا إضافة نوعية لتجربتي الأكاديمية الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري رائد تخصص الآثار في المملكة العربية السعودية والخليج العربي.

تقول السيرة الذاتية لهذا العالم الجليل إنه ولد في المدينة المنورة في عام 1935 ميلادية ، حيث حصل على الشهادة الإبتدائية و الشهادة الثانوية فيها ، و هو أستاذ الآثار السابق بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية ، و هو الذي أعاد إكتشاف الموقع الأثري المشهور ب"قرية الفاو" جنوب الجزيرة العربية و أشرف على أعمال التنقيب فيه لأكثر من عقدين . ومن الجدير بالذكر أنه تم إختيار البروفيسور الأنصاري ليكون عضوا في مجلس الشورى السعودي في دورتيه الأولى و الثانية .

حصل البروفيسور الأنصاري على شهادة الليسانس في اللغة العربية و الأدب من جامعة القاهرة عام 1960 ميلاديا ، ثم إبتعث إلى المملكة المتحدة و حصل منها على شهادة دكتوراة في الفلسفة من قسم الدراسات السامية بجامعة ليدز عام 1966 ميلاديا ، و قد عكف خلال مرحلة الدكتوراه على دراسة مقارنة لأسماء الأعلام اللحيانية و تدرب على أعمال التنقيب الآثاري مع المشرف على رسالته في جامعة درهام Durham و في موتيا بصقلية ، كما قام بأعمال التنقيب في القدس عام 1966 ميلاديا مع البروفيسورة كاثلين كينيون .

إنجازات البروفيسور الأنصاري:

– عمل البروفيسور الأنصاري عضوا في هيئة التدريس بجامعة الملك سعود (المعروفة بجامعة الرياض سابقا) منذ العام 1966 ميلاديا وحتى العام 1999 ميلاديا

وقد تقلد خلال تلك الفترة عدة مناصب ومهام .

– عمل عميدا لكلية الآداب في الفترة من 1971 ميلاديا و حتى 1972 ميلاديا .

– كما عمل رئيسا لقسم التاريخ من 1974 ميلاديا و حتى 1978 ميلاديا .

– رئيسا لقسم الآثار و المتاحف من 1978 م و حتى 1986 م .

– في العام 1996 م ، تم إختيار البروفيسور الأنصاري عضوا في مجلس الشورى السعودي منذ دورته الأولى ، و خدم فيه على مدى الدورتين الأوليين .

يعد البروفيسور الأنصاري من أهم رواد العمل الأكاديمي في المملكة العربية السعودية ، فقد أسس لدراسة علم الآثار فيها من خلال أخذه زمام المبادرة بإنشاء تخصص الآثار ضمن قسم التاريخ بجامعة الملك سعود ، ثم بإنشائه قسم الآثار و المتاحف بالجامعة ذاتها في العام 1978 م ، و هو القسم الأكاديمي الأول من نوعه في المملكة العربية السعودية .

و لعل العمل الأهم الذي عرف به البروفيسور الأنصاري هو قيادته لأعمال التنقيب الآثاري في "قرية الفاو" (التي تقع جنوب الجزيرة العربية) منذ العام 1972 م و حتى 1995 م حينما كان يعمل في جامعة الملك سعود .

ألف كتابا عنوانه (قرية الفاو : صورة للحضارة العربية قبل الإسلام) ، حيث إستعرض فيه نتائج المواسم الستة الأولى من التنقيب الأثري في ذلك الموقع الأثري الهام .

ومنذ عام 2000 ميلاديا ترأس الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري هيئة تحرير مجلة "أدوماتو" المتخصصة في مجال الدراسات و البحوث الآثارية في المملكة العربية السعودية والعالم العربي ، و هي تنشر أبحاثها باللغتين العربية و الإنجليزية ، و يقرأها المتخصصون والمهتمون بالآثار في مختلف دول العالم ، و لديها قائمة مشتركين دائمين من مختلف الجامعات و المراكز البحثية المتخصصة ، و كذلك من أساتذة الآثار و المختصين بعلم الآثار من مختلف دول العالم ، و تصدر المجلة عددين سنويا في شهري يناير ويوليو ، و الناشر هو (مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية) و للمجلة هيئة تحرير وهيئة إستشارية للتحرير.تضم في عضويتها عدد من أساتذة و علماء الآثار من مختلف دول العالم ، و موقعها على شبكة الإنترنت www.adumatu.org.

نال العديد.من الجوائز والأوسمة تشمل :

–وسام الإستحقاق من الدرجة الأولى من المملكة العربية السعودية لعام 1982 ميلاديا .

– جائزة مؤسسة التقدم العلمي الكويتية، الكويت لعام 1984ميلاديا .

– وشاح الثقافة و الفنون من وزارة الثقافة بالجمهورية اليمنية 1419هجريا و الموافق لعام 1998 ميلاديا .

– درع الآثاريين العرب في القاهرة لعام 2001 ميلاديا .

– ميدالية 22 مايو الذهبية من رئيس الجمهورية اليمنية لعام 2004 ميلاديا .

– جائزة الأمير سلمان للريادة في تاريخ الجزيرة العربية ، إدارة الملك عبدالعزيز 2005 ميلادياً .

– درع شوامخ المؤرخين العرب ، إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة 2007 ميلاديا.

كنت شخصيا محظوظا أن قيض الله لي التعرف عن كثب على هذه القامة العلمية السامقة. وعملت محاضرا بجامعة الملك سعود في عهده الميمون في الثمانينات والتسعينات الماضية وشاركت معه في العمل الآثاري الميداني في موقع "الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية" لمدة 16عاما متوالية كان فيها البروفيسور الأنصاري نعم الآثاري والإنسان عدالة في إتخاذ القرارات وأريحية في التعامل وحب عميق لكل الفريق العلمي الذي زاملة وتقدير كبير للبلدان العربية .وكان يقول لنا" أنه نجح فيما كان يصبو إليه " وهو إقامة وحدة عربية عجزت عنها السياسة ونجح فيها الأنصاري بتشكيل أول فريق آثاري عربي من كافة التخصصات منذ عام 1978م بموقع "الفاو" لآثار ماقبل الإسلام وكان الفريق العلمي الثاني بعد ذلك وهو "البعثة العربية المشتركة بموقع سار الجسر بالبحرين" برئاسة البروفيسور(الأردني) معاوية إبراهيم.و كما نرى فللأنصاري قصب السبق في توحيد العلماء العرب في مجال الآثار.وتبع ذلك إنشاء جمعية الآثاريين العرب التي مقرها القاهرة ولكن فكرتها جاءت من قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود.أطال الله تعالى عمر الأنصارى فهو جدير بكل تكريم ومكانة رفيعة.

- **فكرى حسن**

سعدت أيما سعادة بمعرفة عالم الجيولوجيا والآثار المصري فكرى حسن الأستاذ الممتاز Emeritus Professor بمعهد الآثار بجامعة لندن (أكبر مركز لدراسة الآثار في العالم) عـن كتب حيث كـان يشغل كرسي الأستاذية بجامعة لندن المسماه Petrie Professor of Archaeology(1994–2008 م) ومستشاراً لوزارة الثقافة المصرية (1988–1990م).

تخرج فكرى حسن من جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية بمرتبة الشرف في الجيولوجيا (1963م) ثم حصل على الماجستير من نفس الجامعة (1966م) وعلى درجتى الماجستير(1971م) والدكتوراه في الجيولوجيا الآثارية Geoarchaeology من جامعة ميثودست الجنوبية (تكساس) بالولايات المتحدة الأمريكية (1973م) .

أجـرى بحـــوث آثارية عـديدة في جمهورية مصر العربية وخارجها مستخدماً المنهج "الجيولوجي– الآثاري" وهو ذات المنهج الذي تبنيته في دراستي للماجستير بجامعة الخرطوم (1982م) والدكتوراه بجامعة ساوثامبتون ببريطانيا (1996م). في دراساتى لخزفيات ما قبل التاريخ (العصر النيوليثي) في أواسط السودان .

للبروفسيور فكرى حسن ما يزيد عــن (200) مـقال منشورة في أوعية علمية مختلفة ذات معامـل تأثير عـــالٍ High Impact Factor والعديد مـــن الكتب ولايزال كتابــة القيّم Prehistoric Demography(السكان في عصر ما قبل التاريخ) الذى صدر في السبعينات الماضية عالقاً بذهني.

كنت محظوظاً أن إلتقيته لأول مرة بالرياض (المملكة العربية السعودية) حيث جاء أستاذاً زائراً بقسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود عام 2000م قدمني إليه البروفسيور العباس سيد أحمد بإعتباري باحثاً ناشئاً حصلت حينها على الدكتوراه في دراسات ما قبل التاريخ بعُيد سنوات قليلة . قابلني الأستاذ فكري هاشاً باشاً وبتواضع العلماء . وتجاذبت معه أطراف الحديث بمكتب البروفسيور العباس في مواضيع آثارية عديدة لما يقارب الساعة من الزمان. ونوهت له بمنشوراتى

العلمية في مجلات عالمية ، فضلاً عن ترجمتي لكتابين عن عصور ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية ودولة قطر. طلب مني أن أمده بنسخ من كتاباتى العلمية وإفترقنا على أمل اللقاء في وقت آخر لمواصلة الحديث عن الآثار السودانية والمصرية وظاهرة نشوء الدول في العالم القديم. غير أنني تفاجأت حين أرسل لى من لندن خطاباً يطلب فيه مني أن أجري تقييما لمقال علمي أرسله صاحبه للنشر في مجلة African Archaeological Review التي تصدر من معهد الآثار بجامعة لندن وكان يرأس تحريرها وقتذاك. حقيقة تهيبت الأمر سيما وأنني باحث ناشيئ حصلت للتو على درجة الدكتوراه . وبعد شد وجذب مع النفس اللوامة قمت بتقييم البحث إستناداً إلى المعايير العلمية المتعارف عليها. وحرصت على أن أكتب الرد بلغة إنجليزية رفيعة المستوي اللغوي والأدبي. فكل أبناء جيلي من السودانيين يجيدون الإنجليزية تحدثاً وكتابة منذ المرحلة الوسطى والثانوية . بيد أن الكتابة بالإنجليزية لمجلة عالمية مرموقة مثل مجلة African Archaeological Review تتطلب أناة وتروي . وتوكلت على الحي الدائم وأرسلت ورقة التقييم لجامعة لندن . وبعد فترة قصيرة جاءني الرد بإشادة معهد الآثار بجامعة لندن بالتعليقات المستندة إلى معايير علمية صارمة تلك التى كتبتها تقييماً للورقة العلمية التي ستنشر في مجلة المعهد مما ذادني حبورا وثقة كبيرة بالنفس وحينها عرفت لماذا طلب مني بروفسيور فكرى حسن عند مقابلتنا بمكتب بروفسيور العباس سيد أحمد أن أرفده بنماذج لكتاباتى وبخاصة للمجلات الغربية. أقول هكذا يتعامل العلماء ويأخذون بأيدي ناشئه الباحثين ويدعمونهم معنوياً حتى المرتقى إلى آفاق أرحب في دنيا العلم والمعرفة . إنها ذكري لا تنسى غيرت مسار حياتى العلمية . والله المستعان.

الفصل الثاني

الإبداع الثقافي

الجمال من منظور الفن والعلم[1]

من منا لا ينشد الجمال سواء أكان فى الماء أو الخضرة أو الوجه الحسن أو في مظاهر الطبيعة والآداب والفنون . ومن المعلوم، أن للإنسان احتياجات عقلية وفكرية وأشواق نفسية وعاطفية لا تقل أهمية عن إحتياجه للغذاء والدواء والكساء والسكن. ولو تحققت كل آمالنا في القضاء على الثالوث الخطير (الفقر والجهل والمرض) فإن ذلك وحده لا يحقق السعادة التي يتوق إليها البشر.فللناس أشواق فكرية وروحية لا بد من تحقيقها لاستكمال الرضا النفسي الذي يمثل ذروة السعادة الإنسانية إذ " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.". ولعل هذا السبب هو الذي دفع الجماعات البشرية منذ فجر التاريخ لتدبر بديع صنع الخالق في هذا الكون الفسيح (إنسان وحيوان ونبات وجماد ومجرات وأفلاك وكواكب ونجوم) . فعشق الإنسان هذا الجمال المنتشر في الطبيعة على جميع المستويات. وأدى ذلك لإيمانه بعقل أزلي الوجود مدبر لشئون هذا الكون.

وتأسيساً على ما سبق، فإن الجمال يشير بجلاء إلى أحد الأسرار الكبيرة المبثوثة في حنايا هذا الكون اللامحدود ، إذ يعمل دوماً على تشكيل متجانس (قيمي وروحي) يعتبر من أهم مقومات الوحدة النفسية. وإذا كان هذا هو الحال، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف ينظر أهل الفن والعلم للجمال وما هي مقاييسهم المعتمدة لماهيته؟.

لعل من نافل القول أن أهل المعرفة قديماً كانوا يضعون فروقاً جوهرية بين العلم والفن. فالعلم غايته الحقيقة وأداته العقل ووسيلته المحاكمة والاستقراء والتجربة بينما الفن غايته الجمال وأداته الشعور ووسيلته الذوق. بيد أن الدراسات الحديثة أبانت خطل هذا النظرة الأحادية وأوضحت أن ثمة مشتركاً بينهما يتمثل في نشدان الجمال.

. وهام أدباؤنا وشعراؤنا منذ أزمان بعيدة بالجمال بل عدوه أحد الحاجيات الأساسية للحياة إذ يلبي الأشواق النفسية والعاطفية للإنسان. وفى هذا السياق يقول شاعر الحكمة إيليا أبو ماضي:-

والذي نفسه بغير جمالٍ *** لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد (1315) بتاريخ 2011/10/12م .

فالجمال كما إرتاه الشاعر هنا مركوز في حنايا النفس الإنسانية السوية، في حين أن النفس المريضة التي تخلو من هذا الإحساس النبيل لا تستطيع البتة استيعاب إبداعات الخلق الإلهي الدقيق في هذا الوجود. وبرغم تباين الموضوعات التي طرقها الأدباء والفنانون في تجسيدهم للجمال الطبيعي، إلا أن الوجه الإنساني كان ولا يزال أحد أهم مواضع الحسن والجمال على مر العصور. وها هو أحد شعرائنا القدامى يحدد منظوره للجمال عبر مدح الوجه الحسن للمحبوبة إذ يقول:-

أقيمي مكان البدرِ إن أفل البدرُ *** وقُومي مقام الشمسِ قُداُمها الفجرُ

ففيك مِن الشمسِ المُنيرةِ نُورُها *** وليس لها منك التبّسمُ والثغرُ

واعتبر علماء الطبيعة الجمال وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية. فالعالم جيمس داتسون في مؤلفه " اللولب المزدوج " يرى أن الجمال هدى إلى اكتشاف التركيب الجزئي لـ " د ن أ – DNA ". والفيزيائي ريتشارد فينمان يرى أن " المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها " والعلاّمة هايزنبيرج يعلن بأن " الجمال في العلوم الدقيقة وفى الفنون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الاستنارة والوضوح ".

ولا ريب أن الطبيعة زاخرة بالجمال، ففي عالم الجمال تظهر الجيودات –تجويفات صخرية مبطنة بمادة معدنية متبلرة – (Geodes) والبلورات جمالاً في التنسيق واللون والإشراق. ويلحظ الجمال أيضاً في الندف الثلجية ذات الأشكال المتعددة وفى زبد البحر وأقواس قزح وغروب الشمس وفى عوالم الحيوانات والنباتات وفى غير ذلك . واستنتج العلماء بأن كوناً يفيض بمثال هذه الجماليات لا بد أن الآلية التي تحركه ذات قوانين طبيعية متماثلة عالية التعقيد تولدت عن ضرورة لا نستطيع أن نقدم لها تفسيراً سوى أنها من لدن خالق عظيم الشأن.

وتوصل علماء الطبيعة إلى معرفة العناصر المحددة للجمال. ويلخص عالم النسبية الشهير البرت إينشتاين هذه العناصر الثلاثة بعبارة واحدة فيقول: " النظرية أدعى إلى إثارة الإعجاب كلما كانت مقدماتها أبسط والأشياء التي تربط بينها أشد اختلافا، وصلاحيتها للتطبيق أوسع نطاقا. " فالبساطة كما نرى هي العنصر الأول للجمال في النظرية العلمية. ويقصد بعبارة

"الأشياء التي تربط بينها أشد اختلافا " الطريقة التي تنسق بها النظرية بين أمور متباينة. أما أتساع نطاق تطبيقها فيومئ إلى روعتها.

ويراد بمبدأ البساطة (Simplicity) شيئان–الكمال والإقتصاد. أي أن تشتمل النظرة الجميلة على كل ما هو ضروري دونما تفريط أو إفراط. وعنصر التناسق (Consistency) يقصد به انسجام الأجزاء مع بعضها البعض ومع الكل، فيدل ذلك التناسق ضمناً على التماثل. أما الروعة(Splendor) فللنظرية التي تتسم بهذه الصفة وضوح شديد في ذاتها وهى تلقى ضوءاً على الكثير من الأشياء الأخرى موجبة بإجراء تجارب جديدة.

وتنطبق محددات الجمال للعلوم على الفنون أيضاً. فالرسام الهولندي العالمي قان جوخ يثني على بساطة التشكيليين اليابانيين ويصف لوحاتهم الفنية بأنها منفذة ببساطة رائعة لافتة للنظر. وفى الموسيقا يعتبر الاختصاصيون أن وضوح الصوت عنصر من عناصر جماله و"إن الجرس في الموسيقى هو نظير الضوء في لوحة الرسم ". وتجدر الإشارة هنا إلى أن الملحنين منذ القرن التاسع عشر استخدموا اللون النغمي لإنتاج تآلف موسيقى يشابه تآلف الألوان الملاحظة في الرسوم الإنطباعية.

مجمل القول، إن الجمال ذلك الإكسير الغامض والسحر الأخاذ الذي يأخذ بالألباب كامن في شتى جوانب الكون ومناحي الحياة. فالبساطة والتناسق والتماثل والتناسب والتألق والوضوح–وهى عناصر مبثوثة في الطبيعة وفى أجمل النظريات العلمية – لها نظائر موازية في الجمال الذي نجده في الآداب (الشعر والقصة والرواية والمسرحية) والفنون (النحت والرسم والموسيقا والرقص ....الخ). وكما يشير كل من روبرت غروس وجورج ستانسيو في مؤلفهما الموسوم بـ " العلم في منظوره الجديد " فإن النظرة العلمية الجديدة تبين أن عناصر الجمال غير المرئي والذهني في الطبيعة (الفيزياء) تماثل عناصر الجمال المرئي والمسموع في الفنون الجميلة وأن العالم والفنان في النظرة الجديدة ينشدان الهدف الجمالي نفسه عبر زوايا متباينة.

الشعر وصياغة الشخصية الإنسانية[1]

تمر علينا هذه الأيام الذكرى السنوية لليوم العالمي للشعر الذي سمته منظمة"اليونيسكو" ويصادف الحادي والعشرين من شهر مارس .وإحتفاءً بهذه الذكرى نورد أدناه ماتختزنه الذاكرة وماتورده بعض الأدبيات عن الشعر ودوره في صياغة الحياة الإنسانية سواء في الجانب النفسي أو المعرفي أو الأخلاقي,فماذا عن كل ذلك ؟.

الشعر هذه المفردة الجذابة التى تختزن في احشائها لغة سحرية تأخذ بالألباب وتسمو بالنفس الإنسانية إلى آفاق رحيبة أو على حد تعيير الشاعر اليمنى عبد العزيز المقالح "إنه ملاذ الروح ". فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا، ماكنه هذا التعبير القولي وما مدى تأثيره على المتلقي؟ .نلحظ أن الكثيرين – ومن مواقف متباينة – يتحدثون عن الشعر دونما إتفاق على تعريف عام له. ويبدو أن العناصر المكونة للشعر هى التى جعلت له تعريفات عديدة. فهناك من يعرّفه بإعتبار الموسيقى والمعنى كقدامة بن جعفر القائل " الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذى يدل على معنى ". ويرى نفر آخر أنه " الأسلوب والخيال " كـ رسكن الذى يقول نصاً وحرفاً " الشعر عرض للبواعث النبيلة للعواطف بواسطة الخيال ". وفى ذات المعنى يقول الشاعر المصرى أحمد عبد المعطى حجازى " إن الشعر حدس ونبوءة وخيال وإكتشاف وإعتراف، معرفة شاملة نعيشها بكل ملكاتنا وحواسنا ومشاعرنا، ونتعلم فيها ونتصل بالطبيعة وبالآخرين ونطرب وننتشي ". ويزعم الشاعر وردز – وورث أن الشعر " هو الحقيقة التى تصل إلى القلب رائعة بواسطة العاطفة ". أما الشاعر نزار قبانى فينظر إلى الشعر بإعتباره عملية صدامية أو عملية استشهاد على الورق – حسب تعبيره. ووظيفة الشعر فى تقديره هى العمل على تحريض الإنسان على نفسه، إذ لا يوجد شعر حقيقى – كما يرى – دون تحريض. ويخلص قبانى إلى أن أهم إنجازات الشعر الحديث إنه حوّل القصيدة العربية من قصيدة مسطحة تعتمد من الناحية الفنية على التوازي واالتناظر في تركيبها إلى قصيدة ذات أبعاد ثلاثة(مجلة العربي الكويتية,العدد 364 مارس 1989م).وكاتب هذه السطور على رأى مؤداه أن ثمة أبعاد ثلاثة معنوية هامة لا بد من التوقف عندها وهى تتعلق بالمتلقى وصلته بالشعر.وتجدر الإشارة هنا إلى الدراسة الجادة للدكتور عايش الحسن والموسومة

[1]صحيفة "التيا"ر ، العدد (773) بتاريخ 2011/10/12م .

بـ " تلقى الشعر عند حازم القرطاجني".(مجلة إتحاد الجامعات العربية للآداب، العدد الأول 2008م) .

ويعرف الكاتب فى هذه الدراسة أبعاد ثلاثة للشعر(النفسي والمعرفى والأخلاقى) وتأثيرها على المتلقى من خلال رؤية الأديب التونسي حازم القرطاجنى(684–608هـ) . فالبعد السايكلوجى (النفسى) عند حازم القرطاجني ينبع من القوة الخيالية لدى الشاعر إذ تقوم هذه القوة بتحصيل المعانى الذهنية من الأشياء الماثلة فى الواقع، وتكون هذه المعانى مطابقة لصورتها فى الواقع، غير أن هذه المعانى تخرج من إطار القوة إلى الفعل بواسطة أداة هي اللفظ الذى ينقل الصورة إلى المتلقي. وكما هو معلوم، فإن هذا المفهوم مستمد مما قاله الفلاسفة المسلمون حيث أشار إبن سينا إلى أن القوة المتخيلة هى إحدى قوى الإدراك الباطنى ومقرها التجويف الأوسط من الدماغ ."ووظيفتها أن تركب بعض ما فى الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض بحسب الإختيار ". فهى قوة ذات مقدرة على التعرف على الصورة الحاصلة فى الأذهان، ولا تقف هذه القوة عند حدود النقل المباشر بل لها قدرة فكرية تعمل على خلق تركيبات جديدة لا تناقض الواقع. ومن هنا سميت هذه القوة (بالمفكرة بالقياس إلى النفس الإنسانية وبالقياس إلى النفس الحيوانية). وما دام الشاعر يهدف إلى استثارة المتلقى، فإن المتلقى بالتأكيد يتجاوب مع هذه الإثارة، إذ تقوم القوة النزوعية فيه بإستثارة إنفعالات فى نفسه، فتنبسط نفسه عن أمور، ينفعل لها. وعلى هذا الأساس فإن المتلقي يتبع إنفعالاته وتخيلاته أكثر مما يتبع عقله أو علمه.وتساهم هذه العملية في تحديد سلوكه بسطاً أوقبضاً. أما البعد المعرفي للمتلقي : فهو بحسب رؤية حازم القرطاجني نقل المعرفة إلى المتلقى خاصة .وهي معرفة شعرية تشتمل على إدراك ذاتي للمبدع وتباين المعرفة التى تؤديها الفلسفة أو العلم. فالفلسفة تقوم على مقدمة تجريدية صادقة بمثابة مقولات صرفة، غير أن المقدمات الشعرية يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة. فلا يسعى الشاعر إلى نقل معرفة مجردة لا تثير الإنفعالات النفسية كما تسعى الفلسفة والعلم بل يعمل على إيقاع التخيل لدى المتلقي بنقل صور الأشياء إلى ذهن المتلقي فى صورة محسوسة ولكنها جيدة المحاكاة. ولهذا فإن أسوأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب خالياً من الغرابة. فتميز الشعر لا يقاس بوزنه وقافيته إنما بقدرته على تحريك المتلقى وإثارة إنفعالاته. فالشعر ينشأ عبر علاقات جديدة متبادلة تتولد منها إثارات من التعجيب والإستغراب والإستطراف. والقول الشعرى – فى إطار هذا السياق

– ليس نسخاً للواقع أو تصويراً حرفياً له، بل هو حركة جديدة للواقع أو صورة موازية له تجعل المتلقى يعيش عالماً جديداً مبتكراً، فالشعر بإمكانه تقديم معرفة للمتلقى، لكنها معرفة متخيلة وليست مباشرة يمكن أن تترك تأثيرها فى سلوكيات هذا المتلقى.

وفحوى البعد الأخلاقى – حسب رأى القرطاجني – أن العملية الشعرية تعمل على ترك بصماتها فى سلوك المتلقى، وإذا كان المتلقى يبقى متجاذباً بين إتجاهين: مصالح جسمة الفانية ومصالح نفسه الباقية، فإن الشعر الخالد هو الذى يعمل على إيجاد معادلة تجمع بين هذه الإتجاهين المتنافرين وذلك ببث الفضائل الأخلاقية وتصويرها على صوره التخيلية وذلك لتحسينها والحث على فعلها وتصوير الرذائل والشرور بأبشع صور والدعوة إلى نبذها والنأى عنها. وهنا يشكل الإيثار الفضيلة الكبرى فى هذه المسألة. فبالإيثار يستطيع الشعر أن يشكل إنساناً فاضلاً يجمع كل الصفات النبيلة التى تحقق له السعادة المثلى.

خلاصة القول،إن الشعر يساهم بشكل كبير فى صياغة الشخصية الإنسانية عبر أبعاد عديدة إرتاها القرطاجني فى ثلاثة رئيسة (سايكلوجية ومعرفية وأخلاقية). ولا ريب أن الشعر بلغته الساحرة وصوره المجازية وروحه الشفافة لقادر على إيجاد التوازن فى حياة الإنسان بجانبيها البدنى والنفسى طالما سعى لتهذيب النفوس وتثبيت القيم الفاضلة والمثل العليا وتنمية الإحساس بالجمال مستعيناً بأدواته الخاصة التى تثير فى دواخلنا إنفعالات شتى وترتقى بأرواحنا إلى سموات عُلىَ.والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

ركائز الإبداع في الشعر العربي[1]

الشعر ظاهرة تعبيرية في الحياة الإنسانية. وبدأ – كما هو معلوم– بسيطاً بساطة الحياة الإنسانية. وعندما تعقدت الحياة سواء في الشكل أو المضمون ، أصبح الشكل لا يستوعب هذا المضمون الجديد مما إستوجب البحث عن أسلوب تعبيري أكثر رحابة. وللشعر مقومات أساسية تبلوره وتميزه عن غيره من الأشكال اللغوية والأجناس الأدبية. وهذه الأجناس على رأي الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي – وهو محق في ذلك – تتحقق في صور مختلفة وتتغير أماكنها وعلاقاتها ولكنها تظل موجودة تؤدي وظائفها الحيوية في القصيدة.

وكاتب هذه الأسطر على رأي مؤداه أن ثمة أربع ركائز أساسية تمثل الإبداعية الشعرية تشمل الإيقاع الموسيقي، اللغة ، التخيل (الطاقة الداخلية المنتجة للتوهم أو التوقع بكل توابعها البلاغية) والمعنى. وقد صاحبت هذه الركائز الشعرية في مسيرتها الطويلة دون أن تحجب بعض التوابع من التداخل في إنتاج هذه الشعرية. ويلحظ أن كل مرحلة شعرية قد حافظت على هذه الركائز جملةً . وأغلب مغامراتها التجديدية كانت في إعادة ترتيبها حسب رؤيتها الإبداعية. فالشاعر العربي القديم وبرغم تمسكه بمفهوم الشعر "هو الكلام الموزون المقفى الذي يدل على معنى" فقد كان يؤثر التجاوز اللغوي على التجاوز العروضي. أما موسيقى الشعر فقد ظلت محافظة على التقدم في الترتيب مع مرحلة "الإحياء" والتي بلغت ذروتها في مطلع القرن العشرين. (الكلاسيكية المجددة) وقد عبر عن ذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم في تحيته لأمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

الشعر أوزان لو قسته *** لظلمته بالدر في ميزانه

ثم جاءت مرحلة الرومانسية (المجددة) التي عدلت ترتيب هذه الركائز مقدمة الخيال على سواه تبعاً للعقيدة الإبداعية لهذه المدرسة الشعرية والتي عبر عنها خليل مطران في قوله:

---

[1] صحيفة "التيار" ، العدد (657) بتاريخ 2011/6/18م .

إن كان بعض الشعر هذا شأنه *** ما الشعر كل الشعر محض خيال

وقدمت مرحلة شعر "التفعيلة" التي بلغت أوجها في خمسينات وستينات القرن الماضي في العديد من الأقطار العربية وبخاصة العراق ومصر، لتحدث تغييراً مزدوجاً بديلاً عن البحر ، فقدمت اللغة على ما عداها من الركائز. أما المرحلة الحديثة والتي شهدت فيها الساحة الأدبية العربية قصيدة النثر ، فلم يحدث تعديل كما حدث في السابق وإنما حدث إسقاط "الموسيقى العروضية" نهائياً واعتمدت ركيزتين فقط هما اللغة والتخيل.

ويرى نفر من النقاد أن هذا التحول لا يعني أن قصيدة النثر ترفض الإيقاع الموسيقي مطلقاً ، ولكنها تختار ما يناسبها من الإيقاع مشروطاً بأن يكون شديد الالتحام بالبناء التركيبي والدلالي وألا يكون سابقاً ولا لاحقاً له. وعلى هذا الأساس يرى أصحاب قصيدة النثر إنه لا يمكن حصر الإيقاع في النظام العروضي لأنه قد يتنافر مع البناء التركيبي. وربما مع الناتج الدلالي فيؤدي ذلك إلى ترهل النص أو انكماشه. وينجم عن ذلك إهدار جانب من شعريته ولغويته.

وأجد نفسي مائلاً إلى الرأي القائل إن الإبداعية الشعرية تهدف "لتشعير العالم" حيث قدمت من الشعرية إنجازات لافتة في كل مرحلة من مراحلها في القديم والحديث. غير أن قصيدة النثر حادت عن الطريق وآثرت أن تبحث عن المناطق الشعرية في العالم لكي تدخلها في حوزتها لتمارس فيها إبداعيتها. فلم يعد همها – على حد تعبير الناقد المصري محمد عبد المطلب – نقل الواقع وإنما همها "فحص" المناطق الشعرية في الواقع وبلوغها ثم الوقوف عندها. ولا شك أن ثمة فارقاً بين الأمرين: إذ في الحالة الأولى تبدأ الحركة من الإبداع لتصل إلى العالم فتنقله إليها. أما في الحالة الثانية ، فإن الحركة تبدأ من الإبداع – أيضاً – لكي تصل إلى العالم. لكنها تحتبسه في موضعه لتمارس شعريتها في بعض مكوناته الشعرية.

ويرى أنصار قصيدة النثر إنها خطت خطوات أبعد من خطى قصيدة الشعر الحر (التفعيلة) وذلك بتركها العروض الخليلي واستنادها إلى الموسيقى المضمرة التي تتولد من

"التوتر" ، الإيجاز واللاتنظيم ، وهي الخصائص الرئيسية عند الناقدة الفرنسية سوازن برنار لقصيدة النثر. وتلزم الإشارة إلى أن هذه الخطوة الأعمق التي قطعتها قصيدة النثر بصورة أبعد من قصيدة الشعر الحر – يراها البعض السبب الأساسي الذي ابعدها عن قلب المشهد الشعري العربي. والرأي عندي أن هناك نذر يسير من نماذج قصيدة النثر لا يخلو من توتر شعري وموسيقى داخلية– وإن كانت خاصة – تشي بروح الشعر. غير أن كثرة النماذج الرديئة والموسومة بالإغراب والإيغال في النثرية (السرد) والافتقار البيّن للإيقاع والموسيقى يتطلب كل ذلك من المهتمين بالإبداعية الشعرية التواضع على أسس وقواعد صارمة تحكم نتاج هذا اللون التعبيري.

ولا ريب أن أي إبداع شعري لابد له من مرتكزات سواء في اللغة أو الموسيقى أو التخيل أو المعاني. فالحياة المتجددة تفرض باستمرار لغة ورؤى وأخيلة ومعاني جديدة. وفي تقديري أن الساحة الشعرية العربية بإمكانها إفساح المجال للجميع (القصيدة العمودية، قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر). وإن كان هناك ثمة صراع بين هذه الأشكال الشعرية فيؤمل أن يكون صراعاً إيجابياً وليس إقصائياً. فكل محاولات إقصاء الشعر الكلاسيكي (العمودي) والشعر الحر (التفعيلة) قد باءت بالفشل واستمرا رغم حدة الخلاف بين أنصاريهما في فترات سابقة.

ومن الجلي أن إيقاع الحياة المتسارع وما يمور به عالمنا الراهن من تطورات متسارعة وتغييرات عاصفة لا يستطيع أكثر الناس إيغالاً في الخيال التنبؤ بمآلاتها ستفرز دوماً أوضاعاً حداثية تنعكس بالضرورة إيجاباً أو سلباً على الذائقة الفنية شعراً كانت أو نثراً والأيام حبالى بكل ما هو جديد.

قصيدة النثر في المشهد الشعري العربي[1]

أثارت طائفة من النقاد منذ عدة سنوات خلت موضوعاً هاماً وهو حالة المشهد الشعرى العربى زاعمين أن الماضويين من الأدباء ما فتئوا يتمترسون خلف القديم متخذين من الشعر العمودي وشعر التفعيلة أمثلة نموذجية واجبة الاحتذاء ولا يعبأون البته بالجديد. وهو – أي الجديد – فى تقديرهم " قصيدة النثر " التى ينسج على منوالها مجموعة من الشباب والتى يقف " خصوم الحداثة " متاريساً فى وجهها فى تحد سافر للتطور والتغير والتبدل وهو أحد سنن الله فى الكون.

وكما هو معلوم، فإن الشعر ظاهرة تعبيرية في حياة الإنسان. ويتفق أهل الثقافة أنه بدأ بسيطاً بساطة الحياة الإنسانية ثم تعقدت الحياة سواء فى الشكل أو المضمون. وبات الشكل لا يستوعب هذا المضمون الجديد مما استوجب البحث عن أسلوب تعبيرى أكثر رحابة. ويرى بعض النقاد أنه إذا كان المضمون جديداً والشكل موروثاً فإن ذلك يفضي إلى شعر المحاكاة وهو دون شك يقصر عن الإبداع الحق. والشاعر – على رأى الناقد السورى الدكتور نذير العظمة – وهو محق فى ذلك – هو من يستوعب نماذج السلف ولكنه لا يدعها تمارس سلطة الشكل على عمله الإبداعى وإن دخلت كالخمائر فى خبز القصيدة الشعرية وعجينتها كما وأن الشاعر من يعي النماذج الشعرية الإنسانية ولا يقع فريسة لأشكالها وصيغتها المتنوعة.

بمعنى آخر لا بد للشاعر أن تكون له شخصيته الشعرية المتفردة. وثمة إشارة هنا وهى أن القرن التاسع عشر كان يمثل الفترة الكلاسيكية للشعر العربى المعاصر " القصيدة العمودية " ومن أبرز شعرائها عبد الله النديم ومحمود سامى البارودي وأعقبتها الكلاسيكية المجددة فى القرن العشرين (روادها شوقى وحافظ) فحقبة الشعر الحر (شعر التفعيلة) التى بلغت أوجها فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى فى العديد من أقطار العالم العربى وبخاصة فى العراق (بدر شاكر السياب ونازك الملائكة) ومصر (محمود حسن اسماعيل وبديع حقي ولويس عوض) واليمن (على أحمد باكثير). ولم يكن أهل السودان استثناء فلمع بعض الشعراء السودانيين فى سماء الشعر الحر أبرزهم الفيتوري فى "أفريقياته" ومحى الدين فارس فى "الطين والأظافر" وجيلى عبد الرحمن وتاج السر الحسن فى "قصائد من السودان". وكان لوجودهم فى مصر أثر كبير فى

[1] جريدة "الصحافة" ، العدد (5144) بتاريخ 2007/10/19م

تأثرهم بالذائقة الشعرية الحديثة وتبعهم فى ذلك محمد المهدى المجذوب. بيد أن جماعة "الغابة والصحراء" (محمد المكى ابراهيم، محمد عبد الحي، النور عثمان أبكر، على عمر قاسم وعلى عبد القيوم) – فى الستينات كان لهم القِدح المعُلّى فى الإرتقاء بشعر التفعيلة والإستفادة القصوى من مزاياه (حرية وموسيقيّه وتدفقية) بالتركيز على قضية الهوية السودانية بأعتبارها هجنة عربية – أفريقية. وأخيراً ظهرت على الساحة الأدبية العربية " قصيدة النثر"(أبرز روادها أمين الريحانى فى العراق وعبد الله قبرصي فى لبنان).

الحداثة: الشعر العربى نموذجا فى الخمسينات والستينات:

الحداثة لغة تعنى حصول أو ظهور شئ أو مفهوم جديد من شئ أومفهوم قديم أي أنها من هذا المنظور تشير إلى التواصل الخلاق والتطور المستمر. وكاتب هذه السطور على رأى مفاده أن الحداثة اصطلاحاً رؤية متجددة للحياة وموقف من الذات ومن الحضارة ومن الوجود ككل هدفها خلق بني ثقافية – فكرية تلبي متطلبات الحياة الجديدة. فشعر التفلسف الإسلامي حداثة والموشحات الأندلسية حداثة. فالحداثة مفهوم شامل وصيرورة تاريخية متجددة باستمرار ولا تقبل الكلمات النهائية.

إن الحداثة فى الأدب والفن تعنى التجريب المستمر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحداثة الغربية قد اكتمل نضجها بعد الحرب العالمية الأولى(1914 – 1918م) بتعدد مدارسها من سريالية ووجودية ونهلسية(عدمية) وتعبيرية ومستقبلية، فى حين أن الحداثة العربية ذات واقع تاريخى مختلف. ويرى الناقد الدكتور يوسف عز الدين أن الإيغال فى الغموض والتجريب (الإبتعاد عن الأشكال الفنية المتعارف عليها) سمة بارزة من سمات الحداثة الغربية. وإذا ما أخذنا الشعر نموذجاً نجد أن الشاعر الغربى يسيطر عليه إطاره القيمي الإجتماعي بما فيه من رموز وأساطير ومؤثرات إغريقية – رومانية وبيئة مغلقة ملأى بالأشباح والعفاريت ناجمة من جراء العواصف والثلوج والأمطار بعكس البيئة الشرقية العربية التى يعيش فيها الفرد حراً طليقاً فى جو صافٍ مشمش وليل هادئ ونسيم عليل. علاوة على ذلك، فإن الشاعر الغربى يقدم نتاجه الإبداعي إلى مجموعة محدودة من الناس الذين يميلون بطبيعة مجتمعهم إلى العزلة والفردية فى حين أن الشاعر العربى يخاطب مجتمعاً تقليديا وقطاعا كبيرا من الجمهور تتسم العلاقات

الإنسانية بينهم بالتداخل الشديد ، لذا يجب أن تراعى فيها هذه الخصوصيات عند نظم القصيدة العربية .

ولا ريب أن حقبة الخمسينات والستينات من القرن الماضي كانت نقطة تحول فارقة فى الذائقة الشعرية العربية لخصوصيتها الناجمة من أنها كانت منعرجا مهما في تاريخ دول العالم الثالث،فهي مرحلة التحررالوطني والإنعتاق من ربقة الإستعمار.

وبعد أن تحقق الإستقلال السياسي للعديد من الدول العربية طفق الأدباء والشعراء يتلمسون قضية الهوية الثقافية، فكان شعر التفعيلة سمة بارزة لنتاج الشعراء الشباب فى ذلك الزمان، فتفننوا فى إبتداع صور ورؤى وأخيلة تحرراً من قيود القافية وإيفاء بمتطلبات الحياة الجديدة وقتذاك. وبمجيء الثمانينات والتسعينات للقرن الفائت شهدت الساحة الأدبية العربية زخماً شعرياً لافتاً للنظر لعل من أبرز علائمه بروز قصيدة النثر رغم أن هذا النمط التعبيرى أسبق تاريخاً فى بعض الأقطار العربية (العراق ولبنان). ولعل تجربة الناقد المعروف جبرا ابراهيم جبرا فى مجلة "شعر" التى كانت تصدر فى لبنان فى خمسينات القرن الماضى هى التى دفعت بهذا النموذج التعبيري إلى فضاءات الشعر العربى بصورة أكثر رحابة حيث دعت هذه المجلة إلى ضرورة التخلى عن الوزن فى الشعر وتبنت ما يسمى "قصيدة النثر".

ب- قصيدة النثر: التعريف والدلالة:

وكما هو معروف تاريخياً، فإن مجموعة من أدباء لبنان دعت منذ مطلع الخمسينات إلى تسمية النثر شعراً. وأحدثت دعوتها في مجلة "شعر" ضجيجاً فى الأوساط الأدبية العربية. ويرى هؤلاء الأدباء أن الشعر عبارة عن خيال وعاطفة وصور ولا يعتمد بالضرورة على الوزن والقافية التقليديين وأن الكلام يكون شعراً سواء أكان موزوناً أم لم يكن. بل أن النثر لبعض دعاة "قصيدة النثر" – بحسب تعبير الشاعرة العراقية نازك الملائكة – فى مؤلفها "قضايا الشعر المعاصر" يقف في الطريق الأقصى المواجه للتعريف العربى القديم الذى يحدد الشعر بأنه "الكلام الموزون المقفى". ولعل من اللافت للإنتباه إن كلا التعريفين قاصر ناقص. فالتعريف الجديد لدعاة قصيدة النثر يهمل الشكل فى حين أن التعريف القديم لدعاة الشعر الكلاسيكى يهمل المضمون. فكأن هؤلاء المعاصرين – على حد قول نازك الملائكة – أرادوا تصحيح مفهوم غالط قديم فوقعوا في مفهوم

غالط جديد. ولا يخفى على المدقق الحصيف أن غالط التعريف الجديد أشد وأكبر من غالط تعريف أسلافنا الأوائل.

لا مشاحة أن الشعر والنثر نقيضان، فلغة الشعر غير لغة النثر ولكل منهما وظيفة مغايرة للأخرى. فالنثر وظيفته– بتعبير الشاعر المصري أحمد عبد المعطى حجازى – " الإتصال والإخبار والإعلام والإفهام والإقناع، فلغته تقوم على الإتفاق والاصطلاح والوصف والسرد والشرح والمنطق: العلم نثر والخبر نثر، والجدل نثر، والفكر نثر، أما الشعر ففن آخر ". ويعرف الشعر بأنه " حدس ونبوءه وخيال واكتشاف واعتراف، معرفة شاملة نعيشها بكل ملكاتنا وحواسنا ومشاعرنا، ونتعلم فيها، ونتصل بالطبيعة وبالآخرين ونطرب وننتشي " (أحمد عبد المعطى حجازي: قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء، كتاب دبي الثقافية 18–نوفمبر 2008م). ومن هنا كانت لغة النثر اصطلاحاً إجتماعياً وكانت لغة الشعر إبداعاً فردياً أوكما يقول أحد الباحثين، هى لغة الضرورة فى مقابل لغة الشعر التى هى لغة الحرية.

ويرى البعض أن تحرير البيت الموزون من وزنه وكتابته منثوراً على طريقة ناظمى قصيدة النثر يؤدى إلى فقدانه للشعرية (Poeticness). ويوردون مثالاً لذلك بيت أبى الطيب المتنبئ:–

ما كل ما يتمنى المرء يدركه / تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

فيقرأ منثوراً: المرء لا يدرك كل ما يتمناه / والرياح تأتى بما لا تشتهى السفن.

ج– نماذج لقصيدة النثر:–

وهناك أمثلة عديدة لقصيدة النثر ليس هذا مقام بسط القول فيها، غير إننى سأحصر حديثى فى مثالين من المشهد العربى وأثبت هنا ما قاله على الجندى فى قصيدته "التحديق في المجهر اللولبى":

"المح من خلال الماء أعين وحشي له رهبة الجزر الهامدة / واسمع دقات قلبي فى رعدة الماء / أشعر كيف إنسيابى فى الموج يمنحنى خفة النشور".

أما المثال الثانى فهو لحلمي سالم أحد كتاب قصيدة النثر المصرية (صحيفة "الصحافة"، الملف الثقافى، عدد فبراير 7:2007) يقول فى قصيدة بعنوان "الهناء العائلي":–

بينى وبينه زجاج البيجو *** المزارع الذى غرز ساقية فى الطين

ربما مشت زرعة الطماطم *** من حقله بالعياط إلى سوق الخضار بالدقي

فشكلت جزءاً من غذائك وغذائى *** ولعله بسبب ذلك فقد هناءه العائلي.

ولا يخالجني أدنى ظل لشك فى أن القارئ لهذين النموذجين أعلاه لا يشعر بتوتر شعرى أو موسيقى داخلية تشي بروح الشعر. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: أين الهزة والرعشة فى الأبيات المذكورة والتى يحسبها بعض النقاد الحداثيين أنها أبرز السمات الإبداعية لقصيدة النثر. وفى تقديرى أن مثل هذه العبارات المصفوفة لا تعدو عن كونها نثراً يعوزه البناء الفني ليصير شعراً. والرأى عندي أن حدود الإبداع يجب أن لا تحتبس فى القصيدة العمودية أو قصيدة التفعيلة. غير أن " قصيدة النثر " التى يعتقد أصحابها أنها تعتمد على ضغط المعانى والأفكار فى أقل مساحة ممكنة فى ما سمي بالـ " السرد الومضي "، فضلاً عن العبارات الدلالية والإشارية تحتاج إلى عناصر فنية وقوانين إبداعية تحكم نتاجها إذ لا يعقل أن نسمى الخطرفات الرتيبة والإشارات الغائمة والتهويمات العبثية شعراً. ولا شك أن الشعر فن ولا بد للفن أن تحكمه أسس وقواعد وقوانين، كما وأن تطور شعري – كما هو معروف – لا بد له من مرتكزات سواء فى اللغة أو طريقة العرض أو الخصوصية. ولا ريب أن الحياة المتجددة تفرض دوماً لغة جديدة. ولكن متى فقدت هذه اللغة المعنى الجميل والإحساس الفني العميق والموسيقى العذبة فلن تدخل هذه اللغة ضمن لغة الفنون. وإذا ما أخذنا بمقولة أن تاريخ قصيدة النثر هو تاريخ الشعرية (Poeticness) لا الشعر، وإنها ليست شعراً محضاً أو نثراً ولكنها تضع قدماً هنا وقدماً هناك ولا تسعى لـ "شعرية" خالصة (عبد الماجد الحبوب، صحيفة الرأى العام، الملف الثقافى، الأربعاء 18 أكتوبر 10:2006)، فلماذا إذن إصرار الأدباء الشباب ومناصروهم من كتاب قصيدة النثر اعتبارها شعراً وإنها تؤدى إلى إبداع شعرى جديد يتجاوز الحداثة إلى ما سمى " ما بعد الحداثة . ولا بد من التنويه هنا إلى أن رواد الحداثة الشعرية العربية أنفسهم تبرأوا أو تحفظوا على هذا النمط التعبيري الجديد فها هو نزار قباني يقول:

شعراء هذا اليوم جنس ثالث/القول فوضى والكلام ضباب.

يتكلمون مع الفراغ فما هم***عرب إذا نطقوا ولا أعراب.

أما محمود درويش فقد أشار إلى ضيق أفق العديد من شعراء قصيدة النثر الذين – كما يرى درويش – يحصرون الحداثة الشعرية كلها في " قصيدة النثر " فقط وإنهم يتنطعون فى تنظيرهم للشعر والذى يتسم بالأحادية وغلق الأبواب أمام الخيارات الشعرية الأخرى فى الوقت الذي لا يقدمون فيه إبداعاً موازياً لهذا التنظير. ودعا إلى نظرة شاملة تتسع لكل الخيارات الشعرية سواء أكانت موزونة أو منثورة.

د- الخلاصة:-

وبإلقاء نظرة فاحصة للخارطة الشعرية العربية نلحظ أن كل أجناس القصيدة العربية سواء أكانت عمودية أو تفعيلة أو " شعر منثور" تمور بداخلها وإن كانت هناك أعداد متزايدة من الشعراء الشباب بدأت تلجأ إلى قصيدة النثر لأنها سهلة التناول تهتم بالمظاهر السطحية كما وأنهم – أي الشباب – بشكل عام لا يملكون أدوات الإبداع الشعرى من عمق اللغة واتساع القاموس اللفظي، فضلاً عن عدم الإلمام بالأطر الفنية والقواعد الموسيقية والمضمون النغمى للقصيدة العربية. وكان مدعاة ذلك أن ابتعد هؤلاء ليس فقط عن بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي بل عن الأوزان الشعرية والموسيقى الداخلية فاستعصت عليهم التجربة وتمردوا عليها لعدم قدرتهم على استيعابها. وفات على هؤلاء أن شعر التفعيلة الذى ارتقى صوراً ومضامينا وأخيلة فى الستينات لم يستنفذ أغراضه ورؤاه لتستفرد قصيدة النثر بالمشهد الشعرى، فلا تزال هناك بحاراً لم تسبر أغوارها ومفاوز لم يتم إجتيازها بعد في التفعيلة العروضية. وبرغم البروز الواضح لقصيدة النثر منذ التسعينات إلا أن هناك نماذجاً غير قليلة من شعراء الشباب ما انفكت تمتح من معين التفعيلة وفضاءاتها الأبكار. بيد أن الملفت للعيان التراجع المذهل للقصيدة العمودية. ويبدو أن إيقاع الحياة المتسارع وما يحفل به عالمنا الراهن في فواتيح الألفية الثالثة من تطورات وتغييرات عاصفة في شتى جوانب الحياة لا يستطيع أكثر الناس إيغالاً فى الخيال التنبوء بحدودها ومآلاتها، ستفرز دوماً أوضاعاً حداثية تنعكس بالضرورة سلباً أو إيجاباً على الذائقة الفنية شعراً كانت أو نثراً والأيام حبالى بكل ما هو جديد.

التداوي بالشعر: دراسة سودانية أنموذجية[1]

الشعر هذه المفردة الجذابة التي تختزن في أحشائها لغة سحرية تأخذ بالألباب وتسمو بالنفس الإنسانية إلى آفاق رحيبة أو على حد تعبير أحد الأدباء العرب "إنه ملاذ الروح".

ويرى الأديب التونسي حازم القرطاجني (684-608م) أن ثمة أبعاد ثلاثة معنوية لابد من التوقف عندها تتعلق بالمتلقي وصلته بالشعر وتشمل البعد السايكولوجي ونظيره المعرفي فالأخلاقي. وسيقتصر الحديث هنا على الجانب السايكولوجي للشعر وإبراز جدواه في العلاج النفسي. وقد أشار العديد من الفلاسفة منذ عصر أرسطو إلى أن الجانب النفسي في الشعر يرجع للقوة الخيالية لدى الشاعر إذ تقوم هذه القوة بتحصيل المعاني الذهنية من الأشياء الماثلة في الواقع، وتكون هذه المعاني مطابقة لصورتها في الواقع، غير أن هذه المعاني تخرج من إطار القوة إلى الفعل بواسطة أداة هي اللفظ الذي ينقل الصورة إلى المتلقي. وما دام الشاعر يعمل على استثارة المتلقي، فإن المتلقي بالتأكيد يتجاوب مع هذه الإثارة ، إذ تقوم القوة النزوعية فيه بإستثارة إنفعالات في نفسه، فتنبسط نفسه عن أمور ، ينفعل بها. وعلى هذا الأساس فإن المتلقي يتبع إنفعالاته وتخيلاته أكثر مما يتبع عقله أو علمه. وتساهم هذه العملية في تحديد سلوكه بسطاً أو قبضاً.

وكان العرب أول من اكتشف العلاج بالشعر قبل أن يكتشف العلاج بالموسيقى. وقيل أن مجنون ليلى (قيس بن الملوح) أول من تداوى بالشعر فهو القائل:

فما أشرف الإيقاع إلا صبابة *** ولا أنشد الأشعار إلا تداوياً .

وقد إقترح الشاعر المصري المعروف فاروق شوشة ضرورة إستخدام نماذج من القصائد الشعرية في علاج المصابين بالمرض النفسي والعصبي مستمداً الفكرة من كتاب –باللغة الإنجليزية– موسوم بـ "العلاج بالشعر" عمل فيه أكثر من ثلاثين عالماً

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد (2339) بتاريخ 2012/6/20م .

مـن المتخصصـين فـي الأمـراض النفسـية والعصـبية وعلـم الـنفس والإجتمـاع يصـف تجربـة أجريـت فـي معهـد طبـي بنيويـورك. ويبـدأ العـلاج فـي مثـل هـذا الـنمط مـن جلسـات الحـوار بـأن يسـمع الحاضـرون مـن المرضـى أبياتـاً شـعرية تتميـز بلغـة واضـحة وصـور ومعـانٍ يمكـن الإحاطـة بهـا. ومـن ثـم يبـدأ الحضـور بتعقيباتـه، فيـرى أحـدهم – علـى سـبيل المثـال– أن القصـيدة تصـور خفاشـاً فـي الليـل، ويـرى آخـرون أن القصـيدة بمثابـة بسـتان ملـئ بـأنواع شـتى مـن الفاكهـة، وتتحـدث مجموعـة أخـرى عـن سـفينة علـى وشـك الغـرق فـي لجـة البحـر. وتتكـرر الجلسـات الشـعرية والاسـتجابات، فـيلاحظ المعـالج أن هنـاك خيطـاً مـن الصـور يـراه شخصـاً بعينـه، فيبـدأ مـن هـذا الـربط والتحليـل.. فالشـعر هنـا يلعـب دوراً كاشـفاً لسـبر مـا بـداخل اللاشـعور المختـزن بالنسـبة لهـؤلاء المرضـى. ومـن ثـم يـتمكن المعـالج مـن تحديـد نوع التداوي الذي يصلح لعلاج المريض.

وتجـدر الإشـارة هنـا إلـى دراسـة مهمـة قـام بهـا باحـث علـم الـنفس السـوداني الراحـل الـدكتور تـاج السـر حسـن أحمـد عبـد البـاقي كجـزء مكمـل لموضـوع أطروحتـه للـدكتوراه الموسـومة بـ "العـلاج البـديل: بحـث تجريبـي لأثـر الآيـات القرآنيـة والأبيـات الشـعرية والعقـاقير الطبيـة علـى مرضـى الإكتئـاب وقيـاس لإتجاهـات المعـالجين الأكـاديميين نحـو العـلاج بـالقرآن الكـريم" والتـي أجراهـا بجامعـة جوبـا (2007م) تحـت إشـراف البروفيسـور الزبير بشير طه.

وتـم تطبيـق هـذه الدراسـة علـى عينـة مكونـة مـن (18) مريضـاً مـن مركـز العـلاج النفسـي بـالخرطوم ومـن ثـم طبـق علـيهم المقيـاس العـادي للقلـق والإكتئـاب والـذي علـى ضـوئه اسـتبعدت الحـالات التـي أظهـرت نتـائج القيـاس العيـاني عـدم وجـود أعـراض لاضـطراب الإكتئـاب وعـددها (6) مفحوصـين. ومـن ثـم تصـبح العينـة الشـاملة للدراسـة (12) مريضـاً . وأجـرى علـى هـذه المجموعـة أسـلوب العـلاج عـن طريـق الاسـتماع لأبيـات من الشعر.

ووضـع الباحـث فرضـين يـنص أحـدهما علـى الآتـي: (توجـد فـروق دالـة فـي مسـتوى الإكتئـاب بمقيـاس "بيـك" للإكتئـاب ومقيـاس "واكفيلـد" للتقيـيم الـذاتي للإكتئـاب فـي التطبيـق القبلـي والبعـدي فـي مجموعـة العـلاج بالشـعر). ولدراسـة هـذا الفـرض تـم اسـتخدام

إختبار (ت) للمجموعتين المستقلتين لمعرفة الفروق بين التطبيقين . أما الفرض الآخر فنصه : (توجد فروق دالة في مقياس بيك للإكتئاب ومقياس واكفيلد للتقييم الذاتي للإكتئاب وسط مجموعة العلاج بالشعر تبعاً للنوع).وللتحقق من هذا الفرض إستخدم الباحث مقياس مان وتني(Mann-Whitney) للرتب لأن أعداد أفراد العينة هنا يقل عن (10) من المفحوصين ولذلك يفضل إستخدام إختبار وتني.

وأظهرت نتائج البحث لمجموعة العلاج التي طبق عليها برنامج الإستماع لأبيات الشعر(الفرض الأول): أن هناك فروقاً دالة عند مستوى 0.01 بين أداء المكتئبين في التطبيق القبلي وأدائهم في التطبيق البعدي لصالح الأخير.أما نتيجة إختبار مجموعة العلاج بالشعر لمعرفة الفروق في التطبيق البعدي تبعاً للنوع(الفرض الثاني): فقد أبانت أنه لاتوجد فروق دالة بين المجموعتين. ويتضح من نتائج هذه الدراسة التحسن في درجات الإكتئاب بعد التعرض لخبرات البرنامج العلاجي، مما يشير إلى فاعلية برنامج الاستماع للشعر في تخفيف وإزالة حدة الأعراض الإكتئابية. وبذلك فإن الإستماع لأبيات الشعر يمثل خطوة أساسية نحو تحسين الأعراض الإكتئابية. ويلزم التنويه لغياب دراسات مشابهة في البيئة المحلية يمكن مقارنة نتائجها بالنتائج الحالية لهذه الدراسة السودانية الفريدة. وتعكس هذه النتيجة أهمية تقديم أساليب علاجية غير تقليدية. وتتسق ذات النتيجة مع دراسات سابقة خارج السودان من أبرزها الدراسة الرائدة لجاك ليدي (العلاج بالشعر 1971م) رئيس الاتحاد الوطني الأمريكي للعلاج بالشعر والتي تؤكد أن قراءة الشعر تعطي الانتعاش للصحة النفسية للمريض. فالشعر يمكن أن يساعد المرضى الذين هم في حاجة إلى شجاعة أو الذين يشعرون بالضياع والإنسحاق والذين يعانون من الأرق ومن هم في حالة غضب أو إحباط أو يأس أو قلق أو يشعرون بتقدم العمر.

وتجمع نتائج الدراسات السابقة في قوة تأثير الشعر على النفس الإنسانية من خلال الإيقاع (الوزن والقافية). فالكلمات المعبرة بعمق والتي تعمل بدورها على تحرير المشاعر المكبوتة والمكبوحة على نحو التنفيس الذي يحدث في حالة التعبير عن الأفكار الحبيسة. فالإيقاع واللحن في الكلمات يقدم دائرة واسعة ومتكاملة من الألحان

خـلال التركيبـة والتوليفـة المـاهرة مـن الإيقاعـات والـوزن والقافيـة فيحـدث الجنـاس والتجـانس تـأثيره داخـل الـنفس البشـرية. والشـعر يـوفر للفـرد وسـيلة للإفضـاء والتنفـيس العـاطفي ، كمـا يهيـئ لـه إمكانيـة مشـاطرة الغيـر للعواطـف العميقـة فـي نفسـه وهـو الأمـر الـذي يـأتي عـن طريـق تلمـس الفـرد للأبعـاد العميقـة والواسـعة فـي وعيـه. ولله تعـالى فـي خلقـه شـئون وهـو المستعان.

حول الاحتباس الحداثي في الشعر السوداني: الستينات نموذجاً[1]

أثار الشاعر محجوب كبلو في الملحق الثقافي لصحيفة الرأي العام (عدد الأربعاء 13 سبتمبر 2006م) موضوعاً مهما وهو حالة المشهد الشعري السوداني أو ما أسماه "الإحتباس الحداثي: فزاعة الستينات" زاعماً أن هناك حالة من النوستالجيا Nostalgia (الحنين إلى الماضي) تنتاب أهل الثقافة لدينا وهم ما فتئوا –حسب رأي الأستاذ كبلو– يتخذون من عقد الستينات للقرن المنصرم عجلاً ذهبياً ذا خوار شعري ولا يعبأون بالجديد. وهو –أي الجديد– في تقديره قصيدة النثر التي ينسج على منوالها الشباب منذ التسعينات والتي يقف الماضويون متاريساً في وجهها في تحدٍ سافر للتطور والتغير والتبدل وهو أحد سنن الله في هذا الكون.

وكما هو معلوم، فإن الشعر ظاهرة تعبيرية في حياة البشر. ويتفق أهل الثقافة أنه يبدأ بسيطاً بساطة الحياة الإنسانية سواء في الشكل أو المضمون الجديد. ويرى بعض النقاد أنه إذا كان المضمون جديداً والشكل موروثاً فإن ذلك يفضي إلى شعر المحاكاة وهو دون شك يقصر عن الإبداع الحق. والشاعر –على رأي الناقد السوري نذير العظمة– هو من يستوعب نماذج السلف ولكنه لا يدعها تمارس سلطة الشكل على عمله الإبداعي وإن دخلت كالخمائر في خبز القصيدة الشعرية وعجينتها كما وأن الشاعر من يعي النماذج الشعرية الإنسانية ولا يقع فريسة لأشكالها وصيغها المتنوعة. بمعنى آخر لابد للشاعر أن تكون له شخصيته الشعرية المتفردة. وثمة إشارة هنا ، وهي أن القرن التاسع عشر كان يمثل الفترة الكلاسيكية للشعر العربي المعاصر "القصيدة العمودية" ومن أبرز شعرائها عبد الله النديم ومحمود سامي البارودي وأعقبتها الكلاسيكية المجددة في القرن العشرين (روادها شوقي وحافظ) فحقبة الشعر الحر (شعراء المهجر وأبرزهم خليل مطران وإيلياء أبو ماضي وميخائيل نعيمة وغيرهم) وأخيراً قصيدة النثر (أبرز روادها أمين الريحاني في العراق).

أ–الحداثة مفهوماً:

بادئ ذي بدء لابد من تعريف للحداثة، ماهيتها ومدلولها قبل الولوج في مناقشة حالة الحداثة الأدبية في السودان والتي يتهم الأستاذ محجوب كبلو نقادنا بأنهم قد إحتبسوا ذائقتها الشعرية في

[1] صحيفة "الراي العام " ، عدد الاربعاء اول نوفمبر 2006م .

عقد الستينات ولم يحفلوا بإبداعات الجيل الجديد في قصيدة النثر وكأنما الإبداع الشعري السوداني قد تكلس وتجمد ولم يعد يحفل بروح التقدم والتغير. وكاتب هه السطور على رأي مفاده أن الحداثة رؤية متجددة للحياة وموقف من الذات ومن الحضارة ومن الوجود ككل هدفها خلق بني ثقافية–فكرية تلبي متطلبات الحياة الجديدة. فعصر التفلسف الإسلامي حداثة والموشحات الأندلسية حداثة والرأسمالية حداثة والإشتراكية حداثة. فالحداثة مفهوم شامل يتناول جميع جوانب الحياة على الصعيد الفردي والجماعي. فالحداثة بهذا المفهوم صيرورة تاريخية متجددة بإستمرار ولا تقبل الكلمات النهائية. فالرضا عن الذات والتثبت (Fixation) ينافيان الحداثة. والموقف الحداثي هو القادر على إكتشاف ما جمد وتكلس وفقد تفاعله مع الحياة. وهو موقف من الفعل والكلمة له القدرة على التمييز بين المنتهي والمستقبلي. وتحضرني هنا مقولة لأحد النقاد العرب وهي أن للشاعر الجاهلي إمرئ القيس موقفاً حداثياً يتمثل في بيت الشعر الذي صاغه وهو في طريقه إلى بيزنطة لمقابلة ملك الروم بغية إعانته في الأخذ بثأر أبيه الملك القتيل. فبينما كان أمرؤ القيس مسافراً في الصحراء رأى ثعلباً يبول على صنم، فأنشد قائلاً:

أرب يبول الثعلبان برأسه بئس رب بالت عليه الثعالب

ففي هذا المقام أثبت أمرؤ القيس موقفاً حداثياً لا تخطئه العين.

ب– حداثة الشعر العربي والسوداني:

بلغت حركة الشعر الحر (المرسل) أو شعر التفعيلة أوجها في خمسينات وستينات القرن الماضي في العديد من أقطار العالم العربي وبخاصة في العراق (نازك الملائكة وبدر شاكر السياب) ومصر (محمود حسن إسماعيل وبديع حقي ولويس عوض) واليمن (علي أحمد باكثير). ولم يكن أهل السودان إستثناء فلمع بعض الشعراء السودانيين في سماء الشعر الحر أبرزهم محمد مفتاح الفيتوري في "أفريقياته" ومحي الدين فارس في "الطين والأظافر" وجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن في "قصائد من السودان". وكان لوجودهم في مصر أثر كبير في تأثرهم بالذائقة الشعرية الحديثة وتبعهم في ذلك محمد المهدي المجذوب. بيد أن جماعة مدرسة "الغابة والصحراء" (محمد المكي إبراهيم، محمد عبد الحي، النور عثمان أبكر وصلاح أحمد إبراهيم) –في الستينات– كان لهم القِدح المُعلَّى في الإرتقاء بشعر التفعيلة والإستفادة القصوى من

مزاياه (حرية وموسيقية وتدفقية) بالتركيز على قضية الهوية السودانية بإعتبارها هجنة عربية–أفريقية. فها هو محمد المكي إبراهيم يخاطب السودان –الوطن بقوله:

الله يا خلاسية

يا مملؤة الساقين أطفالاً خلاسيين

يا بعض زنجية

وبعض عربية

أو محمد عبد الحي في "العودة إلى سنار" قائلاً:

بدوي أنت؟

– لا

– من بلاد الزنج

– لا

– أنا منكم: تائه عاد يغني بلسان

– ويصلي بلسان.

لاريب أن حقبة الستينات من القرن الماضي كانت نقطة تحول فارقة في الذائقة الشعرية العربية لخصوصيتها الناجمة من أنها كانت منعرجاً هاماً في تاريخ دول العالم الثالث، فهي مرحلة التحرر الوطني والإنعتاق من ربقة المستعمر. ولم يكن السودان بالطبع استثناء؛ فبعد أن تحقق الإستقلال السياسي للوطن طفق الأدباء والشعراء يتلمسون قضية الهوية الوطنية، فكان شعر التفعيلة سمة بارزة لنتاج الشعراء الشباب في ذلك الزمان (الستينات) فتفننوا في إبتداع صور ورؤى وأخيلة تحرراً من قيود القافية وإيفاء بمتطلبات الحياة الجديدة وقتذاك.

ويرى بعض النقاد أن عقد السبعينات قد شابه خمود في جذوة شعر التفعيلة سيما ذلك المعني بالذاتية السودانية بسبب إنديا ح ظاهرة الهجرة والإغتراب وبخاصة إلى دول الخليج النفطية

وإنشغال الأدباء والشعراء بواقعهم الحياتي المعاش. بيد أن حقبة الثمانينات والتسعينات قد شهدت زخماً شعرياً لافتاً للنظر لعل من أهم علائمه بروز قصيدة النثر. ورغم أن هذا النمط التعبيري أسبق تاريخاً من تلك الفترة في بقية الأقطار العربية. ولعل تجربة الناقد المعروف جبرا إبراهيم جبرا في مجلة "شعر" التي كانت تصدر في لبنان في خمسينات القرن الفائت هي التي دفعت بهذا النموذج التعبيري إلى فضاءات الشعر العربي بصورة أكثر رحابة حيث دعت هذه المجلة إلى ضرورة التخلي عن الوزن في الشعر وتبنت ما يسمى "قصيدة النثر". وهناك أمثلة عديدة لهذا النمط التعبيري ليس هذا مقام بسط القول فيها، غير أنني سأحصر حديثي في مثالين إحداهما من المشهد الشعري العربي والآخر لنظيره السوداني. وأثبت هنا ما قاله ممدوح عدوان في قصيدته "وتمر المدينة برقاً".

خبأوا الموت بين الصدور،

ومضوا غيمة سائحة

غير أن الصغور

عرفتهم من الرائحة

لو أني أكلت على المائدة

لقلت: قبضت الثمن

أما المثال الثاني المحلي فهو لأحد شعراء الشباب (أوردته صحيفة الرأي العام، الملحق الثقافي، عدد 20 سبتمبر 2006: 11) يقول في قصيدة نثرية:

مساؤنا الذي يبدأ بطيش

حنان الأصابع

يمر بالهاوية

بالتحليقة العالية

حيث لا يقوى (رقمين) على حديدة الصفر

بالفقد متوخياً سقوطه الفاشل

في فخنا المنصوب لنا!

ولا يخالجني أدنى شك في أن القارئ للنموذجين أعلاه لن يشعر بتوتر شعري أو موسيقى داخلية تشي بروح الشعر. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: أين الهزة والرعشة في الأبيات المذكورة والتي يحسبها بعض النقاد الحداثيين أنها أبرز السمات الإبداعية لقصيدة النثر. وفي تقديري أن مثل هذه العبارات المصفوفة لا تعدو عن كونها نثراً يعوزه البناء الفني والهندسي ليصير شعراً.

والرأي عندي أن حدود الإبداع يجب أن لا تحتبس في القصيدة العمودية أو قصيدة التفعيلة. غير أن "الشعر المنثور" الذي لا يساير الأوزان الشعرية وليست فيه قوافٍ والذي يعتقد أنصاره أنه يعتمد على جمال الصورة ورشاقة الألفاظ وجرس المعنى وعمق العاطفة والإحساس يحتاج إلى عناصر فنية ومرتكزات إبداعية تحكم نتاجه وهي ما لم تتوفر بعد؛ إذ لا يعقل أن نسمي الخطرفات الرتيبة والتهويمات العبثية شعراً. ولا مشاحة أن الشعر فن ولابد للفن أن تحكمه معايير كما وأن أي تطور شعري لابد له من مرتكزات سواء في اللغة أو طريقة العرض أو الخصوصية.

وبإلقاء نظرة فاحصة للمشهد الشعري السوداني نلحظ أن كل أجناس القصيدة العربية تمور بداخله سواء أكانت عمودية أو تفعيلة أ, قصيدة نثر وإن كانت هناك أعداد متزايدة من الشعراء الشباب بدأت تلجأ إلى قصيدة النثر لأنها سهلة التناول وتهتم بالمظاهر السطحية كما وأنهم –أي الشباب– بشكل عام لا يملكون عمق اللغة وإتساع القاموس اللفظي فإبتعدوا ليس فقط عن بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي بل عن الأوزان الشعرية والموسيقى الداخلية، فإستعصت عليهم التجربة وتمردوا عليها لعدم قدرتهم على استيعابها. وفات على هؤلاء أن شعر التفعيلة الذي إرتقى صوراً ومضامين وأخيلة في الستينات لم يستنفد كل أغراضه ورؤاه لتستفرد قصيدة النثر بالمشهد الشعري، فلا تزال هناك بحاراً لم تسبر أغوارها ومفاوز لم يتم إجتيازها بعد في التفعيلة العروضية ورغم البروز اللافت لقصيدة النثر في التسعينات إلا أن هناك نماذجاً غير قليلة من شعراءنا الشباب ما إنفكت تمتح من معين التفعيلة وفضاءاتها الأبكار. ولعل من أبرز هذه النماذج الواعدة سميرة الغالي في "مقاطع للبحر واللقيا" ويوسف النعمة في "زهو البريق" والبدري هاشم في "تراب

السنين إحتواء القصيدة" وغيرهم كثر. بيد أن الملفت للعيان التراجع المذهل للقصيدة العمودية. ويبدو أن إيقاع الحياة المتسارع وما يحفل به عالمنا الراهن في فواتيح الألفية الثالثة من تطورات وتغييرات في شتى جوانب الحياة لا يستطيع أكثر الناس إيغالاً في الخيال التنبؤ بحدودها وتداعياتها، ستفرز دوماً أوضاعاً حداثية تنعكس بالضرورة سلباً أو إيجاباً على الذائقة الفنية شعراً كانت أو نثراً والأيام مختزنة بالمستجدات.

العلاّمة عبدالله الطيب :ذكرى متجددة[1]

تمر علينا في الأسبوع الثالث من شهر يونيو كل عام (2003/6/19م) الذكرى السنوية لرحيل شيخ العلماء وعميد الأدب العربي التوأم البروفيسور الممتاز(Professor Emeritus)عبد الله الطيب المجذوب. ولهذا العلاّمة أسفار جياد لا أزعم دراية كافية بها، فهي معروفة ومتدارسة بين أهل الإختصاص في اللغة والأدب والتاريخ (أبرزها المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الحماسة الصغرى، من نافذة القطار، الأحاجي السودانية، حقيبة الذكريات ،بين النير والنور والعادات المتغيرة في السودان النهري(النيلي). والكتاب الأخير عبارة عن مجموعة مقالات متفرقة بالإنجليزية نشرت بمجلة "السودان في رسائل ومدونات-S.N.R"ونقلت إلى العربية تحت إشراف معهد عبدالله الطيب، فضلاً عن دواوين أشعار هي أغاني الأصيل، أصداء النيل وبانات رامة وسقط الزند الجديد). بيد أن ما أسطره هنا لا يعدو أن يكون حزمة خواطر وذكريات تلميذ تتداعى دونما ترتيب مسبق في المخيلة لعبقري العربية عبد الله الطيب، كاشفة عن إحدى الفترات الزاهية لكلية الآداب بجامعة الخرطوم التي كانت في نظره " هى الجامعة وما عداها "حرف ومهن ".

ذكريات الدراسة بالجامعة:

قُيّض لثلة من أبناء جيلي الانتظام في الدراسة الجامعية طلاباً بجامعة الخرطوم في مطلع سبعينات القرن المنصرم. وكانت جامعة الخرطوم آنذاك تعج بالنجوم الزواهر من أهل الفكر والنقد والأدب(محمد إبراهيم الشوش,عون الشريف قاسم,يوسف فضل حسن,عثمان سيدأحمد, عزالدين الأمين,زكريا بشير إمام,الحبر يوسف نورالدائم, محمد الواثق,محمد عبدالحي,خالد المبارك ,علي المك,صلاح الدين المليك,محمد عبده غانم(اليمن),سلمى الخضراء الجيوسي(فلسطين),وشكري عياد(مصر) وغيرهم. وكان واسطة العقد بين هذه الكواكب النيّرة من

[1]صحيفة "السوداني" العدد الاسبوع (1772) بتاريخ 2010/12/3م .

الأساتيذ عبد الله الطيب المجذوب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.فقد كان علماً باذخاً، فريد عصره وعبقري زمانه وحبر لا يجارى في الإنسانيات (اللغة والأدب).وكان لدفعتنا شرف التتلمذ عليه كفاحاً والنهل من معين علمه الفياض. فكانت دفعتنا هى الأخيرة التي درّسها العالم الراحل بالسنة الأولى في مرحلة البكالريوس (1973–1972م) إبان عمادته الثالثة لكلية الآداب وبعد عودته من نيجريا (أنشاء هناك كلية نايبرو بكانو) حيث إنصرف بعدها للعمل الإداري مديراً لجامعة الخرطوم (1976–1974م) ومن ثم مديراً مؤسساً لجامعة جوبا (1977–1976) قبل أن ينتقل أستاذاً للغة العربية وعلومها في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في المملكة المغربية.

أسلوب عبد الله الطيب في التدريس:

لا تزال الذاكرة تختزن نثار صورة نضرة لهذا العبقري الفرد إذ كنا نهرع نحو محاضرة الصباح في القاعة (102) والتي تشرفت اليوم بإسمه لنستمع لأحاديثه الشيقة عن الشعر الجاهلي. ولعل من الملفت للإنتباه وقتها أن جميع الطلاب كانوا يحرصون أيما حرص على الحضور فيندر أن يتغيب طالب بل إن العديد من طلاب الكليات الأخرى في الجامعة كانوا يتدافعون بالمناكب، يزاحموننا مقاعد المدرجات والكل في شوق لسماع البروف وهو يجوس بنا منتديات الأدب في العصر الجاهلي (عكاظ، ذوالمجنة، ذو المجاز ودارة جلجل) محدثاً حديث العارف المستبطن عن أشعار العرب وأيامهم شارحاً وناقداً ومقارناً، وكيف أن النقاد الجاهليين كانوا على رأى مؤداه أن " أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب " . وكانت الإبتسامة لا تفارق محياه وهو يخطو جيئة وذهاباً في منبر القاعة ويستطرد بطريقته المعهودة مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والروايات القديمة والأشعار وآراء النقّاد القدامى أمثال قدامة بن جعفر في "نقد الشعر"، إبن قتيبة في " الشعر والشعراء " وإبن رشيّق القيرواني في " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ".

تفرده في لغة الضاد:

واستناداً إلى ما تقدم، لا غرو أن إعترف له أبرز علماء عصره برسوخه في علوم العربية وآدابها. واختير عضواً بمجمع الخالدين في قاهرة المعز(1961م) ولم يتجاوز العقد الرابع حينها. ولعمري إن هذا لأبلغ شاهد على فرادته في علوم الضاد وآدابها. ويكفيه فخراً أن عميد الأدب

العربي طه حسين شهد له بالتفرد والتميز على علماء عصره ’طرّاً في الشعر العربي حيث أورد في مؤلفه الموسوم " في أدبنا المعاصر " نصاً وحرفاً " لا أعرف معاصراً عربياً تعمق مثله في الشعر العربي وأوزانه وقوافيه ودقائقه وموسيقاه ..... ". ويؤكد العديد من النقاد أن كتابة " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " كان ولا يزال المنهل الرئيسى الذي يستقي منه الأدباء والنقاد معرفتهم بالشعر العربي وعروضه.

ريادته في تجديد الشعر العربي:

يرى نفر من النقاد أن قصيدة عبد الله الطيب المعنوّنة بـ " ترنم " تمثل توليداً ظهر فيه هذا الشاعر رائداً في التجديد ونظم " الشعر المرسل ". ويذهب لفيف من أهل الأدب أنه إستبق رواد شعر التفعيلة في العالم العربي (بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ومحمود حسن اسماعيل) منذ مطلع الأربعينات بابتداعه ضروباً من النظم تعدت الأوزان المألوفة إلى أشياء اصطنعها اصطناعا ثم بدأ له أن هذا كله عبث لا يفصح عن عواطف النفس وكوامنها وإنما النفس هي إبنة بيئتها – البيئة العربية الفصيحة – فعاد مرة أخرى إلى أصول الثقافة العربية والنظم على أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي. ولعل لسان حاله يطرحه – كما يقول الأديب الدبلوماسي عبد الهادي الصديق (رحمه الله) – عبر بيت شعره القائل:

مالك والجزالة في زمان *** يحب به من القول الهجين

موسوعيته في الدراسات الإنسانية:

نبغ عبد الله الطيب في الدراسات الاجتماعية والتاريخ الإسلامي وله مقالات وبحوث معروفة ظهرت منذ مطلع الخمسينات والستينات الماضية في العديد من الدوريات العلمية والمجلات الثقافية منها " هنا أمدرمان 1953م، القافلة 1957م وصوت المرأة – 1960م ". كما كان له باع طويل في أدب الأطفال وفي الدراسات الإسلامية. ولعل أطروحته الجريئة عن هجرة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للحبشة خير دليل على أسلوبه المتفرد في كتابه التاريخ. فلقد أبان في بحثه الموسوم بـ " هجرة الحبشة وما وراءها من نبأ " أن هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إنما كانت إلى السودان (بلاد الحبشة الأكسومية النيلية إلى البحر الأحمر) وليست أثيوبيا الحالية التي حيزت إلى ملك الحبشة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر

الميلادي. وأن أول ساحل نزله الصحابة هو ساحل سواكن وأنها أول أرض دخلها الإسلام من ديار أفريقيا . والملفت للإنتباه أن عبد الله الطيب استخدم أسلوب التكامل المنهجي (تداخل المساقات)، فلم تقتصر مرجعياته على الوثائق التاريخية وحدها بل تعدتها إلى المنهج الجغرافي.

آثاره العلمية وكيفية التعامل معها:

لا ريب أن الحديث عن هذا العلاّمة ذو شجون، فقد كان بحراً ذاخراً بالجواهر واللآلي. فالرجل جمع بين المعرفة الموسوعية العامة والتميز في التخصص الدقيق (اللغة والأدب). والرأى عندي أن هناك بحوثاً ودراسات عديدة تنتظر الباحثين لإستخراج الكنوز الثمينة من هذا الأرخبيل الضخم. فإذا كان هذا هو المبتغى، فيجب علينا (أدباء وكتاب) إحياء ذكرى هذا العالم الكبير في المستقبل المنظور بصورة بعيدة عن النمطية والتقليدية (قراءات عامة لإشعاره، اجترار ذكريات وكتابة خواطر عن سيرته العلمية والثقافية) وذلك بتشجيع الدارسين على كتابة بحوث علمية محكمة وبمناهج علمية حديثة .(اللسانية والبنيوية وغيرها) بهدف تسليط أضواء جديدة على الجوانب المختلفة لهذا الموروث الأدبي الثر مع تقديم جوائز عالمية للبحوث المتميزة بإسمه. وإقترح للجنة المنوط بها الإعداد لتكريمه في الذكرى الثانية عشر للرحيل أن تقنع أسرته الكريمة بأن يتحول منزله إلى متحف بإعتباره ثروة قومية ورمزاً من رموز الثقافة والأدب العربي قل أن يجود الزمان بمثله.ومتاحف الرموز تقليد معروف في العديد من الدول حيث يمثل هذا النوع من المتاحف ذاكرة الأمة وتاريخها الحديث والمعاصر ،ففي الجارة الشقيقة مصر تحولت كثير من منازل رموزها إلى متاحف. مثل متحف بيت الأمة(سعد زغلول)ومتحف رامتان(طه حسين) ومتحف كرمة إبن هاني(أحمد شوقي).وأنوه بأهمية جمع ماكتبه عنه تلاميذه ومحبوه الكثر في أوعية النشر المختلفة(كتب، دوريات ،صحف،مواقع أسفيرية) وإخراجها في مجلدات لتسلط مزيداً من الضوء على جوانب متعددة من هذه الشخصية النادرة. ولا مشاحة أن معهد عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم والذي يترأسه الأديب النابه الدكتور الصديق عمر الصديق لهو خير جهة تضطلع بهذه المهمة الكبيرة. وفي تقديري أن لا تقتصر الدراسات عن هذا الرمزالمتفرد على آثاره العلمية والفكرية بل تتجاوزها لتشمل جوانب حياته الإجتماعية وعلاقته بأهله وتلاميذه وأصدقائه بهدف فتح كوة لينسرب منها مزيد من الضوء على عبقريته الفذة التي جمعت مواهب عديدة وتميزت إلى جانب الصرامة العلمية بالملح الذكية والطرائف الساخرة وهي عديدة ومتنوعة.

وتحضرني هنا طُرفة كان يرويها الطلاب أيام دراستنا بجامعة الخرطوم. فذُكر أن أحد الطلاب قد رسب في إمتحان اللغة الإنجليزية وجاء إلى عبد الله الطيب عميد الكلية وقتذاك – وقال له: إن مسز شو Mrs. Shaw قد رسبتني في الإمتحان وأن أدائي يكفل لي النجاح ، فقال له البروف بالإنجليزية: ?Are you sure– هل أنت متأكد ، فأجابه الطالب: Dead sure– متأكد تماماً ؛ فرد عليه البروف ساخراً بالإنجليزية You are dead but not sure– أنت هامد (راسب) وليس متأكداً.وفي محاضرة لعبدالله الطيب ذات مرة بالقاعة(102) بكلية الآداب في جامعة الخرطوم، خاطبه أحد الحضور قائلاً"أريد أن أسأل البروفيسور عن .....،" فقاطعه أحد الطلاب وكان شديد الإعجاب بالبروف قائلاً "ياأخي لاتقل بروفيسور.....،فإنها كلمة أجنبية ولكن قل ياأستاذ....."، فرد علية بروفيسور عبدالله بالقول"لا بأس فالكلمتان أجنبيتان، لأن الأولى(بروفيسور)لاتينية والثانية(أستاذ) فارسية.

مجمل القول، إن الراحل المقيم العلاّمة عبد الله الطيب كان المثل الأعلى الذي يرنو إليه الكثيرون في مضمار الفكر والثقافة. ولقد كان التتلمذ عليه والإرتشاف من ينابيع علمه الدافق سواء في حلقات الدرس أو من خلال مؤلفاته الجياد هو المنهل الذي استقى منه العديدون وكان خير معين لهم في مدارج خطواتهم العملية. فقد جمع الرجل في ذاكرته معرفة كاملة ومتكاملة بالتراث السوداني ونظيره العربي الإسلامي، فضلاً عن المنجز الغربي. واتسم أسلوبه بحيوية اللغة وجزالتها. وكتب بعربية قشيبة تتميز بالعذوبة والسلاسة بصورة لا يملك المرء فكاكاً سوء الإنجذاب اليها. ألا رحم الله تعالى العلاّمة عبد الله الطيب وأنزل عليه شآبيب رحمته الواسعة وجعل جنات الفردوس مثواه إنه سميع مجيب الدعوات.والله المستعان.

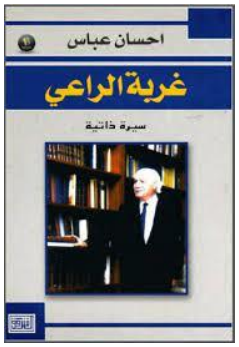

الناقد إحسان عباس والحركة الثقافية في السودان[1]

أصدر الناقد العربي الكبير إحسان عباس كتاباً في سني عمره الأخيره أسماه "غربة الراعي: سيرة ذاتية لمثقف فلسطيني" تناول فيه سيرته الأكاديمية والإجتماعية. وفى مؤلفه المذكور أعلاه أفرد حيزاً خاصاً عن ذكرياته في السودان أستاذاً بجامعتي الخرطوم والقاهرة الفرع في الخمسينات ومطلع الستينات كما نوه بعلاقاته بالمثقفين السودانيين ودوره في الحراك الثقافي في السودان آنذاك.

وثمة إشارة هنا وهى أن كاتب هذه السطور قد إطلع على العديد من مؤلفات الراحل المقيم – إحسان عباس – منذ أيام الدراسة بجامعة الخرطوم (1972–1977م) ولا يزال تفاصيل بعضها ماثلاً في الذاكرة حتى اللحظة أبرزها "فن الشعر" ، "إتجاهات الشعر العربي المعاصر"، "بدر شاكر السباب: دراسة في حياته وشعره"، "الشعر العربي في المهجر: أمريكا الشمالية بالاشتراك مع صديقه الناقد المعروف الدكتور محمد يوسف نجم و "تاريخ النقد الأدبي عند العرب".

ويلحظ أن إحسان عباس قد إتبع الأسلوب الواقعي في النقد والمرتكز على الإستبطان والإستقراء وتحليل النموذج من الداخل للنفاذ منه إلى القاعدة. ولقد وصف أسلوبه النقدي في كتابه المعنّون "بدر شاكر السياب" نصاً حرفاً بقوله "إنني لا إنتحى اللغة الشعرية الفضفاضة التي طغت على مناهج النقد هذه الأيام – يقصد فترة الستينات وهى تاريخ ظهور هذا الكتاب الطبعة الأولى 1969م – وذلك لأني أؤمن إيماناً لا يدركه أي إضطراب بأننا حين نملك الحقيقة نستطيع أن نعبر عنها بوضوح. وإننا حين نجد الحقيقة غائمة في نفوسنا نلجأ إلى المجازات". ولا ريب أن كتابات إحسان عباس وأبناء جيله من النقاد المبدعين هي التي استنفرت في الشعراء والأدباء العرب طاقات الإبداع على إختلاف مناهجهم ومستوياتهم الفنية.

---

[1] صحيفة "السوداني" العدد الاسبوعي (921) بتاريخ 2008/6/6م .

وبرز إحسان عباس في الساحة الثقافية العربية منذ بداية الخمسينات في القرن الماضي إذ كان باحثاً وناقداً حصيفاً وأستاذاً جامعياً مرموقاً. ولقد كان الرجل ضليعاً في إختصاصه جمع في إهابه معرفة شاملة ومتكاملة بجوانب التراث العربي – الإسلامي وتوفرت فيه شروط الناقد والمؤرخ سواء من الناحية الأكاديمية أو التقنية. وإتسم أسلوبه بحيوية اللغة ولدانتها وإتساع صورها للمستجد من المعاني.

وعطفاً على ما تقدم، فقد أفاض عباس في الحديث عن ذكرياته الطيبة عن السودان والسودانيين سواء في كلية غردون التذكارية وجامعة الخرطوم أو جامعة القاهرة فرع الخرطوم، فضلاً عن نشاطاته الأكاديمية والثقافية خلال فترة وجوده في الخرطوم، كما لم ينس ذكرياته عن الحياة في بعض الأقاليم السودانية فماذا قال عن كل ذلك؟.

أشار عباس في مطلع ذكرياته السودانية إلى أنه قدم للعمل في السودان بكلية غردون التذكارية في أول الخمسينات وأن هذه الكلية التي تشبه – على حد تعبيره – الكلية العربية في القدس (فلسطين) كانت تختار طلابها من النخبة في المدارس السودانية. ولذلك كانت مهمة المدرس – والكلام ما يزال لعباس – أكثر صعوبة وأكثر مسئولية وأكثر إمتاعاً. ونوه إلى أن هناك فارقاً أساسياً بين طلاب الكلية العربية والكلية السودانية. ويتمثل ذلك في انغماس الطلاب السودانيين – بعكس نظرائهم في الكلية العربية – في العمل الحزبي كما كانت روح التدين عالية لديهم.

وكان أول شيء كلف به إحسان عباس طلابه في كلية غردون – خارج حدود الدراسة – أن يكتب كل منهم بياناً عن بيئته ومميزاتها وعاداتها. وكان الهدف من ذلك أن يفهم الجو العام الذي نشأ فيه كل طالب. وذكر أن طالباً من منطقة غرب السودان كتب يصف أحد المتميزين في بلدته وقال إنه عاش ثلاثين خريفاً. فلما سأله عباس لِمَ يقول ذلك؟. أجاب لأن الخريف في بلدته هو الفصل الأخضر البهيج بنباته وأزهاره في حين أن الربيع شديد الوطأة. وهذه الملاحظة الصغيرة وغيرها كانت ذات فائدة لعباس للتعرف على الجوانب المختلفة من حياة السودان والسودانيين. وسجل زيارات لبعض أقاليم السودان خارج العاصمة المثلثة حيث قام برحلتين إحداهما إلى الغرب (الأبيض والدلنج) والأخرى إلى الشرق (كسلا) .وتأسف لعدم زيارته للجنوب بسبب ظروفه.

والمح الكاتب في " غربة الراعي " إلى أن التدريس في كلية غردون التذكارية التي تطورت فيما بعد وأصبحت تسمى عام (1954م) كلية الخرطوم الجامعية – بسبب حرارة الطقس – يبدأ في السابعة صباحاً حتى التاسعة. وبين التاسعة والعاشرة تتوقف الدروس لكي يتناول المدرسون طعام الفطور كل في منزله ثم تستأنف الدروس بعد العاشرة. لذا فقد كان عباس يختار محاضراته في الأغلب من (7–9 صباحاً). أما طعام الفطور فقد كان يتناوله عادة برفقة أصدقائه المقربين من الأساتذة السودانيين وعلى رأسهم الديبلوماسى الأديب جمال محمد أحمد ورائد علم الإقتصاد في السودان الدكتور سعد الدين فوزي. وكان الفطور عادة صحن من الفول المصري. وأشار عباس إلى هذه القناعة والتي وجدها – كما ذكر – تصور حقيقة مهمة من واقعية المثقف السوداني الذي لا يترفع متعالياً عن واقع الناس البسطاء.

وأوضح صاحب "غربة الراعي" أن أعباءه التدريسية في جامعة الخرطوم قد ذادت عام 1956م إذ عهد إليه تدريس كتاب الفيلسوف إبن رشد في الفقه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد". واستحدث موضوع آخر وهو "عوامل التطور والتغير في الشعر العربي الحديث" كما أضيفت سنة خامسة إلى السنوات الأربع لتخرج الطلاب. وعلاوة على ذلك,إتصل عليه المسئولون في جامعة القاهرة – فرع الخرطوم (1957م) لتدريس الأدب الأندلسي في بداية نشأة هذه المؤسسة. وأدت هذه الأعباء الجديدة إلى توثيق صلات الناقد عباس بمؤسسات التعليم العالي في السودان. وإذا أضفنا إلى ذلك سهولة الحياة في الخرطوم في ذلك الزمان وقوة العلاقات الإجتماعية بين الناس أدركنا سر تفاعله مع المجتمع السوداني حينها. ويلزم التنويه هنا إلى وصف الكاتب عباس لخرطوم الخمسينات إذ يقول في مؤلفه "غربة الراعي" نصاً وحرفاً "كانت الحياة في الخرطوم مريحة بدقة بما فيها من نظام في جميع الشؤون والمجالات وتوافر كل ما يحتاجه المرء من لباس ودواء وطعام ، فإذا جمعت إلى ذلك لطف الشعب السوداني ودماثة أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثالياً للعيش". واستطرد قائلاً بأن الشعب السوداني قد أظهر مشاعر جياشة بالغيرة علي مصر ضد العدوان الثلاثي (1956م) كما تطوع بعض السودانيين ليشاركوا أخوانهم أبناء مصر ضد العدوان.

وفى ظل هذه الأجواء المثالية للإبداع في خرطوم الخمسينات والستينات لا غرو أن لعب إحسان عباس دوراً مهماً في إثراء الحركة الثقافية في السودان، حيث شارك بفعالية في النشاط

الخاص بمحو أمية الكبار وعطر منتديات ومجالس الخرطوم بأريج علمه الفواح في الفكر والأدب واللغة. ولم تقتصر مجهوداته علي التثقيف العام بل كان له دور مهم في التعريف بالأدب السوداني خارج الحدود. وكانت الخرطوم في ذلك الزمان تعوزها دور النشر كما وأن المطابع كانت قليلة. وأفاض في كتابه "غربة الراعي" في الحديث عن الثقافة والحياة في السودان في منتصف القرن الماضي وما بذله من جهد لنشر الشعر السوداني والقصة القصيرة السودانية. وكان من ثمرة هذا الجهد ظهور ديوان "غابة الأبنوس" للشاعر صلاح أحمد إبراهيم ومجموعة قصص لصلاح وصديقه على المك ثم "غضبة الهبباي "لصلاح وديوان "الصمت والرماد" للشاعر محمد عثمان كجراي.

وتوثقت صلات إحسان عباس بأهل السودان سواء أكانوا طلابه أو زملاءه أو معارفه. وأعطى بعد مغادرته السودان(1960م) صورة زاهية عن السودان والسودانيين . كما أعجبته مزية التسامح لدى أهل السودان فقد استدل عليها بالحوارات الساخنة بين طلاب جامعة الخرطوم بإختلاف ألوانهم السياسية. وأوضح أن الحوارات كانت تشتد بينهم أحياناً وترتفع درجة حرارتها ولكنهم سرعان ما يفيئون إلي الهدوء ويغادرون المكان وليس بينهم سوء تفاهم. وتيقن أن هذه الظاهرة تمثل كل ألوان الطيف السوداني وأن السودانيين حتى في أعلى المستويات وبخاصة في البرلمان كانوا ينقسمون إلى حكومة ومعارضة. ولكن بعد انتهاء الجلسة الرسمية يتصافحون إخواناً متحابين وكان يقول عباس لنفسه إن الديمقراطية لتليق بهم ولهم.

ألا رحم الله تعالى أستاذ الأجيال إحسان عباس وجعل الجنة مثواه فقد كان أحد المثالات العليا التي يرنو إليها الكثيرون في مجال الفكر والثقافة والأدب. ولعب هذا العلاّمة الفرد دوراً مهماً في التعريف بالأدب السوداني الحديث وكان أحد أبرز القامات الفكرية التي أثرت الحركة الثقافية السودانية في الخمسينات والستينات مع ثلة من الأدباء والأكاديميين العرب الذين عملوا في جامعات السودان أمثال محمد النويهي وعبد المجيد عابدين ومحمد عبده غانم ومحمد مصطفى هدارة وسلمى الخضرا الجيوسي وشكري عياد.

العلاّمة إحسان عباس:السودانيون وتخليد ذكراه[1]

أطلق الكتاب والمثقفون العرب العديد من النعوت على العلاّمة إحسان عباس (1920-2003م) فهو سادن التراث وحارس الأدب العربي والعلاّمة النهضوي والعالم الموسوعي وشيخ المحققين وعميد الأدب العربي الثاني ... الخ. وبرغم أن صاحب هذه السطور قد كتب العديد من المقالات عن الأديب العربي المعروف إحسان عباس خلال السنوات القليلة الماضية نشر بعضها في الملاحق الثقافية (صحف الرأي العام"2004م" والسوداني"2009م") إلا أنها تركزت حول دوره في التعريف بالأدب والثقافة السودانية إبان فترة عمله أستاذاً بجامعة الخرطوم و جامعة القاهرة فرع الخرطوم (1960-1950م). فلم أتطرق بشكل واسع لمساهماته في الأدب والتراث العربي. وكان هدفي هو تعريف الأجيال الصاعدة من الكتاب والأدباء السودانيين بهذا المبدع المتعدد المواهب مع إبراز دوره في الثقافة السودانية خلال الخمسينات الماضية. بيد أن الكاتب الفلسطيني نبيل خالد الأغا سطر مقالاً شيقاً في مجلة الدوحة (العدد 43 ، مايو 2011م:40-47) عن إحسان عباس موسوم بـ "مؤسسة ثقافية في رجل: الناقد إحسان عباس بين الإبداع والإمتاع" تطرق فيه بالتفصيل لجوانب عديدة من السيرة العلمية والثقافية الثرّة للأديب الراحل. ومما إسترعى إنتباهي في ذلك المقال بوجه خاص موضوعين هما: رؤية الكاتب عن علاقته بأهل السودان ومناشدته للمؤسسات الجامعية العربية وخاصة تلك التي عمل فيها عباس بأن تعمل على تخليد ذكراه وذلك بتأسيس كرسي أستاذية بإسمه في بعض هذه الجامعات وقال في ذلك: "إن نصاعة صفحات شيخ النقاد العرب تدفعنا إلى بسط إقتراح يحفظ له سيرته،ويخلد حياته المضخمة بأطايب الثقافة والفكر.ويتمثل ذلك في تأسيس كرسي أستاذية بإسمه في بعض الجامعات العربية وبخاصة في الدول التي أمضى ردحاً من الزمن فيها وهي:فلسطين ومصر والسودان ولبنان والأردن،إضافة إلى ماتيسر من الجامعات الأخرى"(أنظر،مجلة الدوحة ،العدد 45:43). ولا ريب أن عباس يستحق التكريم بصورة تليق بمكانته السامقة ومساهماته البارزة في الثقافة والأدب العربي .ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماذا تقول السيرة الذاتية لهذا الأكاديمي والناقد الكبير؟:-

[1] موقع "الراكوبة" الاسفيري بتاريخ 2015/3/6م.

1- مولده ونشأته وتعليمه: ولد بقرية "عين غزال" بفلسطين عام 1920م. نشأ وتربى بمدينة حيفا التي تلقى فيها دراسته الأولية والمتوسطة وإنتقل إلى مدينة عكا التي حصل فيها على الشهادة الثانوية بتفوق وانتسب بعد ذلك إلى الكلية العربية في القدس (1937-1941م) وحصل على الشهادة المتوسطة التي أهلته ليصبح معلماً. وحصل على منحة دراسية عام 1946م للدراسة بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) وحاز على الليسانس في الآداب (1949م) وحصل على درجتي الماجستير (1951م) والدكتوراه (1954م) من جامعة القاهرة.

2- تدريسه بالجامعات: إستهل مشواره الأكاديمي بالسودان حيث عمل محاضراً بقسم اللغة العربية بكلية غردون التذكارية (1950م) التي أصبحت تسمى كلية الخرطوم الجامعية عام (1954م) فجامعة الخرطوم (1956م). وبعد مغادرته السودان (1960م) عمل في العديد من الجامعات بلبنان والأردن والولايات المتحدةالأمريكية (جامعة برنستون).

3- فترة عمله بالسودان: وتطرق إحسان عباس في مؤلفه "غربة الراعي: سيرة ذاتية-1996م " لذكرياته العذبة عن السودان والسودانيين إبان فترة عمله بجامعة الخرطوم وجامعة القاهرة فرع الخرطوم. وأشار في ذكرياته أن كلية الخرطوم الجامعية في الخمسينات كانت تشبه الكلية العربية في القدس (فلسطين). كما كانت تختار طلابها من النخبة السودانية. لذلك كانت مهمة المدرس والكلام لعباس أكثر صعوبة وأكثر إمتاعاً . ونوه إلى أن هناك فارقاً أساسياً بين الطلاب السودانيين في الكلية الجامعية ونظرائهم الفلسطينيين في الكلية العربية بالقدس ويتمثل ذلك في إنغماس الطلاب السودانيين في العمل الحزبي كما كانت روح التدين عالية لديهم.

وكان أول شيء كلف به إحسان عباس طلابه في كلية غردون-خارج حدود الدراسة أن يكتب كل منهم بياناً عن بيئته ومميزاتها.وكان الهدف من ذلك أن يفهم الجو العام الذي نشأ فيه كل طالب.وذكر أن طالباً من غرب السودان كتب يصف أحد المميزين من بلدته وقال إنه عاش ثلاثين خريفاً .فلما سأله عباس لِمَ يقول ذلك؟.أجاب لأن الخريف في بلدته هوالفصل الأخضر البهيج بنباته وأزهاره في حين أن الربيع شديد الوطأة.وهذه الملاحظة الصغيرة وغيرها كانت ذات فائدة لعباس للتعرف على الجوانب المختلفة من حياة السودان والسودانيين.وسجل زيارات لبعض أقاليم السودان خارج العاصمة المثلثة حيث قام برحلتين إحداهما إلى الغرب(الأبيض والدلنج)والأخرى إلى الشرق(كسلا) وتأسف لعدم زيارته للجنوب لظروفه.

وأشار إحسان عباس إلى صداقاته مع المثقفين السودانيين وأبرزهم الأديب السفير جمال محمد أحمد والإقتصادي السوداني الرائد دكتور سعد الدين فوزي والأساتذة الدكاترة مصطفى عوض الكريم ومجذوب محمد(قسم اللغة العربية–جامعة الخرطوم). وأبان أن سر تفاعله مع المجتمع السوداني يرجع لقوة العلاقات الإجتماعية بين الناس كما وصف سهولة الحياة في الخرطوم آنذاك بقوله: "كانت الحياة في الخرطوم مريحة بدقة بما فيها من نظام في جميع الشؤون والمجالات وتوافر كل ما يحتاجه المرء من لباس ودواء وطعام، فإذا أضفنا إلى ذلك لطف الشعب السوداني ودماثة أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثالياً للعيش".

وفي ظل هذه الأجواء المثالية للإبداع في خرطوم الخمسينات كما يصفها بنفسه لا غرو أن لعب إحسان عباس دوراً مهماً في إثراء الحركة الثقافية في السودان فشارك بفعالية في النشاط الخاص بمحو أمية الكبار وفي المنتديات الأدبية بالعاصمة المثلثة. وبذل جهداً غير قليل لنشر الشعر السوداني والقصة القصيرة السودانية. وكان من ثمرة هذا الجهد ظهور ديوان " غابة الأبنوس" للشاعر صلاح أحمد إبراهيم ومجموعة قصص لصلاح وصديقه علي المك ثم "غضبة الهبباي" لصلاح وديوان "الصمت والرماد" للشاعر محمد عثمان كجراي.

وعطفاً على ما أورده الكاتب نبيل الأغا عن عدم إيلاء المثقفين السودانيين الإهتمام الكافي لكتابات إحسان عباس وتاريخه الثقافي في السودان ، فالملاحظة تبدو دقيقة مقارنة بما بذله من جهد لتعريف الساحة العربية بالأدب السوداني في الخمسينات المنصرمة. ولا يعرف دواعي عدم الإكتراث والإهتمام بعطاء السنوات العشر لإحسان في وطن مشهود كما يذكر الأغا وهو محق لأهله بالكرم والوفاء والنخوة والطيبة في أبهى صورها !.

وفي ظني أن مجموعة المثقفين والأكاديميين السودانيين التي تتلمذت على إحسان عباس كفاحاً بل وأخذ بيد البعض منها وقدمها للساحة الثقافية العربية لم تأبه لشأن الكتابة عنه أوتخليد ذكراه ربما لتدرأ عن نفسها شبهة الإنحياز بالنأي عن أجواء الخلاف الذي نشب بينه وبين عبدالله الطيب. وكان الأخير قد تولى لتوه رئاسة قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم خلفاً للأستاذ الدكتور محمد النويهي(1959م).وقد أوضح عباس في كتابه (غربة الراعي) سبب ذلك الخلاف والخاص بموضوع عدم تجديد عقده في الجامعة بصورة توافقه وملابسات مغادرته للسودان وأن

ذلك بسبب خصومة مع البروفيسور عبدالله الطيب.وكان الأخير قد إتهم "عباس" بأن له يداً في ماكتبه عنه أحد شانئيه وهو الناشر اللبناني أحمد سعد الذي وصف أشعار "الطيب" بأنها ملأى بالهجاء لبني جلدته.وأشار عباس أن هذه من الهنات ولكنه أوردها في كتابه لأنها قد توضح لمن يتساءلون عن أسباب مغادرته للسودان والملابسات التي أحاطت بها(أنظر،"غربة الراعي":220). ورغم مغادرته للسودان مغاضباً،إلا أنه أعطى بعد هذه المغادرة صورة زاهية عن السودان والسودانيين. كما أعجبته مزية التسامح لدى أهل السودان وإستدل عليها بالحوارات الساخنة بين طلاب جامعة الخرطوم بإختلاف ألوانهم السياسية.وأوضح أن الحوارات كانت تشتد بينهم أحياناً وترتفع درجة حرارتها ولكنهم سرعان ما يفيئون إلى الهدوء ويغادرون المكان وليس يبنهم سوء تفاهم.وتيقن أن هذه الظاهرة تمثل كل ألوان الطيف السياسي وأن السودانيين حتى في أعلى المستويات وبخاصة في البرلمان كانوا ينقسمون إلى حكومة ومعارضة.ولكن بعد إنتهاء الجلسة الرسمية يتصافحون إخواناً متحابين.وكان يقول (عباس) لنفسه:إن الديمقراطية لتليق بهم ولهم.

4- أهم آثاره في خدمة التراث العربي: نشر "وفيات الأعيان" لإبن خلّكان في ثمانية أجزاء ،

و "نفح الطيب في غصن الأندلس" للمقري في ثمانية أجزاء أيضاً ، و " الذخيرة في محاسن أشعار أهل الجزيرة" لإبن بسام و"التذكرة الحمدونية" لإبن حمدون بالإشتراك مع شقيقه بكر و"رسائل ابن حزم الأندلسي" و "الجليس الصالح الكافي" للمعافي النهرواني، و "معجم الأدباء" لياقوت الحموي في سبعة أجزاء و "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني في خمسة وعشرين جزءً بالاشتراك مع إبراهيم السعافين وبكر عباس , إضافة إلى العديد من الدواوين الشعرية مما لا يسمح الحيز بإيراده.

5- الكتب المؤلفة: وتشمل الحسن البصري ، فن الشعر، عبد الوهاب البياتي والشعر الحديث ، فن السيرة ، أبو حيان التوحيدي ، الشعر العربي في المهجر بالاشتراك مع محمد يوسف نجم، الشريف الرضي، العرب في صقلية، تاريخ الأدب الأندلسي (جزءان) ، عصر سيادة قرطبة ، عصر الطوائف والمرابطين، تاريخ ليبيا ، بدر شاكر السياب، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دراسات في الأدب الأندلسي بالإشتراك مع وداد القاضي وألبير مطلق، ملامح يونانية في الأدب

العربي ، إتجاهات الشعر العربي المعاصر، من الذي سرق النار، أحمد أمين وطريقته في الكتابة، رحلة ابن عربي.

6- الكتب المترجمة: كانت الترجمة من أهم نشاطات الأستاذ الدكتور إحسان عباس. ومما ساعده في ذلك معرفته الدقيقة للغتين العربية والإنجليزية وقدرته الفائقة على إستكناه دواخلهما. ولعل من أهم ترجماته: رواية "موبي ديك" لمهران ملقل وهي الرواية الأكثر شهرة في الأدب الكلاسيكي الأمريكي. وهناك كتاب الشعر لأرسطو ، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة لستاني هايمن بالإشتراك مع محمد يوسف نجم (جزءان)؛ دراسات في الأدب العربي للمستشرق لغون جرونبام بالإشتراك مع كمال اليازجي، أنيس فريحة ومحمد يوسف نجم. أرنست همينغواي لكارلوس بيكر، فلسفة الحضارة أو مقال في الإنسان لأرنست كاسيرو ؛ يقظة العرب لأنطونيوس بالاشتراك مع الدكتور ناصر الدين السيد ؛ دراسات في حضارة الإسلام للمستشرق هاملتون جيب بالاشتراك مع محمد يوسف نجم ومحمود زائد ؛ ت. س اليوت لماتيسن ، أبعاد الرواية الحديثة نصوص ألمانية وقرائن أوربية لثيودور زيولكوفسكي بالإشتراك مع شقيقة بكر عباس.

7- جوائز وتكريم: حظى إحسان عباس بسهم وافر من التكريم والتمجيد في حياته وبعد مماته . وهو بلا شك تكريم مستحق لرائد من رواد النهضة العربية الحديثة في مجال الثقافة والأدب. وحاز في العام 1981م على ثلاث جوائز: جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، وسام المعارف الذهبي من الدرجة الأولى من الدولة اللبنانية ، ووسام القدس من منظمة التحرير الفلسطينية وحاز على جائزة الترجمة من جامعة كولومبيا عام 1983م. وجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في الدراسات الأدبية 1991م، وجائزة الدولة التقديرية من المملكة الأردنية الهاشمية، وجائزة سلطان العويس الثقافية في النقد الأدبي 1991م، وجائزة عبد الحميد شومان التقديرية 1993م، وجائزة الفرقان للعلماء المتميزين في خدمة التراث الإسلامي 2002م والدكتوراه الفخرية التي منحتها له جامعة شيكاغو التي إعتبرته أساس المكتبة العربية الحديثة.

8- عضوية المجامع العلمية والثقافية: شغل العديد من المهام في العديد من المجامع العلمية والمؤسسات الثقافية ومنها: مجمع اللغة العربية في القاهرة ، المجمع العلمي في دمشق ، ومجمع اللغة العربية في عمان، النادي العربي الإسباني في مدريد ، مجلس أمناء جامعة البتراء في عمان، أستاذ شرف في الجامعة الأمريكية بيروت ، وعضوية جمعية النقد الأدبي بالأردن ،

والمجمع العلمي ببغداد ، والمجمع العلمي الهندي (مندوب فلسطين)، ومعهد المخطوطات العربية بالكويت... وغيرها. وشارك في عشرات المؤتمرات وأشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

9- كتب تكريمية لعباس: صدرت عدة كتب من زملاء وأصدقاء وتلاميذ إحسان عباس تكريماً له من أبرزها : "دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستين" عن الجامعة الأمريكية ببيروت 1981م . ونشر كتاب بعنوان "إحسان عباس ، ناقداً ، محققاً، مؤرخاً" عن مؤسسة عبد الحميد شومان بالأردن شارك فيه أربعة وثمانون باحثاً وناقداً وأديباً. وصدر عن دار الشروق بعمان كتاب : "إحسان عباس ناقد بلا ضفاف" للدكتور إبراهيم السعافين، كذلك صدر كتاب "سادن التراث" للدكتور يوسف حسين بكار ؛ وكتاب " إحسان عباس بين التراث والنقد الأدبي" للدكتور عباس عبد الحليم عباس ، وهناك كتاب "الناقد الموسوعي إحسان عباس" للكاتب نزيه أبو نضال وأصدره المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات برام الله عام 2008م، إضافة إلى منشورات أخرى عديدة ورسائل جامعية عن شعره ونقده.

10- بعض آراء عباس النقدية:

- (إن الشاعر يصنع بالكلمات ما يصنعه الموسيقي بالأصوات، وإن القصيدة لا تسمى شعراً إذا أمكن وصفها في صورة نثرية).

- (الشعر هو إلتحام الفكر والإحساس لا طنين الألفاظ الخلابة، لا فوران العاطفة المتقدة ، وإنما حضور الثقافة والفكر واللغة لدى الشاعر الموهوب).

- (إن ممارسة النقد الأدبي تحتاج إلى "عناء شديد" والعملية النقدية تزلزل الأعصاب لأن النقد مشقة لا تقل عن مشقة العمل الإبداعي).

11- بعض آراء الأدباء والمفكرين عنه:

- يرى د. جابر عصفور إن "إحسان عباس واحد من النقاد الذين لا يوجدون في ثقافتنا العربية إلا على سبيل الإستثناء، وإن أول ما يميز إحسان عباس الناقد هو جمعه بين الخبرة التراثية والوعي المعاصر بتيارات الأدب والنقد في العالم الأوربي الأمريكي).

– د. يوسف بكار يرى أن "إحسان عباس سادن عظيم من سدنة الموروث ، وحام كبير من حماته بما أسداه إليه من خدماته".

– ويقول د. إبراهيم سعفان "كان الدكتور الموسوعي إحسان عباس يحسن الإستماع إلى جلسائه ويتقبل آراء الناس على إختلاف طبقاتهم وحظوظهم من العلم والثقافة ، لكنه كان يضيق أشد الضيق بأدعياء العلم والثقافة".

– أما الشاعر أحمد دحبور فيقول نصاً وحرفاً "أن تقف أمام تاريخ شاسع بسعة تسعين كتاباً ، حجم د. إحسان عباس، يعني أنك أشبه بمن يغرف الفضاء بالملعقة...".

ألا رحم الله تعالى أستاذ الأجيال إحسان عباس وجعل الجنة مثواه، فقد كان أحد المثالات العليا التي يرنو إليها الكثيرون في مجال الفكر والثقافة والأدب العربي. وكان أحد القامات الفكرية المرموقة التي أثرت الحركة الثقافية في السودان في حقبة الخمسينات ومطلع الستينات مع مجايليه من كبار الأدباء والأكاديميين العرب الذين عملوا بالجامعات السودانية أمثال محمد النويهي وعبد المجيد عابدين ومحمد مصطفى هداره ،شكري عياد(مصر) ،سلمى الخضرا الجيوسي (فلسطين)، محمد عبده غانم(اليمن) وغيرهم. ولامشاحة أن المؤسسات العلمية التي عمل بها في العالم العربي وتلاميذه الكثر من خريجيها أوالعاملين فيها مطالبون بالعمل على تخليد ذكراه وفاء لما قدمه من إنجازات للغة الضاد تفوق–كما يعرف الكثيرون–ما قامت به مؤسسات بأكملها.والله المستعان.

- **عباس العقاد: حياته وفكره وعلاقته بأهل السودان[1]**

مرت علينا خلال الأسابيع القليلة الماضية الذكرى الحادية والخمسين لرحيل المفكر المصري العملاق والعلاّمة العصامي عباس محمود العقاد (1964/3/13م) والذي كان أمةً وحده ويمثل هرماً باذخاً في منظومة الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة ونظيرتها الإنسانية على مر العصور والأجيال.

ولد عباس العقاد في مدينة أسوان بصعيد مصر في 28 يونيو 1889م وتوفي في 13/ مارس 1964م ودفن بذات المدينة التي شهدت صرخته الأولى في الحياة. وما بين هذين التاريخين إمتدت حياة الشاعر والمفكر الإسلامي الكبير والسياسي الجسور عباس العقاد فملأ الدنيا وشغل الناس لما ينيف عن ثمانية عقود من الزمان. ينحدر العقاد من أسرة كردية الأصل هاجرت من الموصل شمال العراق وإمتهنت صناعة الحرير بمصر. وأهل هذه الصناعة يُسمون "العقادين" ومن هنا جاءت تسمية العائلة.

وكان والده موظفاً بسيطاً بدار المحفوظات المصرية. غير أنه – أي الوالد – كان مولعاً بالثقافة ويمتلك مكتبة كبيرة بمنزله مما دفع عباس العقاد إلي الميل نحو الإطلاع الواسع والثقافة الشاملة منذ بواكير صباه. ولم تتجاوز مؤهلات العقاد الأكاديمية المرحلة الإبتدائية. فقد أجبرته الظروف المعيشية الصعبة لأسرته لترك مقعد الدراسة باكراً. وإنتقل إلي القاهرة وإشتغل بوظائف عديدة في المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة حديد وديوان الأوقاف، غير أنه إستقال منها واحدة تلو الأخرى. وضاق ذراعاً بالوظيفة الحكومية وكتب عنها قائلاً " إن الإستخدام رق القرن العشرين ".

ودلف العقاد إلي مجال الصحافة مستعيناً بثقافته الموسوعية وسعة إطلاعه. فإشترك مع الأديب محمد فريد أبو حديد في تحرير صحيفة " الدستور " وكان إصدار هذه الصحيفة سانحة للتعرف على الزعيم الوطني سعد زغلول. ثم توقفت الصحيفة بعد فترة، فإضطر العقاد لإعطاء بعض الدروس الخصوصية حتى يقيم أوده.

---

[1] موقع " الراكوبة " الأسفيري ، بتاريخ 2015/3/14م .

وكتب العقاد الشعر، غير أن شعره لم يجد رواجاً لدى كثير من الأدباء، إذ صنفه البعض بأنه متكلف في النظم وأنه لم يكن من شعراء الوجدان الذين يؤمنون بأن الشعر تدفق تلقائي للإنفعالات. ولعل أكثر من هاجمه وقلل من مكانته الشعرية عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين والأديب والأستاذ الجامعي الدكتور محمد مندور. ثم جاءت جماعة أبوللو الشعرية وفيها شعراء لهم وزنهم، ولأسباب غير أدبية حاربت العقاد رغم أنها خرجت من معطفه. ويرى بعض النقاد أن من أسباب مهاجمة العديد من النقاد لشعر العقاد طبيعة شعره نفسه، إذ أنه لا يبيح سره إلا لمن يتصدى لقراءته في يقظة تامة، وأن يبذل جهداً في تذوق الكلام الجميل، سيما وأن شعر العقاد شعر الخوالج المركبة والعواطف العميقة، لا شعر الخواطر المطروقة، والأغراض القريبة كما وأن صاحبه يكسوه حيناً بشيئ من الذهنية المتشحة بالوجدان. وللعقاد عشرة دواوين شعرية تجنح إلي التأملية والفلسفة ومنها " يقظة الصباح " " وهج الظهيرة "، " أشباح الأصيل "، " عابر سبيل " وغيرها. ويلحظ أن الإتجاه التأملي في شعره غير منفصل عن شخصيته ومنهجه الفكري والنقدي.

ويتسم نتاج العقاد الفكري بالغزارة والعمق، فأصدر ما يزيد عن (100) كتاب ورسالة إلي جانب مئات المقالات تنوعت بين الفكر، الشعر، النقد، السيرة والسياسة. وترجمت بعض كتبه إلي اللغات الأخرى (الفارسية، الأردية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية والروسية). ومنحه الرئيس المصري جمال عبد الناصر جائزة الدولة التقديرية في الأدب كما منحته جامعة القاهرة درجة الدكتوراه الفخرية.

أما العقاد المفكر، فقد كان ذا معرفة موسوعية، فقرأ في التاريخ، الفلسفة، الأدب، علم النفس وعلم الإجتماع والنقد الأدبي، ثم زاد على ذلك الفلسفة والدين. ولعل أبرز كتابات العقاد " مؤلفاته الإسلامية " والتي تنقسم إلي قسمين كبيرين:- الأول: العبقريات وأعلام الإسلام : عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) وأبي بكر، عمر، عثمان، علي، وخالد، ومن أعلام الإسلام، بلال بن رباح، عمرو بن العاص، فاطمة الزهراء، الصديقة بنت الصديق، الحسين بن على، معاوية في الميزان. والثاني : بحوث ودراسات إسلامية عامة. والملاحظ في عبقريات العقاد الإسلامية تركيزه بشكل دائم على تقديم صورة شخصية بسماتها النفسية وبواعثها الأخلاقية والإنسانية،

ويبتعد عن تقديم الشخصية بأبعادها التاريخية بغرض إبراز مناحي العبقرية وخصائص العظمة للشخصية موضوع الدراسة.

عاش العقاد حياة غير قصيرة (75 عاماً) دون أن يتزوج، فإتهمه خصومة بمعاداة المرأة. غير أنه أجاب عن ذلك الإتهام بالقول إنه لا يكره الزواج فهو سنة الحياة والطريق الطبيعي لنشأة الأسرة، غير أنه يود المغامرة في الحياة لوحده. وذاد على ذلك بأن أورد حجة فلسفية وهي عدم إجتماع الإرادة والوسيلة لديه لإتمام هذا الأمر.

خاض العقاد معارك أدبية مشهورة من أبرزها معاركه مع مصطفي صادق الرافعي وموضوعها فكرة إعجاز القرآن واللغة بين الإنسان والحيوان، ومع طه حسين حول فلسفة أبي العلا المعري ورجعته، ومع الشاعر جميل صدقي الزهاوي في قضية الشاعر بين الملكة الفلسفية العلمية والملكة الشعرية ومع محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس في قضية وحدة القصيدة العضوية ووحدتها الموضوعية. وجمع العقاد كل هذه المساجلات في كتابه الموسوم بـ " معارك العقاد الأدبية ".

ودخل العقاد المعترك السياسي، إذ إنضم لحزب الوفد وكان من المقربين للزعيم المصري الشهير سعد زغلول، وعمل نائباً في البرلمان. وسجن لمدة تسعة أشهر عام 1930م بتهمة العيب في الذات الملكية، فحينما أراد الملك فؤاد الأول إسقاط عبارتين من الدستور تنص إحداهما على أن الأمة مصدر السلطات والأخرى أن الوزارة مسئولة أمام البرلمان، صاح العقاد من داخل قبة البرلمان قائلاً " إن الأمة علي إستعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه".

ووقف العقاد موقفاً صلداً ضد الصهيونية وربيبتها إسرائيل وكتب مقدمة أول نسخة عربية مترجمة لكتاب " برتوكولات حكماء صهيون ". ونعتت إسرائيل العقاد بمعاداة السامية وإعتبرت هذه المقدمة ذات بعد سياسي يعمل علي تعزيز الكراهية ضد الإسرائيليين واليهود على وجه العموم. وأدي موقف العقاد المعادي للنازية الألمانية إلي أن وضعته الأخيرة ضمن المطلوبين للعقاب فتوجس خيفة وهرب مسرعاً إلي السودان (1943م) ومكث فيه بضعة أسابيع قبل أن يعود أدراجه لأرض الكنانة.

وكانت زيارة العقاد للسودان عام 1943م – كما تشير السجلات التاريخية لهذه الفترة – حدثاً أدبياً كبيراً. وكان العقاد إبان وجوده في الخرطوم ريحانة المجالس والمنتديات الثقافية. ولعل من أهم لقاءاته في الخرطوم المحاضرة التي إلقاها في "دار الثقافة" والتي حضرها حشد لم يشهد له مثيل في خرطوم الأربعينات. ولَحنَ الموسيقار المعروف إسماعيل عبد المعين قصيدة العقاد " يا نديم الصبوات × أقبل الليل فهاتٍ " وغناها في حضرة الأديب الكبير. وأنشد الشاعر والسياسي محمود الفضلي قصيدة العقاد الرائعة التي مطلعها:

أبعدا نرجي أم نرجي تلاقيا × كلا البعد والقربي يهيج مابيا

فإن أنا أحمدت اللقاء فإنني × لأحمد حينا للفراق أياديـــا

ويذكر المؤرخ محجوب عمر باشري في كتابه: " رواد الفكر السوداني : 356" أن العقاد بكي ونزلت أدمعه، وصاح الشاعر حيدر موسى (رحمه الله): "لقد بكي الجبار". وطلب العقاد من محمود أن يزيده فأنشده قصيدته الفستان الأزرق التي مطلعها:–

الأزرق الساحر بالصفاء × فتنة في الأرض والسماء

فصلها مفصل الأشياء × لتلبسه بعد في الأزيـــاء

وإشترك محمود الفضلي بقصيدة وكلمة فأثني العقاد على شعره ونثره ووصفه بـ "الأستاذ". وشارك في تكريم العقاد بنادي الخريجين في الخرطوم ثلة من شعراء السودان الأفذاذ وعلى رأسهم رئيس الوزراء الأسبق محمد أحمد المحجوب، وعلى نور " شاعر المؤتمر" ويوسف مصطفي التني وحسن طه وغيرهم.

وللعقاد صلات قوية بالعديد من أدباء السودان أبرزهم معاوية نور (1909– 1941م) القاص والناقد العبقري والذي رحل عن دنيانا في بواكير الشباب .وبرز ناقداً أدبياً رفيع المستوى في الثلاثينات من القرن المنصرم في الصالونات الأدبية في القاهرة وبيروت. وقال عنه العقاد لو "عاش معاوية لكان نجماً في عالم الفكر العربي" ورثاه بقصيدة منها قوله:–

تبينت فيه الخلد يوم رأيته × وما بان لي أن المنية آتية

وكان للسودانيين مكان خاصة لدي عباس العقاد وأسرته. وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أسرته الكردية الأصل هاجرت من الموصل بشمال العراق إلي السودان إبان عهد الحكم التركي (ولاية إبراهيم باشا) ومنه إلي الصعيد المصري (أسوان).

وإحتضنت داره العامرة بالقاهرة الأديب السوداني معاوية نور. وشهد صالون " العقاد الأدبي " الذي أرخ له تلميذه الأديب أنيس منصور صولات وجولات الشاعر السوداني الكبير محمد سعيد العباسي. ويرى نفر من الكتاب السودانيين أن حب أسرة العقاد لأهل السودان نابع من أصول الأسرة السودانية الممتدة بين أسوان والخرطوم (النوبة السفلي والعليا) والتي تمثل في رأي الكثيرين (أنظر،عمر أبو حراز: جريدة آخر لحظة بتاريخ 2011/5/6م) وهم محقون في ذلك – منطقة الحضارة النوبية العريقة و التي وحدت مصر والسودان منذ الأزل. وفي ذلك الجزء العزيز من وادي النيل .... مدينة أسوان نشأ وترعرع عملاق الأدب العربي العقاد وبها ثوي ضريحه.

ألا رحم الله تعالى العلاّمة عباس محمود العقاد وأجزل له الثواب بقدر ما قدم لأمته العربية والإسلامية من علم ومعرفة ثرّه أضاءت عتمة الجهل ووضعت لبنات راسخة في مسار الفكر الإنساني، إنه سميع مجيب الدعاء

دور خريج كلية الآداب وسؤال الإبداع:النموذج السوداني[1]

الأدب هو ثمرة التفاعل بين الفكر والعاطفة في النفس الإنسانية. وهذا التفاعل له خصوصيته وظرفيته. أما وظيفته فهي تهذيب النفوس وتثبيت القيم الفاضلة والمثل العليا وتنمية الإحساس بالجمال ليس فقط بغرض الإمتاع الذاتي بل أيضاً لتدبر بديع صنع الله تعالى في هذا الكون الفسيح. فالأدب "شعر ونثر وفن وموسيقى ومسرح" لا ينفصم عن "الإنسانيات". لذا لا غرابة أن تربط "الآداب" دوماً بالعلوم الإنسانية حيث يتم التعامل معها بمنهج علمي معين. فالعلم (إنساني وطبيعي) هو معرفة منهجية محققة ومنظمة.

ونلحظ في العقود الأخيرة أن ثمة إنحسار لدور خريجي كليات الآداب والعلوم الإنسانية في المشاركة في الحراك الثقافي بالسودان. وهذه الملاحظة تدعو بالطبع إلى إجالة النظر في الهدف المنشود من التعليم الجامعي بشكل عام وفي جانبه النظري على وجه التخصيص فيما يلي الإبداع الأدبي والفني. وكما هو معلوم – فإن الغرض الأساسي للتعليم الجامعي بجانب أهداف أخرى هامة – هو إعداد الإنسان المؤهل القادر على معالجة ما يواجهه من إشكالات حياتية بصورة علمية نقدية لتحقيق مقولات "ارتباط الجامعة بالمجتمع " و " الجامعة بالواقع".

ولا يغرب عن البال أن مناهجنا الحالية أصبحت غير مواتية لتحقيق أهداف العملية التعليمية بصورة ‘مرضِية . فنظامنا التعليمي على المستوى الجامعي – كما هو معروف لأهل الاختصاص – يرتكز في كلياتنا على التربية الإمتصاصية وليس على التربية الإستكشافية. فأصبح المتعلم يعد مستهلكاً سلبياً للمعرفة، وبالتالي لا يعد شريكاً فاعلاً وطرفاً معنياً في بناءها.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من طلاب وخريجي كليات الآداب أصبح لا يهتم البتة بالجوانب التطبيقية لتخصصاته الدقيقة. إذ لا يزال أغلب هؤلاء غير مدرك للمفهوم الحديث "للآداب" التي لم تعد دراسة نظرية بحتة ناهيك عن بذل أي جهد لاكتشاف

---

[1] صحيفة " السوداني " ، العدد (726) بتاريخ 2011/6/18م .

مـواهبهم الأدبيـة والفنيـة. ويرجـع ذلـك بـالطبع إلـى عوامـل عديـدة أبرزهـا فـي ظنـي غيـاب النمـوذج المتمثـل فـي "الأسـتاذ الجـامعي" المهمـوم بالشـأن الإبـداعي داخـل أروقـة كليـات الآداب. فإيقـاع الحيـاة المتسـارع جعـل الهـم الأكبـر لأسـاتذة الجامعـات اللهـاث وراء لقمـة العـيش، إذ لـم يعـد الوقـت كافيـاً لهـؤلاء للتفـرغ للهـم الثقـافي والأدبـي سـيما وأن تكـاليف الحيـاة المعيشـية أصـبحت مرتفعـة. فلـم يعـد الراتـب الشـهري يـوفر للأسـتاذ متطلباتـه الحياتيـة االضـرورية. فبـات التـدافع نحـو المعـاش اليـومي بشـكل أساسـي وإنعكـس ذلـك سـلباً على النشاط الثقافي والإبداعي لخريجي وأساتذة الجامعات.

ولا مشـاحة أن "الآداب" بـالمفهوم الكبيـر لهـذه الكلمـة مـن أهـم الإبـداعات الإنسـانية. لـذا فـإن دراسـاتها (لغـات وإنسـانيات) فـي المؤسسـات الأكاديميـة الجامعيـة – ورغـم أنهـا تنحـو منهجـاً علميـاً صـارماً يخضـع لقواعـد نقديـة عقليـة (مـنهج) – فإنهـا غيـر منفصـمة – أو هكـذا ينبغـي أن تكـون – عـن الحيـاة العامـة والتـي هـي بمثابـة العجينـة التـي يتشكل منها الوعي الإنساني، وعياً بذاته وعلاقته بالآخر وبالحضارة وبالوجود ككل.

ولكيمـا يـتم الـربط تربويـاً بـين قاعـة المحاضـرات والحيـاة الأدبيـة السـودانية لابـد مـن تفعيـل العمليـة التعليميـة. ويجـب أن لا يـتم الركـون فقـط إلـى المنـاهج النظريـة بـرغم أهميتهـا. فلابـد مـن التفاعـل مـع النمـاذج الأدبيـة الواقعيـة فـي السـودان بِحـثِّ الطـلاب علـى إختيـار بحـوثهم سـيما للتخـرج مـن موضـوعات أدبيـة مـن البيئـة المحليـة ولمثقفـين ومبـدعين سـودانيين. ولعـل مـن الإبـداعات السـودانية التـي تحضـرني فـي هـذا المقـام والتـي كـان "للأسـتاذ الأنمـوذج" دور هـام فـي التعريـف بهـا مـا أورده الناقـد العربـي الكبيـر والأسـتاذ السـابق بجامعـة الخرطـوم والجامعـة الأمريكيـة "بيـروت" إحسـان عبـاس. فقـد أفـاض فـي كتابـه الموسـوم بـ "غربـة الراعـي: سـيرة ذاتيـة لمثقـف فلسـطيني" فـي الحـديث عـن الثقافـة والحيـاة فـي السـودان فـي الخمسـينات والسـتينات الماضـية ومـا بذلـه مـن جهـد لنشـر العمـل الإبـداعي لطلابـه المتميـزين فـي جامعـة الخرطـوم والسـاحة الثقافيـة السـودانية. وكـان مـن ثمـرة هـذا الجهـد ظهـور ديـوان "غابـة الأبنـوس" للشـاعر صـلاح أحمـد إبـراهيم ومجموعـة قصصـية لصـلاح وأخـرى للكاتـب علـى المـك ثـم نشـر لاحقـاً ديـوان "غضـبة الهببـاي"

لصلاح أحمد إبراهيم وديوان "الصمت والرماد" لمحمد عثمان كجراي. وقد نشرت كل هذه الأعمال الأدبية بدور نشر بيروتية.

وننوه بأن الاستراتيجية الأكاديمية – التربوية الناجحة لتأهيل خريج الآداب والعلوم الإنسانية تعمل على رفده بقاموس لغوي مكين وذلك بدراسة اللغات وبخاصة الاجنبية حتى يصبح الطالب ملماً منذ ولوجه الدراسة الجامعية بالعديد من تخصصات الدراسات الإنسانية (فلكور، آثار تاريخ، أنثروبولوجيا، فلسفة، علم نفس، علم الجمال ومقارنة الأديان، ...الخ) على أن يختار تخصصه بعد دراسة تمهيدية لمختلف فروع الإنسانيات المشار إليها، فضلاً عن ربط الطالب ببيئته وواقعه الإجتماعي عن طريق إدخال مناهج قادرة على الإجابة عن تساؤلاته في مراحل دراسته الجامعية وحتى يكتمل نضجه العقلي وحسه الوطني بنفس الدرجة.

ولا ريب أن هناك الكثير الذي لم تطله أبحاث في تراثنا القومي. فالإمكانيات المادية تقف دوماً عقبة كأداء أمام العمل على إنجاز المزيد من الدراسات التراثية والمعاصرة (الأدبية والفنية) السودانية. ورغم ذلك نلحظ أعمالاً لافتة في مجال الفلكلور والتراث – معظمها باللغة الإنجليزية. أما في مجال الشعر والموسيقى فلا يزال هناك الكثير الذي ينتظر التنقيب والبحث والدراسة وهذه مهمة المجتمع ككل. وإلى جانب الدور الرسمي، فلمنظمات المجتمع المدني دور مهم في هذا الشأن ونشير هنا إلى أن المنظمات الأهلية والجمعيات الأدبية السودانية التي قامت في العشرينات والثلاثينات من القرن الفائت هي التي قادت العمل الفكري والسياسي الذي أفضى إلى بزوغ فجر الإستقلال.

فإعداد جيل قادر على صياغة أسئلة فكرية وجمالية جديدة تعمل على تخصيب الحياة الأدبية في السودان يتطلب تغيير المناهج التعليمية، فهي (المناهج) المرتكز لإعادة صياغة المفاهيم الفكرية لأبنائنا وشبابنا. ويستوجب ذلك أن تعمل المناهج التعليمية على صياغة النشء قيماً (دينية واجتماعية) ونظماً ومناهج تفكير بأن تركز على الجوانب التحليلية والنقدية في الأعمال الأدبية. وهي – أي هذه الخاصية– التي تعمل على تفعيل الحياة الأدبية السودانية مع تشجيع الشباب لإرتياد المنابر

الفكرية والثقافية. هذا من ناحية، ومن جهة أخرى، لابد من العمل على إخراج العقل الأدبي السوداني من حنينه إلى الماضي بصورة باثولوجية مرضية بإبداع أسئلة حول الراهن والآتي. فالنوستالجيا (الحنين إلى الماضي) دليل على عدم الإقتناع بالحاضر وعدم الرضا عنه. فالرجوع إلى الماضي (التراث) لأخذ الإيجابيات منه شيء مقبول ويجب الحث عليه بشرط أن يكون ذلك الرجوع مرتكزاً على مشروع ثقافي للارتقاء بالراهن. أما إذا كان الحنين إلى الماضي بهدف التشبث به فقط لتعويض معنوي لواقع ثقافي غير مقبول فهذا مرفوض لأن في هذه القراءة التقليدية للراهن الثقافي تنكرًا لذاتيتنا ولفرديتنا بل تنكراً لقدرتنا على الإبداع والإضافة ، فدور المثقف إياً كان يكمن في مقدرته على الإبداع بل والإضافة وتجاوز الراهن. والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الهويات الثقافية في عصر العولمة: منظومة الدول النامية أنموذجاً[1]

لعل من أبرز المشكلات التي تواجه دول "العالم الثالث" النامية بشكل عام في الوقت الحالي هي المحافظة على هوياتها الثقافية في ظل عولمة تعمل على نمذجة الشعوب غير الغربية (قيماً ونظماً ومناهج تفكير)، فهل تستطيع هذه الشعوب حماية نفسها من هذا الغزو الثقافي –الإلكتروني حفاظاً على هوياتها القومية؟ .

ولعل من نافل القول ان الثقافة (culture) – بعكس الحضارة – تقتصر على الجوانب المعنوية من النشاط الإنساني وتتصف بالذاتية والنسبية وغير خاضعة للمعايير القياسية الموضوعية. وتتسم العملية الثقافية بالإبداعية والتفرد، ولذلك فهي غير قابلة للانتقال بسهولة من فترة تاريخية لأخرى. والثقافة بوجه عام تتألف من العالم والشخصية الفردية وتتجلى بشكل واضح في الدين والفلسفة والفن والأدب والأيدولوجيا.

ويرى بعض الباحثين أن نهضة أوربا في القرن السادس عشر تعد تركيباً حققه الزمن والأحداث على الحدود بين الثقافة الإسلامية والعالم المسيحي (أنظر مالك بن نبيّ: مشكلة الثقافة 1984م – ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، القاهرة ، ص97). وحين إتجه العالم إلى إنشاء اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) في (4 نوفمبر 1964م) كان يهدف إلى إحداث تكامل بين العناصر الثقافية للشعوب لتحقيق (تركيب) ثقافة إنسانية بعيد المدى. ولا ريب أن الحربين العالميتين (1914–1918م ، 1939 – 1945م) قد عجلتا في الدفع بإمكانيات خلق اتصال وتعاون بين المجتمعات المختلفة. وحتم ذلك على كل ثقافة ليس فقط إدراك حقيقة مشكلاتها الداخلية والإتصالية بل تجاوز ذلك إلى حقيقة مشكلات أخرى على مستوى عالمي. ولعل دول "العالم الثالث" (آسيا وأفريقيا) قد تنبهت إلى ذلك بُعيد إنقضاء عقد من الزمان على نهاية الحرب العالمية الثانية في مؤتمر دول عدم الإنحياز في أندونيسيا (باندونج) في أبريل 1955م. ورغم أن المؤتمر لم ينعقد أصلاً بشأن المشكل الثقافي العالمي، إلا أن الأحداث السياسية المتلاحقة آنذاك عجلت بتحقيق برنامج ثقافي آفرو– آسيوي (محور جاكرتا – طنجة) في مواجهة نظيره اليورو – أمريكي (محور موسكو – واشنطون).

---

[1] صحيفة " التيار " ، العدد (902) بتاريخ 2012/2/18م .

وتجدر الإشارة إلى أن رؤى مفكري العالم الثالث إزاء الغرب المنتصر في الحرب العالمية الثانية وسيطرته – فيما بعد – على معظم بقاع المعمورة انقسمت إلى ثلاث رئيسية: رؤية عصرانية : تدعو إلى تبني النموذج الغربي بوصفه نموذجاً للعصر كله أو النموذج الذي يفرض نفسه تاريخياً كصيغة حضارية للحاضر والمستقبل. ويبدو أن هذه الرؤية قد تجاهلت – كما فطن إلى ذلك نفر من أهل الرأي – إلى التمايز بين المجتمعات العالمثالثية والغرب تمايزاً لا يقتصر على المسائل الحضارية والعقائدية إنما مغايرة أيضاً في الأوضاع التاريخية والواقع السياسي. وثمة رؤية "سلفية" تدعو إلى تحصين الذات بالتماهي مع التراث والبحث عن سبل درء الخطر الثقافي الأجنبي استناداً إلى الموروث العقدي والثقافي. وهناك رؤية ثالثة تعبر عن موقف انتقائي للثقافة إذ تدعو إلى الأخذ بأحسن ما في النموذجين أعلاه (الغربي والسلفي) والتوفيق بينهما في صيغة واحدة توفر لها الأصالة والمعاصرة. ومن الجلي أن هذه الرؤية التوفيقية لم تفصح عن الآليات الناجعة التي يجب إتباعها للموءامة بين هذين النموذجين برغم التباين الواضح لمنطلقاتهما الأيدولوجية. هذا من جهة ، ومن ناحية أخرى، فإن حركة الواقع العيني تثبت أن مسار الحداثة الغربية لا ينفك يتجسد عملياً ويترسخ في فضاءاتنا الثقافية ونمو معارفنا وتوجهاتنا المجتمعية كما وأن المؤسسات الدولية لا تفتأ تسعى إلى تجذيره عبر هياكلها ومؤتمراتها ، فضلاً عن إكراهات الثورة الصناعية والتقنية مما يعقد الجهود للتوفيق بين هذا النموذج الغربي والنماذج المحافظة من "العالم الثالث" . ومما ذاد الأمر سوءاً الخطاب المبشر بالعولمة (Globalization) والذي يعتبر حدثاً جديداً في نهاية القرن العشرين وفواتيح القرن الجديد. فلا عجب إذن أن بشر المفكر الأمريكي فرانسيس فوكاياما في مؤلفه الموسوم بـ "نهاية التاريخ وخاتم البشر" بالديمقراطية الليبرالية نقطة لنهاية التطور الأيدولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي في ظنه إنها تحمل "نهاية التاريخ". واعتقد فوكاياما أن هناك عاملين أديا إلى إنهيار كل النظم الإستبدادية أولهما: المنطق الإقتصادي للعلم الحديث وثانيها: الصراع من أجل المنزلة وعزة النفس. ولا ريب أن هذه المقولة تعوذها العلمية رغم إستنادها إلى بعض المعطيات الحالية للتطور الإجتماعي، فهي تفترض وضع استاتيكي (ثابت) وليس ديناميكي (متحرك) للتطور البشري السياسي والاجتماعي ، فطالما أن التطور العلمي والاقتصادي لن يقف عند حد معين، لا يستطيع أكثر الناس إيغالاً في الخيال التنبؤ بما ستؤول إليهأ أحوال البشرية خلال العقود القليلة القادمة، فلا مندوحة إذن من القول بأن السياسي

والإجتماعي والإقتصادي لن يقف على حال. وباستقراء للتاريخ نلحظ أن مقولة "نهاية التاريخ" ليست جديدة البتة. فقد إدعى المفكر الألماني "هيجل" في القرن التاسع عشر بأن الليبرالية والتعددية تمثل "نهاية التاريخ". بيد أن ما حدث لاحقاً أن كثيراً من النظم الشمولية ظهرت بعد هذه الدعوة الهيجلية (شيوعية وفاشستية ونازية) كما برزت العديد من المذاهب الفكرية والفلسفية (الوجودية والسيرالية والعبثية والنهلسية) ، علاوة على الكثير من المذاهب والتيارات القومية والدينية مما يدحض هذه المقولة السياسية.

واعتقد الغرب بعد سقوط المعسكر الشرقي أن نموذجه الليبرالي هو الأصلح للبشرية فعمل – ولا يزال – على بسط سلطة وهيمنة تفوق الوصف على كل شعوب الأرض ذات الثقافات المتنوعة بل أصبح مصطلح "العولمة" وبخاصة الثقافية مرادفاً لمصطلح النزعة المركزية الغربية (Western–Centralism). أي اعتبار الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، المركز الوحيد الذي ينسج على منواله ويستمد منه الأسس والمعايير وطرائق العيش.

واستناداً إلى ما سلف، بدأ الكثيرون في دول "العالم الثالث" يشعرون بوطأة العولمة الغربية ويكتشفون أنها ليست بأكثر من قناع لمفهوم "النزعة المركزية الغربية" ومثيرة بذلك مجموعة من التظلمات من عقد النقص والشعور بالتهميش لدى شعوب "العالم الثالث" وبخاصة العرب والمسلمين الذين تأثروا أكثر من غيرهم من أسلوب الهيمنة الغربية (فلسطين والعراق وأفغانستان) مما دفع بعض الراديكاليين منهم (تنظيم القاعدة) إلى مصادمة المركزية الغربية في أكبر بلدانها (أحداث الحادي من سبتمبر 2001م).

ولعل من الأسئلة التي ما فتأت تؤرق المهتمين بالشأن الثقافي مصير الخصوصيات القومية والثقافية لدول العالم الثالث وبخاصة النامية في إطار هذه الهيمنة الغربية. وفي تقدير كاتب هذه الأسطر أن التعايش الثقافي بين مختلف القوميات في العالم لا يتم إلا عبر الحوار واللغة المشتركة ووجود عقلية مهيأة لهذا الأمر . فالإعتراف الثقافي كمدخل للحوار مع الآخر – على حد تعبير المفكر التونسي الدكتور عبد السلام المسدي – هو المدخل الطبيعي للحوار معه. وهو المسوغ القدير لتزكية فعله إذا أنصف وإعتدل ، وللإعتراض عليه إن شط وحاد عن الجادة (د. عبد الوهاب المسدي: نحو وعي ثقافي جديد، كتاب دبي الثقافية (34) مارس 2010م، ص76–77). والمعلوم أن الإعتراف بالآخر هو الهدف الذي أنشئت من أجله منظمة اليونسكو

(UNESCO). ولقد إجتهد كل الذين تعاقبوا على إدارة هذه المنظمة الدولية على ترجمة فلسفتها (البحث عن الوئام الحضاري من خلال الاختلاف الثقافي) وإعتبروها نوعاً من الميثاق غير المعلن. ولما تسنم مختار أمبو – (السنغال) في 14/نوفمبر 1974– إدارة اليونسكو واصل العمل على نهج أسلافه وربما كان أكثر حماسة لأنه كان إبناً للقارة السمراء التي دفعت أكثر من شقيقاتها ضريبة الإستعمار.

ويلزم التنويه إلى أن الولايات المتحدة بدأت ترتب لطرد المدير العام لليونسكو (أمبو) واتهمته بأنه حليف للمنظومة الشرقية المشاكسة للثقافة الأنجلو – سكسونية.وانسحبت من هذه المنظمة الدولية ولم تعود إليها إلا في 29 سبتمبر/ 2004م في ظرف سياسي بالغ التعقيد عندما إعتلى غلاة المحافظين الجدد سدة السلطة في عهد جورج بوش الإبن بهدف بسط ارادتها على اليونسكو وحتى تكون صورتها متماهية مع صورة هيئة الأمم المتحدة التي تقع أصلاً تحت نفوذها. وتومئ هذه الخطوة أن العولمة الغربية أصبحت جزءاً من السياسة الدولية. وتوهمت الولايات المتحدة وحليفاتها أن الخصوصيات الثقافية لبعض شعوب دول "العالم الثالث" (النامية) (العرب مثلاً) بمكونها الروحي (الإسلام) تشكل تهديداً حضارياً للغرب فالصقت تهمة "الإرهاب"بالثقافة العربية – الإسلامية سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (2001م) (أنظر عبد الوهاب المسدي ، مرجع سابق ، ص85–86).

خلاصة القول ، إن دول "العالم الثالث" تواجه خطر الإستلاب الثقافي الكامل ما لم تعمل بأعجل ما تيسر على إحياء تراثها واستلهام ما به من إيجابيات (قيم ونظم ومناهج تفكير) بغرض المحافظة على الجذور والهوية ولتأكيد الذات وبعث الثقة فيها. ولا ريب أن هكذا توجه يتفق ووثيقة اليونسكو القائلة نصاً وحرفاً بأن "الذاتية هي الشرط الحتمي لتقدم الأفراد والجماعات والأمم لأنها التي تحرك الإرادة الجماعية وتشكل أساسها". ووثيقة اليونسكو في إشارتها لخصوصية الهوية الثقافية للشعوب في مواجهة الإعلام الغربي وما يبثه من برامج استلابية تؤكد أن هذه الهوية "تطرح من الآن فصاعداً كمبدأ من المبادئ الدافعة للتاريخ. فهي ليست تراثاً جامداً – ولا مجموعة من التقاليد – بل هي دينامية داخلية. هي عملية إبداع مستمر للمجتمع بموارده الذاتية، تغذيها التنوعات الداخلية القائمة بصورة واعية ومقصودة وتقبل الإسهامات الآتية من الخارج باستيعابها وبتحويلها عند الاقتضاء". ومن ناحية أخرى، فعلى الدول الغربية الكبرى

أن تعمل على إحترام الخصوصيات الثقافية للدول الأخرى بعامة، خاصة وأن البث الفضائي الإلكتروني للأولى عبر الأقمار الصناعية لم يعد فقط مقلقاً للدول التي تباينها نظماً سياسية وإنما صار مقلقاً أيضاً حتى للدول التي تتشابه معها من حيث عقائدها السياسية.

الفصل الثالث

دراسات ومقالات في قضايا المجتمع

البحث العلمي والتنمية في العالم العربي : رؤية مستقبلية[1] :

مقدمة:

للعلم معان عديده؛ فالعلم المطلق يقابل الجهل أي ضد الجهل. والعلم بمعناه العام هو اليقين وهو ضد الشك والظن. أما العلم بمعناه الخاص كأن تقول "علم النحو، علم الفيزياء، وعلم الكيمياء... الخ" فله تعريفات عدة ولعل أقلها تعقيداً ما قاله العلامة الأمريكي جورج سارئون هو:"محموعة معارف منهجية محققة ومنظمة" (G. Sarton 1952).

وتجدر الإشارة إلى أن العلم ليس فقط مجموعة من الحقائق إية عملية – وغالبا ما تكون غير تسلسلية – لإختبار الأفكار. ولابد للأفكار أن تكون قابلة للإختبار – على الأقل من ناحية المبدأ، ويضيف بعضهم أن من الضروري أن تكون قابلة للتفنيد. وتشمل الإختبارات الملاحظة والتجربة. أما النتائج فيجب أن تكون قابلة للتكرار. فالمعرفة التي لا تحقق هذه الإختبارات ليست علمية. فحتى أكثر المكتشفات العلمية إقناعاً إعتبرت ناقصة ومؤقتة وخاضعة دوماً إلى المزيد من البحث والمراجعة والرفض في ضوء المكتشفات الجديدة التي يتم إختبارها علمياً.

وحث ديننا الحنيف على طلب العلم سواء في آيات القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة. وكما هو معلوم، فإن الإسلام من أول يوم نزل فيه الوحي حض أبناءه على طلب العلم وليس أدل على ذلك من ذكر "القراءة" و "القلم" في أول سورة (العلق) استهل بها نزول القرآن الكريم الذي حفل بالكثير من الآيات التي تستثير الذهن وتفتح الأفاق أمام الإنسان للدرس والبحث والتقصي واستقراء آيات الكون التي خلقها سبحانه وتعالى، ثم ليندفع صوب التغير والتطور والإرتقاء وهي عملية ترتبط كل الإرتباط بعجلة الحياة ودورتها المتصلة.

وبما أن العلوم تتجدد بمرور الزمن، الأمر الذي يحتم على الإنسان مواكبة تطوراتها وتجددها وذلك عبر البحث المستمر. ومهما يلغ الإنسان من علم فإن فوقه من هو أعلم منه كما ورد في قوله جل شأنه (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلعِلمِ إِلَّا قَلِيلا [الإسراء: 85] وقال (وَقُل رَّبِّ زِدنِي عِلما [طه: 114]) . وفحوى هذه الآيات البينات أن ميدان العلم واسع وأن الإنسان لابد له من السعي الدؤوب ليدرك بعض ثمرات هذا العلم وإياه أن يظن أنه قد بلغ درجة الكمال والإكتفاء. وأشاد

[1] مجلة الدراسات الانسانية ، جامعة دنقلا ، كلية الآداب والدراسات الانسانية ، العدد (6) ، نوفمبر 2011م: 6-11 .

القرآن الكريم كذلك بمنزلة العلماء إذ قال:(يَرفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُم وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلعِلمَ دَرَجَٰت وَٱللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِير [المجادلة: 11]) (سورة المجادلة، الآية11). وقال أيضا:(آنما يخشى الله من عباده العلماء) (سورة فاطر، الآية12). وعلاوة على ما تقدم، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حث على المداومة على طلب العلم، فقد روي عنه (صلعم) قوله (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، وقوله (اطلبوا العلم ولو في الصين)، وقوله (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها).

وإذا كان ما أوردناه أعلاه من أهمية للعلم وحث من ديننا الحنيف للأخذ به في جميع مناحي حياتنا، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا ونحن في عصر العولمة "Globalization"، ما موقف الأمة العربية والإسلامية إزاء التحديات الجسام التي تطرحها التقنية والمعلوماتية "Technology &Information Age". فأين نحن من مفهوم "المعرفة قوة" وهي مقولة فرانسيس بيكون المشهورة التي سبقه إليها بآلاف السنين إمبراطور الصين "صان تسو" القائل :"المعرفة هي القوة التي تمكن العاقل من أن يسود والقائد الخير من أن يهاجم بلا مخاطر وأن ينتصر بلا إراقة دماء وأن ينجز ما يعجز عنه الآخرون". وجاءت التكنولوجيا يؤكد صحة هذه المقولة بعد أن أصبحت المعلومات والمعرفة أهم مصادر القوة السياسية والإقتصادية والحربية، وتزداد أهميتها يوما بعد يوم في موازين القوة العالمية.

فالعلم اليوم ما عاد جهداً إبداعياً يقوم به فرد بل مشروع ضخم لا تقدر على القيام به إلا المؤسسات الضخمة، فهو عمل منظم ومرتبط بالسلطة السياسية. فالقابض على زمام السلطة يتحكم في برمجة وتشكيل وتوزيع المعلوماتية وبالتالي يمكنه استغلال نظم المعلومات لتسيير دفة الحراك الإجتماعي والسياسي والإقتصادي وفقا لما تفرضه التوازنات والضغوط والغايات (علي1994م، ص 302).

البحث العلمي في العالم العربي:

ولعل من المقولات التي سمعناها ونسمعها على الدوام في عالمنا العربي–الإسلامي ضرورة تنمية القدرات الذاتية وسد الفجوات الحضارية وإمتصاص الصدمات المستقبلية، بيد أن واقع الحال مغاير تماما لتلك المقولة. ويحضرني هنا حديث هام للعالم المصري أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء (1999م) في محاضرة له بقاعة الصداقة في الخرطوم قبل أربع سنوات خلت حيث أبان وهو العارف المستبطن– أن هناك فجوة علمية كبيرة يستحيل تجسيرها

في الوقت الحاضر بين العالم الغربي (أوربا وأمريكا) والدول النامية ومن بينها الأقطار العربية والإسلامية. وأورد العالم أحمد زويل أن ما يصرف على البحث العلمي في العالم العربي لا تزيد نسبته عن 1%من إجمالي الدخل القومي مقارنة بإسرائيل (3%). واتساقا مع ما أورده العالم المصري نلحظ مفارقة غير مبررة بالتأمل في الوضع العلمي بين العالم العربي وإسرائيل، فعدد الكتب والدوريات العلمية التي تصدر سنويا في الأخيرة يبلغ 4000 إصدارة في حين أن العالم العربي ينتج فقط 400 دورية ومؤلفا رغم الإمكانات المالية المهولة للعرب وبخاصة دول الخليج البترولية. وتترجم جمهورية مصر العربية، أكثر الدول العربية سكانا، مائة كتاب في العام مقابل 25 ألف كتاب يترجمها اليونانيون و18 ألف كتاب يترجمها الأتراك، وتترجم كتابا واحدا مقابل ألف سبعمائة كتاب يترجمها اليابانيون. وبلغ عدد معاهد الدراسات الاستراتيجية 15معهدا في إسرائيل لوحدها مقارنة بـ 12 معهد في كل العالم العربي. وتورد بعض الإحصائيات (2008 م) أن نسبة القراءة فى العالم العربي تتراوح بين 5-4%فقط. ويصدر العرب كتابا واحدا لكل 12 ألف إنسان بينما هناك كتاب واحد لكل 500 بريطاني ولكل900 ألماني. ورغم أن عدد الفضائيات العربية وصل الآن 482 فضائية وهو رقم مرشح للزيادة- فما هو مخصص للعلوم والثقافة من هذه الفضائيات لا يتعدى 5% من إجمالي هذا العدد(عراق،2008 م، ص 162).

ويلزم التنويه إلى أن المنطقة العربية والشرق الأوسط وشمال أفريقيا والتي يقطنها أكثر من (377) مليون نسمة لا تحظى بتمثيل لائق في الفضاء الإلكتروني حيث يقوم (56) مليون شخص (17) فقط من مستخدمي الإنترنت بالبحث باللغة العربية

(http://www.albidapress.com

وتراهن شركة غوغل (Google) على حدوث قفزة هائلة فى استخدام الإنترنت بالعالم العربي خلال السنوات القليلة، مؤكدة أنه يرجح ارتفاع مستخدمي الإنترنت في العالم العربي خلال

الثلاث سنوات الآتية بنسبة 100% مما يجعل من العالم العربي سوقا مهما لمنتجات التكنولوجيا (المرجع نفسه) .

ويرى العديد من الباحثين أنه على رغم نسب الإستعمال المرتفعة في بعض البلدان العربية، فلا يزال العرب مجرد مستهلكين للمنتوج الرقمي حيث يعاني العالم العربي من هوة رقمية مزدوجة تنتصب بينه وبين العالم المتقدم وكذلك تفصل بين بلدانه المختلفة نفسها. ويرجع ذلك لعدة أسباب مثل ضعف الإستثمارات المخصصة لهذا القطاع، عدم التنسيق بين بلدان المنطقة، بالإضافة إلى ضعف انتشار اللغة العربية نفسها على شبكة الإنترنت ويشكل الناطقون بالعربية في الشبكة العنكبوتية الدولية (41% من سكان العالم) (المرجع نفسه) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس التنفيذي لمحرك غوغل الذي أشاد بقمة أبوظبي للإعلام العربي (2010 م) واصفا إياها ب «قمة السحر» أكد أن معدلات النمو في استخدام الإنترنت في العالم هي في الشرق الأوسط حيث ثلث السكان هم دون الرابعة عشر من العمر وبعد أربع سنوات سيكونون جيل مستخدمي الإنترنت (المرجع نفسه) .

ويخطط مسئولو غوغل في سعيهم لاستمالة الشباب العربى الذي يمثل الفئة الكبرى من السكان، التوسع في عدد من دول العالم العربي، حيث أسست الشركة أخيرا مركزا إقليميا في القاهرة. كما أطلقوا العديد من المنتجات لتلبية إحتياجات المتحدثين باللغة العربية(المرجع نفسه).

وتشير دراسات حديثة إلى أن التقدم العلمي وتوطين التكنولوجيا ليست من أولويات الأقطار العربية و الأفريقية .وليس أدل على ذلك من ضعف الإنفاق العام في مجال التعليم في هذا الأقطار إذ لا تزيد أكثر ميزانيتها تفاؤلا عن 2% من إجمالي الإنفاق العام سنويا. ويلزم التنويه إلى أن التقديرات الأولية لحجم الإنفاق في مجال التعليم في العالم العربى حتى عام 2015م تصل إلى 154 مليار دولار. وهذا المبلغ لا يفي بالطبع بالحد الأدنى مما هو مطلوب للتواصل مع ثورة المعلوماتية وتوطين العلم في المجتمعات العربية (على،1994 م، ص 399).

وغني عن القول الإشارة إلى التكنولوجيا المعقدة التي توصلت إليها البحوث العلمية في الدول المتقدمة (أوربا وأمريكا الشمالية واليابان) وتشمل تكنولوجيا المعلومات والإتصالات التكنولوجية الحيوية والنانوية وتكنولوجيا المواد الجديدة وهي المحرك الرئيسي للثورة التكنولوجية التي سوف يشهدها العالم حتى عام 2020م على الأقل. فلا توجد – بالطبع – رؤية عربية شاملة لهذه الرباعية التكنولوجية الحاسمة، بل لا توجد كما ينوه الباحث نبيل علي في مؤلفه الموسوم ب "العقل العربي ومجتمع المعرفة" رؤية عربية موحدة لأي منها على حده ، باستثناء

إستراتيجية عربية في مجال تكنولوجيا المعلومات والإتصالات وضعت على عجل تلبية لمطالبة مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلوماتية التى عقدت دورتها الثانية في تونس في العام 2005م. ولم تحدث بعد إنتهاء القمة أي متابعة جادة لتحويل هذه الإستراتيجية العامة إلى خطط إجرائية أو إستراتيجيات قطرية تنبثق منها وتعود لتصب فيها عدا بعض مبادرات أحادية قامت بها منظمة الأمم المتحدة لإقليمي غرب آسيا(الأسكوا) كان أخرها المؤتمر الذي عقد بدمشق (سوريا) في يونيو 2009 م لمتابعة ما أنجز على الصعيد العربي. وأوردت مؤسسة البحوث العالمية "رائد Rand" دولتين عربيتين ضمن عينة ضمن (21) دولة تمثل أقاليم العالم المختلفة وذات مستويات متباينة من حيث القدرة التكنولوجية (منخفضة، متوسطة، عالية وعالية جدا) وتطبيقاتها المتنوعة ، غير أنها أدرجت الدولتين العربيتين "مصر والأردن" ضمن الفئة المنخفضة القدرة (المتخلفة) وفقاً لمصطلح الدراسة في حين أدرجت إسرائيل ضمن الفئة العليا التي شملت الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وألمانيا (علي،2009م،ص 258).

وللإرتقاء بالعالم العربي إلى «مجتمع المعرفة» فقد أعد أكثر من ثلاثين من المفكرين المسلمين والمحللين السياسيين ، تقريرا بحجم كتاب (2003م) بتمويل من الصندوق العربي للتنمية الإقتصادية والإجتماعية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. واعتبر هذا التقرير وثيقة الأمل في نهضة العالم العربي، إذ يقوم على مبادئ خمسة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

-حرية الرأي والتعبير والانتماء.

-جودة التعليم وتوفيره.

-إدخال العلوم في المجتمع العربي... والانضمام إلى ثروة المعلومات بتصميم.

-تطوير أنموذج للمعرفة العربية المستنيرة يشجع على التفكير الناقد، وحل المشكلات

والإبداع ، مع الترويج للغة العربية، والتنوع الثقافي، والانفتاح على الثقافات الأخرى (توفلر،2008 م،ص 586).

ويستبان من وثيقة الأمل لنهضة العالم العربي: «أن جزءا كبيرا من النشاط الإقتصادي العربي مركز على السلع الأولية مثل الزراعة، التي لا تزال تقليدية في معظمها» في حين أن صناعة البضائع الرئيسة ، والصناعات التي تشمل تقنيات عالية لا تزال في تراجع مستمر (المرجع نفسه، ص 587). وأشار التقرير أعلاه إلى بحوث التطوير ودلالتها. فعدد العلماء المسلمين المشتغلين في البحوث والتطوير في العالم العربي لكل مليون نسمة لا يزيد عن ثلث نسبتهم في

العالم في حين أن العرب يشكلون 5% من سكان العالم، لكن الدول العربية لا تنشر أكثر من 1.1% من كتب العالم (المرجع والصفحة نفسها).

ومن النقاط الرئيسة التي ذكرها التقرير مدى انعزال العرب عن بقية الجنس البشري في مجالات العلوم والتقنية. ولمعالجة هذا الوضع السالب لتاريخ الثقافة العربية مع العالم الخارجي أعلن التقرير أن «الانفتاح ، والتفاعل، والامتصاص، والتمثل، والمراجعة ، والنقد، والتفحص ، لا يمكن إلا أن تحفز إنتاج المعرفة المبدعة في المجتمعات العربية «(المرجع نفسه، ص588).

خاتمة:-

وإستنادا إلى ما تقدم ذكره، فإن صورة الوضع العلمي والتكنولوجي في العالم العربي تبدو حالكة القتامة، إذ تزال مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا تعاني الأمرين من نقص في التجهيزات والبنيات التحتية ناهيك عن تخلف المناهج والانفصال شبه التام بين التعليم وسوق العمل، عدم تكافؤ فرص التعليم وتعدد مساراته (ازدواجية بين تعليم النخبة والعامة)، سلبية المعلمين بوجه عام وعزوفهم عن المساهمة في حركة الإصلاح والتجديد التربوي، عدم فاعلية البحث العلمي ،إنصراف أساتذة الجامعات عن البحث وعدم رسوخ مناهج البحوث وإنقطاع إستمرارية المشاريع البحثية)، تخصص المبعوثين في الخارج في مجالات علمية لا صلة لها بالحاجات الضرورية لمجتمعاتنا، تدني مستوى الخريجين (تحصيل ومهارات)،الفاقد التربوي، فضلا عن فقدان مجتمعاتنا ثقتها في المؤسسات التعليمية من دور الحضانة إلى الجامعة ومن الإدارة المدرسية إلى القيادة العلمية والسياسية ومن تأهيل للمدارس وتطويرها مناهج التعليم إلى مراكز البحث العلمي (بدران، 1988م،ص215). والحال كذلك، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: إلاما نعيش عالة على الغرب؟. فكل ما هو موجود لدينا من تكنولوجيا ومعلوماتية نقل نسخي من أوروبا وأمريكا (الولايات المتحدة وكندا) يتجاوز الأطر والبني التحتية التي يعمل النسق الإنتاجي التكنولوجي في مدارها.

ولكيما نستطيع أن نلحق بركب العلم والمعلوماتية مواكبة للتقدم الحضاري يجب زيادة الإنفاق في مجال التعليم والبحوث وتوطين العلم. وأهم من كل ذلك لابد أن تتغير مفاهيمنا التقليدية نحو العلم ودوره في الحياة. وقد أدى غياب المفهوم التاريخي لنظام العلم كما هو معروف- أن إنزلقت المؤسسات التعليمية في العالمين العربي والإسلامي إلى إتجاه المحاكاة والتقليد وإلى القفز إلى نهايات العلوم دون وجود أرضية يرتكز عليها للإستفادة من هذه النهايات ودون أن يكون لذلك صلة بالواقع الإجتماعي والإقتصادي. وأسميت هذه النزعة حسب مقولة أحد المفكرين ب «العلموية»(المرجع نفسه،ص 222). وأصبحت تشكل جزءا من عقلية النخبة المتعلمة

والمتخصصة في العالمين العربي والأفريقي. وإذا ما أضيفت إليها نزعة تطوير المجتمع من خلال استيراد أحدث ما أنتجته أسواق التكنولوجيا من أجهزة ومعدات وأنظمة مع التجاهل التام للأسس الفكرية–الفلسفية التي استندت عليها هذه الإنجازات العلمية التي كانت في كثير من جوانبها – حلولا لمشكلات مجتمعات غربية ذات تطور تاريخي مغاير وواقع حضاري يباين واقعنا؛ فإننا نعمل دونما وعي على تغييب" الرؤية التاريخية لسيرورة التطور الصناعي" مما يفضي بنا إلى العجز عن توظيف الفكر في استقصاء المضامين العلمية للظواهر الإنتاجية وظواهر تقدم المجتمع من خلال آليات العلم والتكنولوجيا.

ومهما يكن من شأن، فلابد من الأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا أيا كان مظانها مع الحفاظ على ثوابتنا العقدية والتمسك بموروثاتنا الثقافية التي تتواءم وروح العصر. ولا ريب أن تجارب بعض البلدان التي كانت حتى القرنين الماضيين تشابهنا واقعا حضاريا وارتقت حاليا إلى مصاف الدول المتقدمة (اليابان والصين وكوريا الجنوبية وسنغافورة) لجديرة بالإحتذاء والتقبيس. فهلا شمرنا عن سواعد الجد لإستعادة أمجاد أسلافنا الذين كانوا حداة ريادة فكرية وعلمية للإنسانية جمعاء، نأمل ذلك والله المستعان.

المصادر والمراجع:-

1- Sarton G. 1952. Introduction to the History of Science (vol.1) Carnegie Institution of Washington. Publication no.376.Baltimore:3

2- سورة الإسراء ، الآية رقم (58) .

3- سورة طه ، الآية رقم (14).

4- سورة المجادلة ، الآية رقم (11).

5- سورة فاطر ، الآية رقم (28).

6- على ، نبيل ، العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (184)، الكويت،1994م، ص 302 .

7- عراق ، ناصر . حول " التقرير العربي الأول للتنمية الثقافية" . مجلة دبي الثقافية، العدد (43) السنة الخامسة ، ديسمبر 2008م ، ص 162 .

8- http://www.albidapress.com

9- المرجع نفسه .

10- المرجع نفسه .

11- المرجع نفسه .

13-على ، نبيل . 1994م ، مرجع سابق ، ص 399.

14-علي ، نبيل . العقل العربي ومجتمع المعرفة . مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول(الجزء الأول). سلسلة عالم المعرفة (369) ، الكويت ، 2009م ، ص 285-260.

15-توفلر ، هايدي والفن. الثورة واقتصاد المعرفة (ترجمة الدكتور محمد زياد يحيي كبة). سلسلة إصدارات (برنامج مجتمع المعرفة) بجامعة الملك سعود في الرياض (1429هـ/2008م) ، إدارة النشر والمطابع ، ص 586-587.

16-المراجع نفسه ، ص 587.

17-المرجع والصفحة نفسها .

18-المرجع نفسه ،ص 588.

19-بدران ، إبراهيم . " حول مفاهيم العلم في العقلية العربية " ، الفلسفة العربية المعاصرة (مواقف ودراسات) . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ديسمبر 1988م ، ص215-237.

20-المرجع نفسه ،ص 222 .

في ذكرى اليوم العالمي للمعلم:5 تشرين/أكتوبرمن كل عام[1]:
منظومة التعليم العربي إلى أين؟

يحتفل العالم بذكرى اليوم العالمي للمعلم الذي يوافق الخميس 5 تشرين الأول/أكتوبر من كل عام منذ عام 1994وهو بمثابة إحياء لذكرى توقيع التوصية المشتركة الصادرة من منظمة العمل الدولية ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة(اليونسكو) عام 1966 والمتعلقة بأوضاع المعلمين في المنظومة التدريسية.وأول مايتبادر إلى الذهن عند الحديث عن المعلم والتعليم في العالم العربي رؤي عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين. فقد أولى العميد إهتماماً خاصاً بالمنظومة التعليمية سواء في مصر أو البلاد العربية.وأوضح أن المواطنة،الرؤية العلمية والمهنية هي الأهداف الكبرى للتعليم .وكانت دعوته لإصلاح حال التعليم إنطلاقاً من رؤية شاملة لإحداث النهضة الحضارية المرتجاة.

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن التدهور الذي حل بقطاع التعليم في العالم العربي والدعوات المتكررة لتقويم العملية التعليمية وتجويد الأداء الأكاديمي للحاق بركاب الأمم المتقدمة. وما فتئ خبراء التعليم يعقدون الندوات والمؤتمرات للتفاكر حول أسباب إنهيار مخرجات التعليم والعمل على إيجاد الحلول لمشكلاته المتمثلة في البنيات التحتية، الإجلاس، تأهيل الكادر التدريسي ، البيئة المدرسية، إصلاح المناهج، ضعف رواتب ومخصصات المدرسين، فضلاً عن غياب الجانب التربوي في العملية التعليمية (التعليم العام). وإذا أضفنا إلى ذلك معوقات التعليم العالي المتمثلة في نقص التجهيزات والبنيات التحتية ، تخلف المناهج والإنفصال التام بين التعليم وسوق العمل، عدم تكافؤ فرص التعليم وتعدد مساراته (إزدواجية بين تعليم النخبة والعامة)، سلبية الأساتذة بوجه عامة وعزوفهم عن المساهمة في حركة الإصلاح والتجديد التربوي ، عدم فاعلية البحث العلمي (إنصراف أساتذة الجامعات بوجه عام عن البحث وعدم رسوخ مناهج البحوث وإنقطاع إستمرارية المشاريع البحثية) ، تخصص المبعوثين في مجالات علمية لا صلة لها بالحاجات الضرورية للمجتمع، تدني مستوى الخريجين (تحصيل ومهارات) ، فإن مجتمعاتنا دون شك قد فقدت ثقتها في المؤسسات التعليمية من دور الحضانة إلى الجامعة، ومن الإدارة

[1]موقع " سودانيل" الأسفيري ، بتاريخ 2013/11/3م .

المدرسية إلى القيادة العلمية والسياسية ، ومن تأهيل للمدارس وتطويرها مناهج التعليم إلى مراكز البحوث.

وما أشبه حال العالم العربي اليوم بالبارحة فمنذ ما يقرب من تسعة عقود من الزمان تنبه نفر من أهل الرأي والفكر وفي مقدمتهم عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن أُس إنهيار التعليم العربي هو غياب "نظام للتعليم" وهو ناتج عن سببين أو سبب واحد له مظهران مختلفان وهو أن المشرفين على العملية التعليمية ليسوا من رجال التعليم أصلاً ، وإنما كلفوا أن ينظروا في التعليم فقاموا بما كلفوا به في غير كفاية ولا إجادة ، وظهر ضعفهم أو قلة كفايتهم في مظهرين مختلفين: الأول أنهم أساءوا فهم التعليم فتورطوا في الخطأ تلو الخطأ، ونشأ عن هذا ما شوهد من سوء نتائج التعليم على إختلاف طبقاته من الوجهة العقلية والخلقية معاً. الثاني أنهم سلكوا في إدارة التعليم السبيل التي يسلكها غيرهم في إدارة الأموال والإستثمار التجاري أو في إدارة الأجهزة الأمنية فلم يقدروا ما تحتاج إليه إدارة التعليم من روح الحرية والديمقراطية قدره، بل كانوا مستبدين ، وكانوا مركزيين ، ونجم عن هذا ما يصيب المدرسين من ضروب العبث والإستبداد.

ولم يكتف طه حسين بإصلاح العلل والأمراض ولكنه قدم الكثير من المقترحات والحلول لنهضة التعليم في مصر والمنطقة العربية. ونوه إلى أهمية إصلاح مناهج التعليم وبرامجه وإلى الإهتمام بالثقافة التي لابد منها إذا أرادت الأمة العربية كما ذكر أن تحيا حياة صالحة. ودعا إلى تعلم اللغات القديمة والحية وألحّ على هذا الرأي في كتابه المشهور "مستقبل الثقافة في مصر" (1936م). وأشار إلى إنصاف المعلمين وتهيئة الظروف المناسبة لهم ماديا ومعنوياً وإشراف الأكفاء على التعليم لأنهم وحدهم المنوط بهم إقالة التعليم من عثرته وإشاعة روح الرغبة الخالصة في العلم من حيث هو علم. كما دعا طه حسين إلى أن تكون الصلة بين وزارة التعليم وبين الرأي العام قوية ومتينة. وأن يهتم المسئولون بما يوجه إليهم من نقد بغية الإرتقاء بالتعليم ومخرجاته منذ عصر طه حسين(1919-1952م).

ويقول الدكتور ياسر الهياجي الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض في مقال له بعنوان"تحية إجلال لكل المعلمين"بمناسبة هذا اليوم العالمي:"إن المعلمين هم أهم الموارد التعليمية على الإطلاق-وهو محق في ذلك-لأنه لا يمكن أن نوفر التعليم الجيد دونهم.غير أن الأعداد

الحالية للمعلمين لا تتطابق في إطار ماحدد من أهداف التعليم للجميع.وهذا هو سبب الدعوات التي وجهتها منظمة اليونسكو مع شركائها في المجتمع الدولي لزيادة الإستثمارات المتعلقة بالمعلمين".ويعود الوعي العالمي بهذا اليوم إلى منظمة إديوكشنال إنترناشونال بغرض إتخاذ موقف لأجل مهنة التدريس يعمل على توفيرالتدريب الملائم والتنمية المهنية المستمرة وحماية حقوق المعلمين."

ولاريب أن كل الدول التي تقدمت في مدارج الحضارة إرتقت بالمعلم والعملية التعليمية كما هو الحال في الغرب(الولايات المتحدة وكندا وأروبا) والصين واليابان وكوريا الجنوبية والبرازيل وسنغافورة وغيرها.ففي الصين يعطى المعلم شقة مجهزة ويدفع له الماء والكهرباء ويتسلم أعلى راتب بين الموظفين.وفي البرازيل أغنى شخص لديهم المعلم ولديهم قانون بفتح المصارف أمام المعلم ومخول له بأخذ مايحتاجه.وفي روسيا يطبق نفس نظام البرازيل.وفي سنغافورة والنرويج أعلى راتب يعطى للمعلم ويعادل راتبه 6 أضعاف راتب الوزير في الأخيرة.لذا نجد أن كل الدول التي إهتمت بالمعلم والعملية التعليمية أصبحت دول كبرى ومستقرة وهي من أفضل الدول إقتصاديا وعلميا.أما الدول التي لم تهتم بالمعلم والمنظومة التعليمية فهي كما نرى الأكثر جهلا وتخلفا ويسود فيها العنف وعدم الإستقرار.

ويبدو أن عالمنا العربي والإسلامي لم يتقدم بخطى ثابتة لسد الفجوات الحضارية التي تباعد بيننا وبين الغرب المتقدم والعمل على إمتصاص الصدمات المستقبلية. فلا زلنا نسمع مقولات تنمية القدرات الذاتية ، ومواكبة عصر المعلوماتية وإقامةمجتمع المعرفة ، بيد أن واقع الحال مغاير تماماً لتلك المقولات. ويحضرني هنا حديث مهم للعالم المصري البروفيسور أحمد زويل(رحمه الله) الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء (1999م) في محاضرة له بقاعة الصداقة في الخرطوم قبل عدة سنوات خلت حيث أبان أن هناك فجوة علمية كبيرة يستحيل تجسيرها في الوقت الحاضر بين العالم الغربي (أروبا وأمريكا) والدول النامية ومن بينها الأقطار العربية والإسلامية . وأورد أحمد زويل أن ما يصرف على التعليم في العالم العربي لا تزيد نسبتة عن (1 – 2 %) من إجمالي الدخل القومي مقارنة بإسرائيل (3 – 5%).وتشير بعض الإحصائيات أن ما خطط له من ميزانيات مالية للتعليم في الأقطار العربية حتى العام 2020م لا يزيد عن 150 مليار دولار. وهذا المبلغ بالطبع ضئيل ولا يفي بالحد الأدنى من متطلباته.وغنى عن

القول الإشارة إلى التكنولوجيا المعقدة (المعلوماتية والإتصالات، التكنولوجية الحيوية والثانوية وتكنولوجيا المواد الجديدة) وهي المحرك الرئيسي للثورة التكنلوجية التي يشهدها العالم اليوم، فلا توجد بالطبع – رؤية عربية شاملة لهذه الرباعية التكنولوجية الحاسمة، بل لا توجد رؤية عربية موحدة لأي منها على حده باستثناء إستراتيجية عربية في مجال تكنولوجيا المعلومات والإتصالات وضعت على عجل تلبية لمطالبة القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي عقدت دورتها الثانية في تونس في العام 2005م. ولم تحدث بعد إنتهاء القمة أي متابعة جادة لتحويل هذه الإستراتيجية العامة إلى خطط إجرائية أو إستراتيجيات قطرية تنبثق منها وتعود لتصب فيها.

وللإرتقاء بالعالم العربي إلى "مجتمع المعرفة" فقد أعد أكثر من ثلاثين من المفكرين المسلمين والمحللين السياسين تقريرا بحجم كتاب (2003م) بتمويل من الصندوق العربي للتنمية الإقتصادية والإجتماعية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية . وأعتبر هذا التقرير وثيقة الأمل في نهضة العالم العربي، إذ يقوم على مبادئ خمسة تشتمل حرية الرأي والتعبير والإنتماء ؛ جودة التعليم وتوفيره ؛ الإنضمام إلى ثورة المعلومات ؛ تطوير أنموذج للمعرفة العربية المستنيرة تشجع على التفكير الناقد وحل المشكلات والإبداع مع الترويج للغة العربية والتنوع الثقافي والإنفتاح على الثقافات الأخرى . ويستبان من النقاط الرئيسية التي ذكرها التقرير مدى إنعزال العرب عن بقية الجنس البشري في مجالات العلوم والتقنية. ولمعالجة هذا الوضع السالب لتاريخ الثقافة العربية مع العالم الخارجي أعلن التقرير أن "الإنفتاح، والتفاعل ، والإمتصاص ، والتمثل ، والمراجعة ، والنقد، والتفحص، لا يمكن إلا أن تحفز إنتاج المعرفة المبدعة في المجتمعات العربية.

وإرتكازاً إلى ما سلف ذكره، ولكيما نلحق بركب العلم والمعلوماتية مواكبة للتقدم الحضاري العالمي، يجب زيادة الإنفاق في مجال التعليم والبحوث وتحسين الوضع الإقتصادي للمعلم، وتوطين العلم. ولعل أهم من كل ذلك لابد أن تتغير مناهجنا التقليدية نحو العلم ودوره في الحياة . وقد أدى غياب المفهوم التاريخي لنظام التعليم أن إنزلقت المؤسسات التعليمية في العالمين العربي والإسلامي إلى إتجاه المحاكاة والتقليد وإلى القفز إلى نهايات العلوم دون وجود أرضية يستند عليها للإستفادة من هذه النهايات ودون أن يكون لذلك صلة بالواقع الإجتماعي والإقتصادي. وأسميت هذه النزعة بـ "العلموية" وأصبحت تشكل جزءً من عقلية النخبة المتعلمة . وإذا ما أضفنا إلى ذلك إستيراد أحدث ما أنتجته أسواق التكنولوجيا في العالم من معدات وأجهزة

وأنظمة مع التجاهل التام للأسس الفكرية – الفلسفية التي إستندت عليها هذه الإنجازات العلمية – التي كانت في كثير من جوانبها – حلولاً لمشكلات مجتمعات غربية ذات تطور تاريخي مغاير ، وواقع يخالف واقعنا، فإننا نعمل دون شك على تغييب الرؤية التاريخية لسيرورة التطور الصناعي مما يفضي بناء إلى العجز عن توظيف الفكر في استقصاء المضامين العلمية للظواهر الإنتاجية وظواهر تقدم المجتمع من خلال آليات العلم والتكنولوجيا.

ومهما يكن من شأن ، فلابد من الأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا أياً كانت مظانها مع الحفاظ على ثوابتنا العقدية والتمسك بموروثاتنا التي تتلاءم وروح العصر. ولا ريب أن تجارب بعض البلدان التي كانت حتى القرنين الماضيين تشابهنا واقعاً حضارياً وارتقت حالياً إلى مصاف الدول المتقدمة (اليابان، الصين،البرازيل، كوريا الجنوبية، وسنغافورة) لجديرة بالإحتذاء والتقبيس. فهلا شمرنا عن سواعد الجد لإستعادة أمجاد أسلافنا الذين كانوا حداة ريادة فكرية وعلمية للإنسانية جمعاء. والله المستعان.

من تاريخ التعليم في السودان :

أم درمان الأهلية الثانوية (1968 –1972م): ذكريات الصبا[1]

تعتبر فترة الطفولة والصبا من أهم وأجمل الفترات في حياة الفرد فهي تتسم بالبراءة في السلوك والحركة الدؤوبة والشقاوة وحب الإستطلاع والمغامرة. ولا تزال ترتسم في الذاكرة نثار صورة نضرة من فترة الصبا بكل ما فيها من أفراح وأشجان. ولعل من أبرز ذكريات هذه الحقبة الدراسة الثانوية التي تعتبر المرحلة الأكثر حساسية في حياة المرء إذ أنها تمثل منعرجاً مفصلياً في مشوار الحياة المترع في كثير من الأحايين بكل ما هو جديد ومثير.

ما دعاني للتقدمة السالفة حزمة خواطر وذكريات لا تزال تتداعى بين الفينة والأخرى دونما ترتيب مسبق في المخيلة لفترة ذاهية قضاها كاتب هذه الأسطر وثلة من أبناء جيله بمدرسة أم درمان الأهلية الثانوية الحكومية. وتجددت هذه الذكريات العطرة إثر دعوة تلقاها من الصديق وزميل الدراسة الثانوية الصحفي الأستاذ محمد موسى حريكة قبل سنوات عديدة للالتقاء بنفر من زملاء الدراسة بأم درمان الأهلية الثانوية تداعوا – بمبادرة منه – للتجمع في أمسية جميلة بحدائق الموردة بأم درمان بهدف جمع شمل أبناء الدفعة (1968–1972م) الذين تفرقت بهم سبل الحياة لما يقارب الأربعة عقود من الزمان بعيد تخرجهم في هذه المؤسسة التعليمية ذات التاريخ التليد. و لا ريب أن أول ما يتبادر للذهن عند ذكر إسم "مدرسة أم درمان الأهلية" الحركة الوطنية السودانيه في نضالها ضد المستعمر البريطاني عندما ضيق الفرص التي يلقاها أبناء السودان في المدارس فأنشأت المعاهد التعليمية الوطنية، وكانت المدرسة الأهلية (الوسطى والثانوية) أحد أبرز البصمات التعليمية لقادة مؤتمر الخريجين(1938م) الذي تكللت جهوده بحصول هذا الوطن العزيز على إستقلاله في غرة يناير 1956م.

وبرغم أن المجموعة التي حضرت ملتقى أبناء دفعة (1968م) كانت قليلة العدد بسبب شواغل الحياة وإغتراب البعض خارج الوطن إلا أن ذلك اللقاء المصغر أعاد لنا بانوراما جميلة لذكريات عذبة وزمان أخضر كانت فيه العلائق الإجتماعية كأمتن ما تكون إذ أن صروف الزمان ورياح العولمة لم تهب وقتها لتنثر كثيراً من ثوابتنا الإجتماعية. ومرت ساعات اللقاء

[1] صحيفة "السوداني" ، العدد (1672) بتاريخ 2010/7/23م .

سراعا ونحن نجتر ذكريات بهيجه ونكشف ثانية عن قفشات وطرائف لا تزال عالقة بالذاكرة. ولعلي – بحكم تخصصي في الآثار والتاريخ القديم – كنت الوحيد بين الجمع أحدق بنظرات ثاقبة متفرساً في أبناء الدفعة الذين شارفوا منتصف الخمسينات من العمر، إذ وخط الشيب رؤوسهم وحرث الزمان أثلام وجوههم، بيد أن بعضاً من حيوية وروح دعابة لا تزال هنالك لم تفارق هذا الرهط من شباب السبعينات المنصرمة.

ومما لاريب فيه أن لكل خريج من المدرسة الأهلية الثانوية ذكريات عطرة يفوح عبقها مسكاً وطيباً على مر السنين وتوالى الأجيال. ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر "المدرسة الأهلية" الحركة الوطنية السودانية في نضالها ضد المستعمر البريطاني عندما ضيق الفرص التى يجدها أبناء السودان في المدارس الأميرية، فأنشأت المعاهد التعليمية الوطنية. وكانت الأهلية "الوسطى والثانوية" أحد أبرز البصمات التعليمية لمؤتمر الخريجين (1938م) الذى قاد النضال السياسي حتى كلل باستقلال هذا الوطن العزيز فى غرة يناير 1956م.

وإستلهم المؤسسون للمدرسة الأهلية الثانوية الروح الوطنية لقادة الإستقلال فبدأت الدعوة لقيام هذه المؤسسة بمقال نشره البكباشى أحمد عقيل في صحيفة "صوت السودان" في مارس 1945م. وتكونت لجنة من كبار أعيان مدينة أمدرمان لعرض الأمر على مدير المعارف للتصديق بقيام المدرسة. وأصر مدير المعارف البريطاني آنذاك على عدم السماح بقيام المدرسة الثانوية لسببين – كما يرى – هما عدم توفر المال اللازم لأن التعليم الثانوى كانت تكلفته كبيرة حينها كما وأن عدد المدرسين غير كافٍ لقيام مدرسة جديدة. وعند إجتماعه بلجنة المدرسة (عمر إسحاق، سيد أحمد سوار الذهب، عثمان صالح، محمد أحمد البرير، الأمين عبد الرحمن، الدرديرى محمد عثمان، إسماعيل الأزهرى الكبير والبكباشى نور. وأحمد حسن عبد المنعم) إنتفض الشيخ أحمد حسن عبد المنعم وكان عن طريق الصدفة يحمل دفتر شيكاته وقدم لمدير المعارف شيكاً بتوقيعه ليكتب المبلغ المطلوب حتى تقام المدرسة. فما كان من مدير المعارف إلا أن رد الشيك ووافق على قيام المدرسة الأهلية دون قيد أو شرط بعد أن أدرك جدية اللجنة وإصرارها على تنفيذ ما قررته (أنظر: أ. د.معتصم أحمد الحاج؛ "التعليم الأهلي فى أم درمان2009م": 19–20) كما منح المدرسة قطعة أرض (ملكية عين) فى شمال أم درمان إكتملت مبانيها بتبرعات أهالى أم درمان وبدأت الدراسة فيها فى مطلع 1945م.وتم تحويلها إلى

مدرسة حكومية بمقرها الحالي عام 1955م.وأصبحت أحد المدارس الثانوية الكبرى في السودان .وكانت أم درمان الأهلية الثانوية المنافس الأول للمدارس الثلاث الشهيرة بالبلاد(وادي سيدنا،حنتوب وخورطقت).وخلال العقود الثلاثة منذ تأسيسها(1955م) كانت قائمة الشرف للشهادة الثانوية السودانية لاتخلو من طلابها.

وحضر لقاء جمع الشمل من الزملاء د. محجوب مكي علي (طبيب)، الزين محمد أحمد الدوش (مهندس زراعي) ، جلال الدين النويري (أستاذ جامعي)، محمد موسى حريكة (صحفي) ، العقيد (م) حسن مصطفى إبراهيم ، د. كمال كوكو (إقتصادي) ، عصام الدين أبو سالف ومحمد عثمان عبد العزيز (رجال أعمال) بالإضافة لشخصي الضعيف لله. وتطرق الجميع لذكريات طيبة إبتدرت بالأيام الأولى بُعيد القبول بالمدرسة الاهلية الثانوية حيث الإنضباط الصارم والذي يتابع الإشراف عليه مجموعة من الأساتذة على رأسهم مدير المدرسة المربي القدير الطيب شبيكة (رحمه الله). ولعل من أبرز علائم الإنضباط التربوي والإداري الإجتماع الإسبوعي مع الطلاب في باحة المدرسة إذ كان بمثابة "برلمان" يقدم فيه المدير تقريراً شاملاً عن الأحوال الدراسية والإدارية وما يجابه المدرسة من مشاكل مع تقديم الحلول المقترحة ، علاوة على الإستماع لمشاكل الطلاب والإجابة عن تساؤلاتهم في ما يلي الدراسة والمناشط المختلفة (اللاصفية). وكان مدير المدرسة ورؤساء الأقسام وبقية أعضاء الهيئة التدريسية يحثون الطلاب دوماً على التميز والتفوق الأكاديمي والثقافي حتى تعتلي المدرسة مكاناً علياً ضمن منظومة المدارس الثانوية السودانية مع الحفاظ على السمعة الطيبة (سلوكاً وإنضباطاً) داخل وخارج الفصول الدراسية.

وتلزم إدارة المدرسة الطالب بضرورة الحفاظ على المظهر العام المتمثل في الهندام النظيف ، إذ كان الزي الرسمي حينها يتكون من رداء (شورت) وقميص رمادي نصف كُم عليه شارة طبع عليها كتاب مفتوح تتوسطه شعلة أشبه بنار برومثيوس في الأسطورة الإغريقية كناية عن نور العلم. وكنا نمشي في الطرقات إختيالاً يتملكنا شعور بالزهو والحبور ونحن نرتدي هذا الزي المدرسي الجميل ولما لا ؟ فقد كانت المارة في الطرقات ترمقنا بنظرات الرضا بإعتبارنا صفوة طلابية قُيِّض لها الإلتحاق بهذه المدرسة العريقة.

بلغ عدد طلاب المدرسة الأهلية في أواخر الستينات (1968م) ومطلع السبعينات (1972م) ما ينيف عن الأربعمائة طالباً موزعين في العديد من الفصول الدراسية التي حملت أسماء الآباء المؤسسين (نور، إسماعيل ، عمر، أحمد حسن ، عثمان صالح والبرير)

وتوجد بداخل المدرسة داخلية صغيرة يسكن فيها عدد قليل من الطلاب القادمين من خارج العاصمة المثلثة بينما تقطن الغالبية منهم الأحياء المجاورة للمدرسة (العمدة، ودنوباوي، أبو روف والثورات). وعندما تم تحويل مدرسة وادي سيدنا الثانوية إلى كلية عسكرية بعد قيام نظام مايو (1969م) نقل بعض أساتذة وطلاب هذه المدرسة الرائدة إلى أم درمان الأهلية الثانوية.

وللمدرسة مسجد يعج دوماً بالمصلين، إضافة إلى الطلاب الذي كانوا يقبعون بداخله حيناً للإستذكار سيما في مواسم الإمتحانات. وثمة مكتبة غنية بالمراجع العربية والإنجليزية تجد إهتماماً كبيراً من الطلاب الذين تميزوا بالتفوق الدراسي. وكانت المنافسة بينهم شديدة للغاية ويندر أن تجد طالباً يحتل ذيل القائمة في النتيجة العامة للامتحانات بسبب اشتراك الغالبية في المراتب المتقدمة مما يؤمئ بتقارب المستويات الأكاديمية.

وأبدت إدارة المدرسة إهتماماً لافتاً بالنشاطات اللاصفية وخصصت للنشاط الرياضي زمناً معلوماً في الجداول الدراسية وكان الطلاب يزاولون ضروباً متنوعة من الرياضة (كرة القدم، السلة ، الطائرة ، تنس الطاولة) تحت إشراف متخصص في التربية البدنية. ومن أبرز أبناء دفعتنا في المجال الرياضي لاعب المريخ السابق والمدرب المعروف محمد عبد الله (مازدا) وحاتم أمير (لاعب فريق أبوروف السابق والأستاذ في كلية الاقتصاد بجامعة الجزيرة) وعبد الدافع محمد عبد الدافع (الكاملين).

وضمت جمعية المسرح بالمدرسة الأهلية الثانوية في بواكير السبعينات عدداً من أبناء الدفعة أبرزهم عبد الله السيد، محمد الأمين حميدة ، السيد بن عمر عبد العزيز وعبد الرحيم محمد خبير. وإتسمت هذه الجمعية بالنشاط الإبداعي المستمر إذ ظلت تشارك في كل المناسبات والإحتفالات الخاصة بالمدرسة والتي يبرز فيها الطلاب إبداعاتهم الفنية والأدبية ، فضلاً عن إقامة المعارض العلمية والثقافية التي يؤمها أولياء الأمور والأقارب ولفيف من التربويين. وللمدرسة جمعية للموسيقى ذات حضور دائم في الإحتفالات المدرسية والدورات القومية. أما

جمعية الوسائل السمعية والبصرية فقد إهتمت بالإشراف على إذاعة المدرسة الداخلية التي كانت تبث على مدار اليوم الدراسي المدائح النبوية والأغاني والأناشيد الوطنية كما كانت تتعاون مع إدارة المدرسة لترتيب أجهزة التلفاز التي تستخدم لعرض البرامج التعليمية ذات الصلة بالمنهج العلمي المقرر.

كان التدريب العسكري بالمدرسة الأهلية الثانوية بأمدرمان (الكديت – Cadet) إختيارياً وتميز أداؤه بالإنضباط والحزم. وإنخرطت مجموعة من أبناء الدفعة في هذا النشاط أبرزهم مطرف صديق نميري، محمد محجوب عبد الرحمن (بلورة) ، عادل كمال حاج الخضر ، محمد موسى حريكة ،ادريس يشرى، حمزة عباس، حسن مدثر الحجاز، حسن مصطفى إبراهيم، محمد الربيع، عمار خالد، حسن وداعة الحسن ، حاتم الياس ومحمد عثمان عبد العزيز (منقا) وصلاح الشيخ،عبدالرازق محمد عبدالرازق والرشيد البنا. ويشرف على الكديت ثلاثة من الصولات هم رمضان، سمير، ورابح. وكان الغياب من الكديت دونما عذر مقبول يعرض صاحبه لجزاء رادع.

ولا ينسى أبناء دفعتنا الحوارات السياسية الساخنة التي كان مقرها الرئيسي كافتيريا الطلاب، وتشمل التنظيمات السياسية في المدرسة الأهلية الثانوية في ذلك الزمان: الإتجاه الإسلامي ، الجبهة الديمقراطية،حزب الأمة،الإتحادي الديمقراطي كما ظهرت مجموعة سياسية جديدة تمثل المايويين باسم تنظيم الإتحاد الإشتراكي السوداني". وكانت فعاليات هذه التنظيمات السياسية تستعين بكوادرها المدربة. من خارج المدرسة وبخاصة من جامعة الخرطوم لإقامة الندوات السياسية. ويلاحظ أن السجالات السياسية بين طلاب هذه التنظيمات السياسية كان يشتد أوارها أحياناً وترتفع درجة حرارتها دونما عنف أو خروج عن السلوك العام إذ سرعان ما يفيء هؤلاء الطلاب إلى الهدوء بعد إنتهاء النقاش ويغادرون المكان أخواناً متحابين وليس بينهم سوء تفاهم.

ولعل من اللافت للإنتباه لأبناء دفعتنا وربما للدفعات اللاحقة التي درست بالمدرسة الأهلية الثانوية في عقدي الستينات والسبعينات التجهيزات المتكاملة لمختبرات العلوم التطبيقية (الفيزياء، الكيمياء والأحياء) إذ ذودت بكل إحتياجاتها من أجهزة ومواد معملية وكان يشرف عليها فنيون حاذقون للمهنة. أما الهيئة التدريسية للمدرسة فقد ضمت كواكب نيرّة من الأساتيذ لا تزال الذاكرة تحتفظ بأسماء بعضهم. وأذكر منهم: محمد عبد القادر كرف، محي الدين فارس،

محمد بابكر دشين (ثلاثتهم شعراء مشهورون) ، سيد الياس سيدهم ، الزين محمد وبركات إبراهيم بركات (قسم اللغة العربية) ؛ مستر وليمز (رئيس قسم) ، مستر هنتر(بريطانيان)، عبد الرحمن شداد ، محمد سعد دياب (شاعر معروف)، السر حمزة، التيجاني أبو القاسم ، بشير عامر، إبراهيم أمبابي ، سر الختم نورين (قسم اللغة الإنجليزية)؛ عبد المنعم إبراهيم ، عثمان دبلوك ، كمال حسن شمينا، عبد الرحمن العاقب، عمر حسن الطيب الهاشمابي، محمد عثمان الدرديري (قسم التاريخ) ؛ حسين الغول، خليل سمساعة، السر مكي ، محمد عوض، محمد نورين ، صلاح عوض الكريم (صلاح ماس)، جلال نصر (فلسطيني) (قسم الرياضيات)؛ محمد إدريس (الشهير باللويّر – Lawyer) ، تاج السر عطية ، عبد الرحمن حسن، عوض الصاوي، احمد غبوش (قسم الجغرافيا)؛ عبد الله سمساعة، نايف عبد الله مسعود (فلسطيني) (قسم الفيزياء) ، محمد قباني وعاصم إسكندر (قسم الأحياء) وعبد العزيز محمد عبد العزيز (قسم الكيمياء) ، حسن إسحق وحسن محمد خير (قسم الفنون). أطال الله عمر من كان على قيد الحياة والرحمة والمغفرة لمن رحل إلى دار الخلود.

ولا مندوحة من ذكر أسماء بعض الزملاء الذين إشتهروا بخفة الظل والسخرية المحببة للنفس وهم: خليفة عمر سليمان (من أبناء منطقة الفششوية– النيل الأبيض) وعادل كمال (إداري بالخارجية) ، والزين محمد أحمد الدوش (مهندس زراعي) وإبن عمر عبد العزيز (مهندس ميكانيكي) وألفة "فصل أولي نور" عبد الله السيد (موظف بوكالة سونا) وعادل عبد الباري ، فتحي عبد المطلب ، عبد الرحمن الشنقيطي ، حامد أمير الصاوي ومحمد محجوب (بلورة) (أطباء) ، عزمي زين العابدين طه (مهندس كهربائي) ، محمد عثمان عبد العزيز وعباس فضل الله ، حسين حسن تربال (رجال أعمال) ، جلال الدين النويري وبشرى محمد أبو شورة (أساتذة جامعيين) ، عثمان الصاوي عبد الماجد (طبيب بيطري) (رحمه الله).

وكانت الصحف الحائطية للمدرسة الأهلية الثانوية ترفدنا بمقالات ثرّة تعريفية بالأدباء السودانيين في مقدمتهم العلاّمة عبد الله الطيب والروائي الطيب صالح والشعراء محمد المهدي المجذوب وصلاح أحمد إبراهيم ومحمد المكي إبراهيم ومحمد عبد الحي ومصطفى سند ومحي الدين فارس وغيرهم. وكان أستاذنا في مادة اللغة العربية (البلاغة) الشاعر القدير محمد عبد القادر كرف من المعجبين بعبد الله الطيب. ولكم أتحفنا بقراءات لنصوص شعرية من دواوينة مع

التعليق عليها وإبراز ما فيها من محاسن وإبداع. ولا تزال الذاكرة تحتفظ بتفاصيل درس في البلاغة ألقاه على مسامعنا الأستاذ كرف بحضور صديقه شاعر الحقيبة المعروف إبراهيم العبادي وأتبعه ببعض الأسئلة التي أجاب عنها الطلاب بإمتياز. وأعجب العبادي بمستوى الطلاب وتفاعلهم مع الدرس وقال نصاً حرفاً مخاطباً أستاذ كرف "هؤلاء التلامذة أدباء بحق وحقيقة " ويبدو أن نبوءة إبراهيم العبادي قد تحققت فنبغ نفر من أبناء دفعتنا في الشعر والخطابة والنقد الأدبي ، أذكر منهم جلال الدين النويري الذي كثيراً ما إتحفنا بأشعاره العذبة وإدريس البشرى محمد سعيد الخطيب المفوه ومحمد السر طه (المحامي) المحاور والمتحدث اللبق والسر أحمد طه صاحب الأسلوب الأدبي المميز والذي وظفه في الإعلام الرياضي، ومحمد حسن فقيري الطبيب الأديب. وبرز في الإعلام الصحفي من أبناء الدفعة محمد موسى حريكة (صحيفة الأيام سابقاً) وعثمان ميرغني عبد الله (مدير تحرير صحيفة الشرق الأوسط السعودية). أما زميلنا كمال كوكو فقد كان فناناً تشكيلياً متميزاً ، غير أنه لم يتخذ من الفنون مهنة وإتجه في دراسته الجامعية للإقتصاد ليصير مستشاراً إقتصادياً لأحدى الشركات السعودية.

ولعل من أبرز الفواجع التي عاصرتها دفعتنا (1968–1972م) استشهاد مجموعة من الزملاء غرقا في النيل الأزرق بتاريخ 1969/9/27م بمنطقة ودراوه (الجزيرة) حيث كانوا في رحلة ترفيهية خلال عطلة نصف العام الدراسي وهم: أبو القاسم حسن محمد، أبو مدين ميرغني موسى، أحمد الفكي محمد رحمة، عبد الباسط حسن أبو مدين وعبد الرؤوف عثمان كردش (تغمدهم الله برحمته).

وثمة إشارة هنا، وهى أن خريجى المدرسة الأهلية بأم درمان شديدو الإعتزاز بإنتمائهم إليها ولا يعتبرونها مجرد أبنية يقبع بداخلها السجل التاريخى لماضى تعليمهم فى زمن الصبا وألق الشباب الباكر، بل ينظرون إليها في المقام الأول بإعتبارها صرحاً وطنياً تاريخياً يرمز لنضال أهل السودان بعامة ومواطني أم درمان على وجه الخصوص فى مجال التعليم الأهلى والذي تماهى مع الحركة الوطنية السودانية (1938–1956م) من أجل تنمية الوعى القومى وتحقيق الأهداف الوطنية الكبرى وأبرزها إستقلال البلاد من ربقة الإستعمار البريطاني. لهذا فهم حريصون أيما حرص على هذا الرمز التاريخي إستمرارية وتطويراً لأنه يمثل ذاكرة الأمة فى حقل التربية والتعليم.

وإستلهاماً لهذه المجاهدات العظيمة لأسلافنا الأماجد فى كل الميادين وبخاصة فى مجال التعليم، فقد تداعى نفر من خريجي مدرسة أم درمان الأهلية الثانوية إلى تشكيل رابطة للخريجين ظهرت إلى حيز الوجود فى (2011/11/26م) برئاسة الدكتور سيف الإسلام سعد عمر (رحمه الله) ومحمد موسى حريكة سكرتيرا وتولى التكليف بعده عبدالرحيم محمد خبير ومنتصر أبارو أميناً للمال وعضوية (15) خريجاً آخرين. وأبرز أهداف هذه الرابطة الإهتمام بالمدرسة وتوفير إحتياجاتها وإسترداد حقوقها بالوسائل القانونية والعمل على خلق وتقوية الروابط الإجتماعية والثقافية بين الخريجين مع تنفيذ المشروعات المقدمة من المجلس التربوى لتأهيل البنية التحتية وتهيئة الأجواء الأكاديمية المعافاة. وأستطاعت الرابطة – برغم عمرها القصير – تنفيذ بعض المشروعات أهمها فتح حساب بنكي، تأهيل المكتبة العامة والإلكترونية والمسرح المدرسي وتوفير ماكينة تصوير ناسخة وصهريج مياه مع تنسيق مدخل المدرسة "تشجيراً وتزييناً" وانشاء موقع الكتروني "Web–Site" بغرض تمتين التواصل بين الخريجين وبينهم وإدارة المدرسة والمجلس التربوي.

ومما لاريب فيه أن واحداً من أهم أهداف رابطة الخريجين إعادة مبانى المدرسة التى تشغلها حالياً جامعة الزعيم الأزهرى (كلية التربية) بعقد إستضافة إنتهى أجله منذ عدة سنوات..و بعد إنتهاء الدورة الأولى لرابطة الخريجين تكونت فى يونيو 2013م لجنة تمهيدية جديدة للرابطة برئاسة الدكتور عبدالرحيم محمد خبير ومنتصر أبارو أميناً للمال والدكتور أحمد قاسم "الوزير الولائى للتخطيط العمراني بولاية الخرطوم سابقا"ومحمد صديق عمر الإمام المحامي (رحمه الله)والمشرف الإجتماعي للرابطة المهندس الصادق يحي وصديق حسن الترابي،. وقابلت هذه اللجنة الدكتور المعتصم عبد الرحيم وزير التربية والتعليم الأسبق بولاية الخرطوم(رحمه الله)

(2013/6/12م) والذى وعد بدراسة موضوع مبانى المدرسة الأهلية الثانوية وعودة الأمور إلى وضعها الطبيعي. ولكن لم تخطرنا وزارة التربية والتعليم منذ ذلك الحين وحتى عهد وزيرها الجديد بما تم في هذا الموضوع حتى اللحظة حتى نتمكن من إرجاع مبانى المدرسة المستضافة فيها جامعة الأزهري والإستفادة منها بشكل متكامل فى تنفيذ الخطط الآنية والمستقبلية لهذه المؤسسة الأنموذج مع تذليل كافة الصعاب التى تقعد بها عن أداء رسالتها على الوجه الأكمل بإعتبارها منارة تعليمية قومية رائدة ترتكز على إرث تاريخي مؤثل. والله المستعان.

ملامح من العيد في أم درمان أيام زمان[1]

العيد وما أدراك ما العيد. لا ريب أن للعيد فرحة لا تضاهيها فرحة وبهجة لا تدانيها بهجة. فالعيد لغة : إسم لما يعود من الإجتماع العام على وجه معتاد. ويقول صاحب لسان العرب (العيد هو كل يوم فيه جمع: 3159). فهو اليوم الذي يظهر فيه الفرد الحبور والسرور ويهنئ الناس بعضهم بعضاً ويتزاورون ويتصافحون ويعفو بعضهم عن الآخر سيما وأن ديدن العيد هو التصافي والتسامح وتفريغ النفوس مما علق بها من أوشاب الحياة. فالعيد في كلياته تجديد لإيقاع الحياة الرتيب كما يعنى أيضاً التواصل وصلة الأرحام ومعاودة الأهل والأصدقاء والمعارف . وهو – أي العيد – ظاهرة إجتماعية و/ أو دينية تلازم كل المجتمعات الإنسانية بمختلف مللها ونحلها. أما نحن معشر أمة المسلمين فقد شرع الله لنا عيدين هما: عيد الفطر وعيد الأضحى. وتتبع أهمية العيد من أنه يأتي بعد نهاية عبادة (صيام رمضان ويليه عيد الفطر ، وأداء مناسك الحج ويعقبه عيد الأضحى).

ولا تخلو أدبياتنا السودانية من مأثورات وأشعار فرحاً بالعيد وإبتهاجاً بمقدمه. وتحضرني هنا أبيات لشاعرنا الكبير محمد محمد علي صاحب "ظلال شاردة" في قصيدة له موسومة بـ "إشراقة العيد" إذ يقول في أبيات منها:

حرك دفوفك صائحاً بقوافي جذلان في فرح البلاد الضافي

ودع الجداول تنطلق مزهوة دفاقة في الروضة المئناف

واقتبس نشيدك من وضئ ساحر من كل مزدهر ومن شفاف

من بسمة الأطفال من أحلامهم من بهجة آلالاف بالآلاف

من كل مرنان وكل مغرد من كل بادٍ في الشعور وخافي

جمّع نشيدك وانطلق مترنماً لزفاف قومك في أجل زفاف

---

[1] جريدة " الصحافة " ، العدد (2514) بتاريخ 2008/12/14م .

يوم وما الأيام من أضرابه عيد وما كالعيد في الأوصاف

ولا مندوحة أن لكل إنسان ذكريات في العيد سواء في القرية أو المدينة. ولعل ذكريات الطفولة والصبا هي الأكثر إلتصاقاً بالمخيلة التي ما عادت هذه الأيام قادرة على إختزان الكثير من أحداث الماضي القريب ناهيك عن الماضي البعيد خاصة وأن إيقاع الحياة المتسارع بصورة مذهلة لم يترك للكهول والشيوخ فسحة من الزمن لإسترجاع شذرات من تلكم الذكريات التي تستمد أهميتها من أنها تبين لأبنائنا وأحفادنا واقع حياتنا الطارف والتليد.

وإرتبطت أجمل ذكريات العيد بالطفولة. ولا شك أن لفترة الطفولة والصبا وقع خاص في النفس، فهي من أجمل الفترات في حياة الفرد، إذ تتسم بالبراءة في السلوك والحركة الدؤوبة والشقاوة وحب الإستطلاع . ولا تزال ترتسم في الذاكرة نثار صورة نضرة لأيام العيد في الزمان الماضي بكل ما فيها من أفراح ومفارقات. وتعود بي الذاكرة إلى حقبة الستينات ومطلع سبعينات القرن المنصرم، لمهد الطفولة والصبا بأحد أحياء أم درمان العريقة ألا وهو حي بيت المال الذي تنفست فيه عبير الحياة لأول مرة. ومثل بقية أبناء الأحياء القديمة كان أبناء حي بيت المال وبعد الفراغ من صلاة العشاء والتراويح في ليالي رمضان العامرة يدلفون إلى الشوارع الواسعة لممارسة ألعاب التسلية مثل " شليل وينو" و "شدت – حرينا" و "أم الصِلص" و "سجك – بجك " . كما كنا نتبارى في ليالي ذلك الشهر المقمرة مع أندادنا من الأحياء المجاورة " أبو روف ، ودأرو، السيد المكي والملازمين" .. وبعيداً عن الفوائد النفسية لهذه الألعاب الشعبية المتمثلة في تزجية أوقات الفراغ والترويح عن النفس، فقد كان مردودها الإجتماعي إيجابياً حيث أفضت إلى علاقات إنسانية لا تزال وثيقة العُرّى برغم تقادم السنوات.

وبعد الإنتهاء من اللعب نفيء إلى الهدوء ونعود أدراجنا للسمر أسفل أعمدة الكهرباء ذات الإضاءة الخافتة ، فنضع الخطط والتجهيزات للعيد (رمضان أو الأضحى) الذي كان يمثل لنا قمة السعادة والهناء. ويلزم التنويه إلى أن الإستعدادات تشمل ثلاثة جوانب: أولها مساعدة الأهل في نظافة المنازل وتزيينها في الإسبوع الأخير السابق للعيد، إختيار نوعية الملابس والأحذية المتوقع شراؤها ، فضلاً عن

تحديد خيارات أماكن الترفيه والإحتفالات والتسلية التي نود إرتيادها خلال أيام العيد مع الأهل و الأصدقاء والأنداد في الحي. وثمة إشارة هنا، وهي أن أماكن الترفيه بمحافظة الخرطوم في ذلك الزمان كاانت محدودة ، وأبرزها جنينة النزهة (حدائق الحيوان –كانت تحتل المكان الحالي لبرج الفاتح) ، حدائق مقرن النيلين، حديقة القرشي (الخرطوم نمرة 3) ، حديقة عبود (الخرطوم بحري) ، علاوة على الإحتفالات الشعبية في العديد من الميادين العامة آنذاك (ميدان العرضة بأم درمان ، ميدان عبد المنعم بالخرطوم وميدان عقرب بالخرطوم بحري) ويضاف إليها المسرح القومي بأم درمان وبعض دور العرض السينمائي بالعاصمة المثلثة . ومَثَل إفتتاح قاعة الصداقة(حي المقرن) في مطلع السبعينات بما تحتويه من مسرح وسينما وصالات وأسواق موسمية نقلة نوعية في وسائل الترفيه والتنزه آنذاك.

وكانت "وقفة العيد" ولا تزال تمثل يوماً فوق العادة. ولما كانت المخابز الحديثة ضئيلة العدد وقتذاك ، إرتات العديد من الأسر الأمدرمانية أن تجهز خبائز العيد في المنازل. ويشترك جميع أفراد الأسرة في هذا العمل، فالأمهات والأخوات والفتيات يقمن بعمل صنوف متنوعة من الكعك والبسكويت (المنين) والبتي فور باستخدام مناقيش متنوعة الأشكال والأحجام . ويشارك الصبية والأطفال بحمل صواني الخبائز إلى الطابونة(المخبز) التي كانت تستخدم الحطب وقوداً . وكان الذهاب إلى الطابونة والمكوث أمامها لساعات غير قليلة بسبب الزحام وإلى أن يتم نضج الخبائز يمثل تجمعاً إجتماعياً إستثنائياً وفرصة مواتية للتثاقف ، بتبادل الأخبار ومناقشة شتى المواضيع التي تهم أهل الحي وربات البيوت على وجه التخصيص مما يقوي الروابط الأسرية ويعضد النسيج الإجتماعي. وفي عيد الأضحى كان "الخروف" يمثل للصغار قمة المتعة والإبهار .وعادة يشتري الناس الأضحية في يوم الوقفة فتزدحم الشوارع والزرائب بالبهائم التي كانت أسعارها في متناول الجميع.وترى الصغار يتقافزون هنا وهناك حول الخروف الذي يربط في مكان بمؤخرة حوش المنزل .ويبدو البشر والسعادة على محياهم وهم يقهقهون ويتصايحون عند سماع صوت الخروف (مأمأة) بين الفينة والأخرى. ولايخلو بعضهم من شقاوة فتراهم يمدون حزمة من القش للخروف وما أن يهم

بتناولها حتى يسحبها الطفل خوفاً من أن يقضم الخروف أصابع يده. ويستمر مسلسل الخروف الى أن يحين موعد ذبحه بعد صلاة العيد. وتظل ذكرى هذا الحدث "الدرامي" مركوزة في ذاكرة الأطفال والصبية إلى سنوات عديدة آتية.

والملاحظ أن تجهيز الملابس الجديدة للعيد، كان معظمه يتم عن طريق الخياطة ، إذا لا يحبذ الكثيرون الألبسة الجاهزة سواء أكانت محلية أو مستوردة. وظهر على الساحة الأمدرمانية ترزية معروفون في خياطة الملابس الرجالية لعل من أبرزهم في سوق أم درمان الكبير (محمد الديب، مهدي شريف والشيخ أحمد الشيخ) . ومجموعة تخصصت في خياطة الملابس النسائية ومن أشهرهم (التوم بارودي والنعيم بكراوي ومحمد سنما) وآخرون لا تسعفني الذاكرة بإيراد أسمائهم.

وعلى الصعيد الأسري ، كان حدث العيد يجد إهتماماً خاصاً، إذا كان معظم أفراد أسرتنا الممتدة من كبار السن على قيد الحياة في حقبة الستينات ويقطنون على مقربة من بعضهم في العديد من أحياء أم درمان القديمة (بيت المال، أبوروف، الركابية والمسالمة) . وتعود بي الذاكرة إلى النصف الأول من الستينات الماضية ، إذ كان للعيد في أسرتنا (آل خبير وآل شمام) طعم خاص بوجود عميدة الأسرة الجدة"الحبوبة" (من جهة الوالد) ست النفر بت شمام والتي كانت تمثل واسطة العقد بين أهلها كما كانت دائمة الإعتزاز بأنها سليلة شمام الكبير (شمام بن دياب بن العقليين بن الشيخ عجيب المانجلك) مك العبدلاب الذائع الصيت وحفيد عبد الله جماع – مؤسس أول دولة إسلامية في السودان عام1504م.

وكان أطفال العائلة يوم "الوقفة" لا يغشاهم النوم حتى الهزيع الأخير من الليل ، فالكل في حركة مائجة من نظافة وتنظيم للمنزل مع ترتيب لأثاثه على بساطته في ذلك الحين. أما ملابس العيد والأحذية فقد كانت توضع على مقربة من مضاجعهم. وبرغم السهر نصحو مبكراً للإ ستحمام وارتداء ملابس العيد والأحذية الجديدة. وبعد هنيهة يهرع الجميع إلى الشارع عند سماع "بوري" البص(البدفورد) المعد لأفراد العائلة الذين يتقاطرون من المنازل المجاورة بإتجاه (الأتومبيل)– على حد تعبير الحبوبة "بت شمام" – ليقلهم إلى جبانة "أحمد شرفي" بودنوباوي بغرض زيارة قبور الموتى من

الأهل والترحم عليهم ورفع الفاتحة على أرواحهم الطاهرة. ويعود الجميع سريعاً للحاق بصلاة العيد التي يؤديها أهالي حي بيت المال بجامع السيد المحجوب الختم الميرغني والتي يحرص الكل عليها مع الإستمتاع بأهازيج الختمية الدينية الجيدة السبك والرائعة الأداء والتي تنشد في مثل هذه المناسبات.

وبعد الفراغ من أداء شعيرة صلاة العيد تبدأ المعايدات ، إذ يتوافد الناس فُرادي وزُمراً لزيارة بعضهم البعض، والسرور والبهجة تعلو وجوههم ،إذ تسمع على الدوام عبارات "العيد مبارك، كل عام وأنتم بخير، القابلة على منى والعفو لله والرسول" وغيرها من عبارات المودة والتسامح والفأل السعيد. أما الأطفال والصبية فهم يزورون أهاليهم في الأحياء المختلفة وتقدم لهم "العيدية" أي "هدية العيد" على هيئة خبائز و "حلويات" وعملة معدنية (فئات التعريفة والقرش والفريني "القرشين") . ويلاحظ أن ملابس الأطفال سرعان ما يعتريها بعض الإتساخ (بقع من الدهون والغبار) ولا يعبأ الصغار بهذا إذ كان همهم الأساسي هو الحصول على العيدية وإكمال مشوار الفرح لليوم الأول من العيد.

أما ألعاب الصبية والأطفال فتشمل المسدسات والمزامير والبالونات والدُمي وصناديق "شختك بختك" الكرتونية الصغيرة الأحجام التي تعرض للبيع في العديد من الأسواق و الساحات الشعبية وأبرزها في بيت المال "ساحة سوق ام سويقو" و "دكاكين الطاهر خال العيال" وسوق الشجرة بأبي روف والسوق الجديد بودنوباوي وميدان حي العمدة والمسالمة وساحة الربيع بحي العباسية والساحة الشعبية بالقرب من سينما بانت وسوق الموردة وسوق الشهداء . وهناك المراجيح التي يعشقها الأطفال وتتسم بالبساطة في الشكل والتركيب مقارنة بنظيراتها المتنوعة والحديثة المنتشرة اليوم في مختلف مدن الملاهي بالعاصمة القومية.

وتخصص بقية أيام العيد للترفيه والتسلية في الحدائق والساحات العامة، ففي الفترة الصباحية كانت "جنينة النزهة" (حديقة الحيوان سابقاً) هي الملاذ الأول للأطفال والصبية والأسر من جميع أنحاء العاصمة المثلثة . ولم تكن زيارة "جنينة النزهة" تقتصر على رؤية الأصناف المتنوعة من الحيوان والطيور والزواحف والإستمتاع

بمناظرها وسلوكياتها المتباينة ، إنما كانت أيضاً بغرض التمتع بما في الحديقة من وسائل ترفيه عديدة كمسارح الأرجوز ومشاهدة ألعاب الحواة والمهرجين . ويختار بعض الشباب الفترة المسائية لمشاهدة الأفلام السينمائية في دور العرض التي كانت عامرة في ذلك الوقت (الوطنية، أم درمان، بانت العرضة والثورة) وتعج بالرواد من كافة شرائح المجتمع الأمدرماني، إذ تقدم فيها أشهر الأفلام المصرية والأمريكية والهندية.

ويقضي الجميع يوماً ممتعاً ملؤه البهجة والسرور قبل العودة إلى الديار وهم سعداء بما حازوه من نصيب في التسلية والترفيه البرئ . وتظل ذكرى العيد وما خالجها من أحداث ومواقف عالقة بالأذهان إلى أن يحين موعد العيد القادم حيث تتجدد ثانية الأفراح والأيام الملاح وكل عام وأنتم بخير.

الألعاب الشعبية لأطفال السودان في عصر العولمة[1]

تعتبر فترة الطفولة من أزهى وأنضر الفترات في حياة الفرد فهي تتسم بالبراءة في السلوك والحركة الدؤوبة والشقاوة وحب الاستطلاع والمغامرة. ولا تزال ترتسم في المخيلة ذكريات الطفولة بكل ما فيها من أفراح وأشجان. ولعل أبرز ذكريات الطفولة الألعاب الشعبية التي يمارسها الأطفال حتى مرحلة الصبا (15–3 سنة) والتي ظلت حتى العقود القليلة الماضية هي المصدر الأساسي للتعلم والتفاعل الإيجابي مع البيئة في كثير من بلدان العالم الثالث. غير أن أهمية اللعب بوجه عام تتجاوز كل ذلك باعتباره وسيلة لتحقيق النمو الكامل المتوازن لدى الطفل حيث يعمل على حمايته من الوقوع في المشكلات النفسية بإتاحته فرص التخلص من التوتر الإنفعالي. ولا تزال المخيلة تحتفظ بنثار صورة نضرة لأيام طفولتنا في ستينات القرن الماضي في مدينة أم درمان (السودان المصغر) ونحن نمارس ألعاب التسلية مثل "شليل وينو" و"شدت – حرينا" و"أم الصلعي" و"سجك بجك" وغيرها في حي بيت المال كما كنا نتبارى في الليالي المقمرة مع أندادنا في الأحياء المجاورة (أبو روف، الخنادقة، ود أرو، السيد المكي والملازمين) في العديد من هذه الألعاب الشعبية.

وفي تراثنا السوداني المندرس (الآثار) هناك العديد من الأمثلة للألعاب التي كان يمارسها الأطفال والصبية (الضَّبع والطاولة والأفعوان الملفوف وغيرها) منذ أزمان موغلة في القدم ليس هذا مقام بسط القول فيها. وسأكتفي هنا بإيراد مثال واحد وهو "لعبة الضَّبع – Hyena Game" في عهد مملكة كوش–مروي (900 ق.م. – 350م) والتي لا تزال تمارس حتى اليوم في بعض السودان (لدى قبائل الكبابيش شمال كردفان) تحت مسمى "لعبة المرفيب". وأشار إلى هذه اللعبة عالم الآثار الأمريكي تيموثي كيندل في بحثه الموسوم "الإثنو–آركيولوجيا في الدراسات المروية 1988م". وتعتمد هذه اللعبة على تحرك "عود" يسمى "الأم – Mother" على سطح دَرْب رملي يتكون من العديد من الحُفر (بضم الحاء). ويلحظ أن الحُفرة في بداية الدَرْب تسمى "القرية"، أما الحفرة الأخيرة (وسط الممر) فهي "البئر". ويستخدم المتبارون (4 أفراد) نرد (ظَهَر) بغرض تحديد خطوات التقدم نحو الهدف. ويتقرر الفوز بهذه اللعبة ببراعة أحد هؤلاء المتسابقين في إيصال "الأم" قبل الآخرين للبئر حيث تمكث هناك لغسل ملابسها ثم تقفل

[1] صحيفة " السوداني " ، العدد الاسبوع (791) بتاريخ 2008/1/25م .

راجعة للقرية. وإذا ما نجح في هذه الخطوة يحوز بالتالي على "عود – Stick" يسمى "الضَّبع – Hyena". ومن ثم يعمل المتسابق المتصدر لرفاقه على تحرك "الضّبع" باستخدام رميات "الظهر" حيث يركض "الضّبع" سريعاً باتجاه البئر للسقيا ثم العودة بخطوات مضاعفة متخطياً أي "أم" راجعة أدراجها القرية لتنتهي اللعبة بفوز المتسابق الذي يكمل هذه الخطوة النهائية.

ويجدر التنويه إلى أن باحثي علم الآثار كثيراً ما يلجأون إلى المنهج الإثنو–آركيولوجي (Ethnoarchaeology) لدراسة الحضارات القديمة (التراث المندرس) استناداً على معطيات (مادية وغير مادية) من التراث المعاش – الفولكلور– السمة الرئيسة للمجتمعات التقليدية المعاصرة. ولكم كنت حفياً بدراسة المخرج التلفزيوني والباحث الشفيع إبراهيم الضو الموسومة "فولكدراما ألعاب الصبية والأطفال في السودان" التي قدمت مطلع الشهر الماضي لنيل درجة الماجستير في كلية الفنون والدراما والموسيقى بجامعة جوبا. وقُيِّض لي أن أكون عضواً بلجنة المناقشة والحكم لهذه الرسالة (ممتحناً داخلياً) والمكونة من الدكتور سليمان يحيى (مشرفاً) والدكتور سعد يوسف (عميد كلية الفنون والدراما والموسيقى بجامعة السودان) ممتحناً خارجياً. وتطرق الباحث لموضوع في غاية الأهمية سيما وأنه يتعلق بالتنشئة الإجتماعية لأطفالنا (نصف الحاضر وكل المستقبل) في ظل المتغيرات الثقافية والإجتماعية المتسارعة على كافة الصعد، المحلية والإقليمية والعالمية وفي أجواء عولمة (Globalization) مبتغاها قولبة الإنسان – وفق المنهج الغربي– قيماً ونظماً ومناهج تفكير.

أجرى الباحث دراسة وصفية تحليلية للألعاب التقليدية في أحد أحياء مدينة أم درمان الشعبية (الحارة 60 الثورة) تقطنها مجموعات إثنية (عرقية) متنوعة متحدرة من العديد من أقاليم السودان مما يسمح بإعطاء صورة بانورامية للألعاب الشعبية التي تنتظم جهات واسعة من أرض المليون ميل مربع. ويلحظ أن الدافع الأساسي للبحث رغبة الباحث في الإهتمام بالجانب التوثيقي الأكاديمي لألعاب الأطفال والصبية في السودان (دراسة حالة) والتي تتهددها مخاطر العولمة المتمثلة في الألعاب الإلكترونية (ألعاب الفيديو والبلاي ستيشن – Play station) التي إجتاحت العالم في الأعوام الأخيرة. وتشير الدراسات التي قام بها مجموعة من الإختصاصيين في عالم الطفولة إلى أن هذه الألعاب تصيب الأطفال بأمراض عصبية ونفسية مثل الأرق والتأتأة في الكلام تماماً مثل الضوضاء والذبذبات المنبعثة من هذه الأجهزة. كما وأن هذه الألعاب

الإلكترونية تجعل الطفل شديد الإرتباط بها فيتسم سلوكه بالإنعزالية والإنطوائية وربما العدوانية إذا ما اشتملت على ألعاب قتالية فيفقد بالتالي جانباً مهماً من علاقاته الإجتماعية سواء في المحيط العائلي أو المدرسي أو الحي. وأطفالنا ليسوا بالطبع بمعزل عما يدور من حولنا في العالم من متغيرات حضارية عاصفة لا يستطيع حتى أكثر الناس إيغالاً في الخيال التنبؤ بمآلاتها.

قسم الباحث دراسته إلى سبعة فصول، فضلاً عن الخلاصة وقائمتي المصادر والمراجع والملاحق. وأفرد الفصل الأول للإطار العام للبحث المتضمن المقدمة ومشكلة البحث وفرضياته وحدوده الزمانية والمكانية والمنهجية التي تبناها الباحث فالمصطلحات والدراسات السابقة. وتحدث الفصل الثاني عن ماهية ألعاب الأطفال وأهميتها وتصنيفاتها مبرزاً أهم خصائصها استناداً إلى الدراسات السابقة. وخصص الفصل الثالث للألعاب الدرامية (اللعب التمثيلي – بت أم قش قش، أبو النصورة وسيد البطيخ)، والفصل الرابع للألعاب الحركية (شليل، الشد – حرينا، لعبة الحبل وسابي تولي)، فالفصل الخامس للألعاب الإستراتيجية (صفرجت، الجكوك، القرقور، أم ماطقير، ألعاب الحظ، الطقاش، كادير وشختك بختك). أما الفصل السادس فاستعرض فيه الباحث ألعاب المهارات الذهنية واللفظية واليدوية (الغلوطية، التسديرة، الألغاز الحركية، سرعة النطق وألعاب الحظ). أما الفصل السابع والأخير فقط سلط الضوء على ثقافة الفيديو لدى الأطفال مبيناً خلفيتها التاريخية ومضمونها الإجتماعي ومقارناً بينها وبين التقليدية بشكل عام ونظائرها في السودان بوجه خاص. وخلص الأستاذ الشفيع إبراهيم إلى نتيجة هامة مفادها أن ألعاب الأطفال والصبية لا تزال تحتفظ بخصائصها التي تشي بقابليتها للإستمرار بإعادة إنتاجها وتحويلها إلى واقع حداثي يلبي حاجات الفرد وذلك بتصميم منهج دراسي لدراسة قواعدها بهدف تحديثها واستمراريتها كلعبة "كادير" و"صفرجت" على سبيل المثال. ولم يغرب عن بال الباحث ضرورة توظيف هذه الألعاب التقليدية –بعد تحديثها– بغرض معرفة المجموعة الإثنية والثقافية لبعضها سيما وأن الكثير من هذه الألعاب وبخاصة الحركية والجماعية (لعبة شليل مثلاً) تمارس في معظم أنحاء السودان.

ولعل أهم مميزات هذه الألعاب الشعبية تنمية الروح الجماعية لدى الأطفال والصبية كما وأنها تغرس فيهم كثيراً من القيم السلوكية والثقافية والإجتماعية والتربوية. ويلحظ أن هذه الألعاب متشابهة إلى حد كبير من ناحية المضمون وبالتالي تصلح كمدخل لتوظيف مثل هذا النوع الثقافي والإثني (العرقي) من أجل تعزيز آصرة الوحدة الوطنية. والرأي أن أية دراسة مستقبلية للألعاب

الشعبية لأطفال السودان تستوجب زيادة حجم العينة المختارة لتضم كل أقاليم السودان هذا الوطن القارة –وهذا ما افتقرت إليه دراسة الشفيع إبراهيم– بغرض تبيان أوجه التشابه والإختلاف بين هذه الألعاب والخلوص إلى القواسم المشتركة بين بعضها. ولا ريب أن الهدف المأمول من كل ذلك إعادة إنتاج هذه الألعاب الشعبية اتساقاً مع روح العصر ولتتواءم في البيئات المتشابهة حتى يصار إلى توسيع دائرة انتشارها خدمة لأغراض الوحدة الثقافية والإجتماعية من جهة ولتشكل حائط صد منيع في وجه الغزو الثقافي الأجنبي بألعابه الإلكترونية الأكثر جاذبية لأطفالنا برغم مخاطرها التي لا تخطئها العين.

خلاصة القول، إن دراسة الألعاب الشعبية للأطفال والصبية في السودان –بحث الشفيع إبراهيم الضو نموذجاً– هامة للغاية ومطلوبة ليس فقط لأنها وثقت لهذه الألعاب وتوصلت إلى مقاربة بينها وبين نظيراتها الإلكترونية بغية تطوير الأولى بل لأنها جاءت في وقت نحن في أشد الحاجة فيه إلى مثل هذه الدراسات التي تستوعب الحاجة الثقافية والفكرية للمجتمع بالمحافظة على الجذور والهوية ولتأكيد الذات وبعث الثقة فيها في مواجهة العولمة الغربية، فضلاً عن أنها تسوق الجميع إلى نتائج هامة لعل أبرزها –كما يستبان من السياق– إمكانية توظيفها دراماياً في المسرح السوداني بعد أن ثبتت صلاحيتها للتداول في الحاضر والمستقبل، علاوة على استثمارها لتفعيل دينامية التثاقف بين مختلف المجموعات الإثنية (العرقية) السودانية بهدف تمتين خيوط النسيج الإجتماعي السوداني وترسيخ مفهوم الوحدة الوطنية في الوعي الجمعي بتأكيد أن ما يجمعنا –نحن معشر أهل السودان– من أواصل ثقافية وإثنية لهو الغالب. ولا مشاحة أن المرتجى في غاية المطاف تحقيق المقاصد العليا لهذا الوطن لينعم بالإستقرار والسلام والوحدة.

لعبة(شدت)

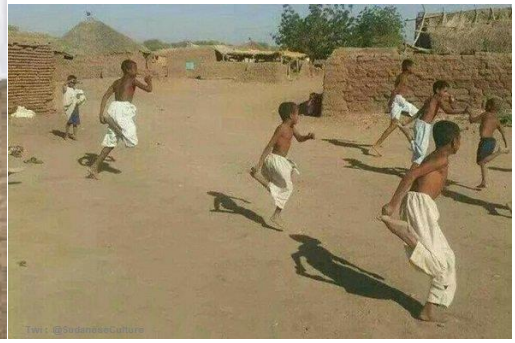

لعبة (سيجا)

مصارف التمويل الأصغر ودورها في التغيير الإقتصادي و الإجتماعي[1] :

بنغلاديش والسودان نماذجاً

يقول خبراء الإقتصاد إن ما يربو عن بليون إنسان يعيشون على دخل يقل عن دولار واحد في اليوم وكثير منهم بالكاد يعيش على أقل من ذلك بكثير. بيد أن الحقيقة تشير إلى أن هناك أعداد ضخمة من البشر تعيش بدون مال بتاتاً وذلك لأنها لم تدخل نظام النقد العالمي على الإطلاق وتقضي حياتها كما كان أجدادنا القدماء، وتستهلك ما تنتجه أيديها. وهناك جزء كبير من هذه الشعوب الفقيرة مستعد لعمل أي شيء لدخول دورة إقتصاد المال.

ولكيما تدخل البشرية ذلك الإقتصاد – كما يرى كل من ألفين وهايدي توفلر في مؤلفهما الموسوم بـ "الثروة وإقتصاد المعرفة " (2010م) – وجب عليها أن تلج من خلال ما يمكن أن يسمى "أبواب المال السبعة" الموصدة والتي يقف أمامها جمهور غفير من البؤساء والجياع يتدافعون نحوها عبر ممر طويل وكل منهم يمني نفسه بالحصول على مبتغاه ، فالأميون من هؤلاء الفقراء يطلبون من رصفائهم الآخرين قراءة اللوحات الإرشادية لهذه الأبواب والتي تشمل، الباب الأول: وفيه يقوم الفرد بابتداع شيء يباع سواء أكان فائضاً من الحبوب (الذرة، القمح...) الغذائية أو صناعة أحذية أو ملابس...الخ ؛ الباب الثاني: الحصول على عمل لإكتساب المال بغية دخول النظام المالي، الباب الثالث: الحصول على ميراث والد أو عم أو خال ...الخ ؛ الباب الرابع : الحصول على هدية إذ باستطاعة أي شخص الحصول على مال أو شيء بيديه أو يحوله إلى مال، ومهما كان شكله ، فسيسمح له بالدخول عالم المال بمجرد إمتلاكه؛ الباب الخامس: الزواج من إمرأة دخلت لتوها من أحد الأبواب السابقة ومشاركتها في مالها ، ساعتئذ يستطيع الفرد أيضاً الدخول لعالم المال ؛ الباب السادس: طلب مساعدة حكومية من الشئون الإجتماعية .أما الباب السابع فهو الوسائل غير المشروعة والتي تخالف القوانين السارية (الإختلاس ، الرشوة ، ...الخ) وهي الملاذ الأول للمجرمين والأخير لليائسين.

---

[1] موقع "الراكوبة" الأسفيري بتاريخ 2017/9/8م .

وجدير بالذكر أن إجمالي الناتج السنوي لإقتصاد المال العالمي – الإقتصاد المرئي – حوالي (50) تريليون دولار. وهذا يعادل حسبما يقال لنا، القيمة الإقتصادية الإجمالية التي توجد على هذا الكوكب كل سنة.

ورغم إننا نعرف أُناساً كثر من عظماء المبدعين في مجالات العلوم والتقانة ونحترم إنجازاتهم وإسهاماتهم العظيمة للبشرية عبر العصور ، غير إننا نجهل الكثيرين من المخترعين الإجتماعيين الذين أوجدوا أفكار نيرّة في المجالات الإقتصادية والإجتماعية لعبت – دون شك – دوراً كبيراً في تطور المجتمع الإنساني. ولعل من أبرز هؤلاء الدكتور محمد يونس المصرفي البنغلاديشي الذي أحس بمعاناة الفقر التي كان يعيشها شعبه. وبعد عودته من بعثة للدكتوراه في الولايات المتحدة الأمريكية وجد أن أهالي بنغلاديش يعيشون في أسوأ الظروف تحت ضغوط معيشية صعبة للغاية. ثم جاء عام 1974م لتحل مجاعة في البلاد أودت بحياة مليون ونصف من أبناء الشعب البنغالي. بيد أن هذا المصرفي القدير عمل بالمثل الصيني القائل "إذا أردت مساعدتي فلا تعطني سمكة بل علمني كيف أصطادها". واستطاع أن يؤسس مصرفاً يقرض من خلاله المال لشرائح إجتماعية فقيرة من أبناء وطنه – وهؤلاء القرويون لا يحتاجون أكثر من (30) أو (50) دولار للشروع في عمل صغير. فالبنوك العادية لا تستطيع أن تقدم لهم هذه المبالغ الضئيلة. والمدينون ليس لهم ضمانات أو تاريخ إعتماد.

واستطاع يونس (حصل لاحقاً على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع مؤسسة الإقتصاد العبقري في عام 2006م) إنشاء بنك أسماه "جرامين" (القرية) – Grameen Bank. وكانت خطته أن لا يطلب ضمانة من المقترضين وبدلاً من ذلك طلب منهم أن يعينوا مجموعة ممن يرسلون البضائع لبيعها بالأمانة في مجتمعاتهم ليكفلوا السداد. وبهذا يكون للمجموعة مصلحة جماعية في إنجاح مشروع هذا المقترض وبالتالي بإمكانها ممارسة ضغط اجتماعي أو تقديم المساعدة إذا ما تأخر عن السداد كما يحق لأعضاء المجموعة الحصول على قروض أيضاً إذا ما تم تسديد القرض.

وبحلول عام 2005م ، تمكن بنك جرامين من إقراض نحو (4.3) مليون شخص على شكل مبالغ صغيرة بلغ مجموعها (4.7) مليون دولار ، كلها تقريباً للنساء ، اللواتي أظهرن مقدرة أكبر على تحقيق النجاح لمشروعاتهن وعلى سداد قروضهن. وهذا النجاح الباهر الذي

سجله هذا البنك لبنغلاديش شجع ظهور مصارف مشابهة في (34) قطراً كما قامت مؤسسات لمساعدة المنظمات غير الحكومية والمنظمات الأخرى.

ويؤكد علماء الإقتصاد أن التمويل الصغير أصبح اليوم صناعة عالمية ضخمة. ويعتبر سر نجاحها هو معدلات الفوائد المترتبة على هذه القروض – وهي معدلات عالية للغاية بالمقاييس الأمريكية والأوربية – ومعدل السداد الباهر الذي يبلغ 98 %. وهذا لا يعني بالضرورة أن بنك جرامين لم يواجه مصاعب مالية بادئ الأمر في استعادة المال. غير أنه تمكن من التغلب عليها بسبب تفهم المقرضين لأهدافه. وبعد مرور ربع قرن على إنشاء هذا البنك – كما تذكر إصدارة وول ستريت W.S.J – نلحظ أن أصحاب المحال التجارية الصغيرة في بنغلاديش كانوا يعرفون عن ظهر قلب شروط الحصول على القروض من سبعة بنوك تقدم القروض الصغيرة. وبسبب النجاح المضطرد لبنك "جرامين" فإن حوالي (26) منظمة غير حكومية في العديد من الأقطار الصغيرة أسست مصارف مثيلة لتقديم القروض الصغيرة بها لتساعد في تمويل نشاطاتها غير الربحية. ولاحظ العديد من المصرفيين أن مؤسسة مصرفية واحدة – وهي جرامين – تركت أثراً اجتماعياً وإقتصادياً بعيد الغور – ليس فقط في حياة المقترضين الفقراء الذين بسطت لهم يد المساعدة ، بل في الطريقة التي تجمع بها المنظمات غير الحكومية المال لممارسة أنشطتها الإقتصادية، وربما تغير الأعمال المصرفية برمتها، حيث أنها تلغي الحواجز بين العالم الربحي وغير الربحي.

ولا يعتبر بنك جرامين في الإقتراض الصغير هو المثال الوحيد في العالم. فثمة أمثلة أخرى لإختراعات إجتماعية عظيمة الأثر، منها "أمازون دوت كوم" Amazon.com التي أقامت مستودعاً للكتب بدون مخزن ، وأي باي I. Buy التي طورت مكتباً للمزاد يؤدي فيه الزبائن دور الوسيط. ومحركات البحث (غوغل – Google وياهو – Yahoo وغيرها) ، تعالج ما يزيد عن (600) مليون طلباً، وتغير عمل المكتبات وتجلب التغيير في نشر الكتب الرصينة.

وبإجالة النظر على أوضاعنا الإقتصادية في السودان ، فإن مثل هذه الإبتكارات والإبداعات الإجتماعية الفردية والجماعية التي سلف ذكرها لجديرة بالإحتذاء والتقبيس أكثر من أي وقت مضى لحل مشكلات البطالة (بخاصة لدى خريجي الجامعات والمعاهد العليا) والأعمال الهامشية (بيع الشاي والقهوة بواسطة فتيات وسيدات على قارعة الطريق ؛ باعة الخردوات في

المظلات المؤقتة والجوالة أمام شارات المرور، بائعو المياه المثلجة – غير المعبأة صحياً–) والتي تكاثرت في الأونة الأخيرة وشوهت وجه العديد من المدن السودانية لاسيما العاصمة القومية برغم الجهود الولائية المقدرة للتنظيم والإعمار وإصحاح البيئة .

والرأي عندي أن هناك العديد من المؤسسات الحكومية وشبه الحكومية والخاصة (شركات الإتصالات) بإمكانها المساهمة في عملية الإقتراض للفقراء من المواطنين لتمويل مشروعات صغيرة مثل صناعة الصابون العادي (الغسيل) والملابس والخردوات والروائح والعطور وماشابه ذلك. وبرغم أن عملية التمويل الأصغر قد بدأت في السودان مؤخراً بواسطة بعض البنوك الحكومية ذات التعاملات المالية المتعددة الأغراض وتحت الإشراف المباشر لبنك السودان المركزي إلا أن إنشاء بنوك متخصصة(غير ربحية) بمسمى بنوك التمويل الأصغر على غرار بنك جرامين البنغلاديشي للتسليف في مشروعات التمويل الأصغرأصبح ضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضى.ويذكر تقرير عن التمويل الأصغر أن التجربة السودانية –برغم أهميتها– لاتزال دون الطموح وتعترضها عقبات وتحديات تتمثل في كبر هامش الربح الذي تطلبه المصارف ،علاوة على التعسف في طلب الضمانات وصعوبة الإجراءات بجانب عدم الوعي الثقافي الكافي بفكرة التمويل الأصغر(تقريرإقتصادي، جريدة الصحافة،العدد"6983"،(10)يناير2013: :التمويل الأصغر..تحديات مستمرة وإرتفاع في هامش الربح).ويشير مدير وحدة التمويل الأصغر بالبنك المركزي في ورقة علمية قدمت لمنتدى نظمه معهد الدراسات والبحوث المصرفية بجامعة الخرطوم،أن نسبة التمويل الأصغر المصرفي من إجمالي المحفظة المخصصة له لم تتجاوز6.3% من جملة المستهدف 12%(جريدة الصحافة،العدد "6983"بتاريخ 10 يناير2013).ومما سبق ذكره،لعل الخطوة المرتقبة هي إجراء دراسة معمقة للتجربة السودانية برغم قصر عمرها الزمني،لتبني إيجابياتها وتجاوز سلبياتها مع العمل على إنشاء بنوك تمويل أصغر متخصصة تفتح نافذة الأمل لشرائح عديدة من المواطنين بهدف تحسين أوضاعهم المعيشية والعمل على دفع عجلة الإنتاج والإرتقاء بالإقتصاد السوداني.

ويلزم التنوية إلى أن مشاريع التمويل الأصغر والتي بدأت كمشاريع صغيرة وبقروض متواضعة في العديد من البلدان تطورت فيما بعد إلى صناعات ضخمة تديرها مؤسسات كبيرة

انعكس أثرها الإيجابي على الشرائح المجتمعية الفقيرة بل وأصبحت بنداً منفرداً وهاماً في قائمة الصادرات (التجارة الخارجية) القومية.

وفي الختام، لابد من الإشارة إلى أن السجل الإقتصادي في البلدان المتقدمة ملئ بملايين من أصحاب الأفكار النيّرة من المبدعين والمخترعين الإجتماعيين والحالمين والعمليين من الرجال والنساء والمؤهلين علمياً والقادرين على تسنم ذري التقدم في كل مكان مسلحين بأقوى أدوات المعرفة التي عرفها الجنس البشري، إنهم جاهزون لصنع الغد الجديد للإنسانية. فهلا سرنا على نهج هؤلاء المبدعين لتنمية هذا الوطن ولاستعادة أمجاد أسلافنا الأماجد الذين كانوا حداة ريادة فكرية وتقنية في العالم القديم. ولن أضيف جديداً إذا نوهت بأننا معشر أهل السودان أول من صنع الخزف في القارة السمراء قبل ما ينيف عن عشرة آلاف عام، وكانت لنا أسبقية الكتابة الأبجدية (الكوشية – المروية) على بلدان جنوب الصحراء الكبرى بل كنا أول من صهر الحديد وصنعَّه في القارة الأفريقية حتى قال الغربيون عن سوداننا القديم إنه "برمنجهام أفريقيا". وإذا كان هذا هو وضعنا في الأزمنة الغابرة ، فالأحرى بنا آنئذ حمل أمانة هذا الوطن والعمل على بنائه تقنياً وإقتصادياً ووضعه في مكانه اللائق به بين الأمم والشعوب.والله المستعان.

استثمار الزمن في صناعة الحاضر والمستقبل[1]:

لا ريب أن للزمن سلاسل وإيقاعات في حياتنا اليومية. ولا تزال كلمات أمير الشعراء أحمد شوقي ترن في الآذان:

دقات قلب المرء قائلة له *** إن الحياة دقائق وثواني

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها *** فالذكر للإنسان عمر ثاني

فنحن نشتري صحيفة كل يوم وقطعة صابون كل صباح ، وجركانة زيت من الدكان (السوبر ماركت) كل أسبوع، ونملأ خزان العربة بالوقود كل أسبوع أو عشرة أيام، ونصرف الراتب، وندفع الفواتير كل شهر، ونشتري تذكرة لدخول دار الرياضة كل شهر ولدخول المسرح أو السينما بضع مرات في السنة، وندفع الزكاة والضرائب كل عام ...الخ. فالناس يعملون ، يصنعون الأشياء ، ويقدمون الخدمات ويتدبرون أمورهم، ويعتني بعضهم ببعض ويمولون المشاريع والشركات ويعالجون المعلومات والمعطيات ويحولونها إلى معرفة وكل ذلك يتم وفق مواقيت محددة.

وفي العصور القديمة سيما في المجتمعات الزراعية كان الناس لا يهتمون كثيراً بالزمن إلا بالقدر الذي يساعدهم في معرفة مواقيت الأمطار والزراعة والحصاد. وفي العصور الإقطاعية في آسيا وأوربا كان أقنان الأرض يتسلمون جزءاً من المحصول يحتفظون به لأنفسهم فمدة العمل لم تكن تتحول مباشرة إلى نقود، بل أن بعض رجال الدين في ذلك الزمان كانوا يعتبرون أن بيع العمل بالوقت بمثابة الربا، وهو بيع المال بالفائدة.

وثمة صورة مغايرة لما سبق إيراده تتمثل في القيمة العظيمة التي يوليها الدين الإسلامي الحنيف للزمن وتبيان أهميته القصوى في الحياة الآنية والمستقبلية. وكما هو معلوم، فقد نبه القرآن الكريم بصيغ كثيرة للزمن منها الدهر، الحين، الآن، الأجل ، السرمد ، الأبد، الخلد ، العصر. فبعض هذه الصيغ له علاقة بالعمل والإدارة والتنظيم والبعض الآخر يشير إلى الكون والخلق والعقيدة والعادة.

---

[1] جريدة "الصحافة" ، العدد (6795) ، بتاريخ 2012/6/27م .

لا شك أن الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن الكريم للزمن تنبع من إرتباط العبادات في التشريع الإسلامي بمواعيد محددة وثابتة كالصلاة والزكاة والصيام والحج حيث إن أداءها لا يتحقق إلا بالالتزام بمواعيدها حسب اليوم والشهر والسنة. قال تعالى: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (الإسراء : 78) ، وقال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة : 185) وقال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) (البقرة : 189)، وقال تعالى : (وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) (الأنعام : 141) ، ، فضلاً عن العديد من الأحكام الشرعية التي ارتبطت بالمواقيت الزمنية المحددة كعدة المرأة في حالة الطلاق أو وفاة الزوج والكفارات في حالة ترك الصيام أو الإخلال ببعض مناسك الحج وغير ذلك من الأحكام الشرعية التي تتطلب التقيد بالزمن كشرط أساسي في العبادة وصحة إنجاز العمل.

وتتضمن السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي ترفع من قيمة الوقت وتصفه حيناً بالنعمة الكبرى ، إذ يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» كما تربط السنة الزمن بالمسؤولية، ففي الحديث الشريف « لا تزل قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله فيما اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه). وقرنت العبادة بالوقت فقال المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم : « الصلاة لوقتها «. وكان يقول أيضاً عن هلال رمضان « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته». ودعت السنة النبوية إلى الاستفادة من الوقت وعدم إضاعته ، فجاء في الحديث (إغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل مماتك).

ورغم أن الغربيين قد استفادوا من الدعوة الإسلامية الرائدة في استغلال الوقت ، إلا أن منهجهم في الإستفادة منه مختلف تماماً وتبدو عليه الميكافيللية (الغاية تبرر الوسيلة). فبمجئ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر وحتى يحقق أرباب العمل أقصى درجات الإنتاج بناءً على مقولة «الوقت من ذهب» كان عمال المناجم والمصانع يتقاضون أجورهم

بالساعة. والغى الغرب تدريجياً القوانين التي تحرم الربا وأضفى شرعية على الفائدة بناءً على الوقت. وبهذا الأسلوب أصبح تقييم العمل والمال كلاهما يعتمد على الوقت بصورة متزايدة.

ومنذ أربعة عقود خلت توقع مؤلف «صدمة المستقبل» للكاتبين الأمريكيين ألفين وهايدي توفلر بأن يشهد إيقاع الحياة وليس فقط العمل في العالم الغربي موجة جديدة من التسارع والشعور بانضغاط الوقت. وسرعان ما أضحى ذلك التوقع حقيقة ماثلة للعيان في السنوات الأخيرة بظهور طائفة من المفردات الجديدة مثل («مرض السرعة» و «تعميق الزمن» و «زمن الإنترنت» و «الزمن الرقمي» و «مجاعة الوقت») وتعكس كلها دقة التوقعات السابقة. واليوم يشعر الملايين من البشر بالانزعاج والضغط و «صدمة المستقبل» بسبب إنضغاط الوقت. ونشرت صحيفة إفنينج ستاندرد اللندنية تقارير عن ظهور معالجين مختصين لعلاج «مدمني السرعة» ومساعدتهم على التخفيف من سرعتهم. وفي جميع أنحاء أوروبا يندفع عشرات زبائن البنوك التجارية من أجل الإشتراك في محادثات مدتها خمس دقائق بعضهم مع بعض بحثاً عن علاقات جديدة وهي ما تدعوه صحيفة الفاينانشيال تايمز ب «المواعدة السريعة من أجل العمل». لكن الدقائق الخمس أعلاه يمكن أن تعادل دهراً في عالم الإنترنت حيث يغلق المستخدمون الموقع الإسفيري إذ استغرق ظهور الصفحة أكثر من (5–8) ثوانٍ.

ويرى بعض الإختصاصيين أن وراء كل ضغوط الوقت والدفع بإبرة التسارع خارج عداد السرعة في إقتصاديات العالم تحرك تاريخي نحو نظام ثروة تستطيع مادته الأولية الرئيسة وهي المعرفة أن تتحرك في سرعة الوقت الحقيقي تقريباً. إننا نشهد إيقاعاً فائق السرعة حتى غدا القانون القديم (الوقت من ذهب) بحاجة إلى تعديل. فكل فترة من الزمن تساوي من المال أكثر من الفترة التي سبقتها ، لأن من الممكن ، مبدئياً إن لم يكن عملياً ، توليد كمية أكبر من الثروة خلالها. إن كل هذا يغير بالضرورة علاقتنا الشخصية بالوقت الذي هو أحد الأسس العميقة في مسار حياتنا.

وفي مجال العلوم الطبيعية شهد العالم قبل عقدين من الزمان ثورة في الكيمياء الحديثة وتطبيقاتها ارتكزت بشكل أساسي على ظهور مقياس جديد للزمن سمى الفيمتوثانية Femto–Second وتوصل العالم المصري البروفيسور أحمد زويل (حائز على جائزة نوبل

في الكيمياء عام 1999م) إلى إبتداع مقياس للزمن بواسطة كاميرا فائقة السرعة تعمل بأشعة الليزر. وأصبح بإمكان الباحثين استخدام هذا الأسلوب العلمي في قياس الكيفية التي تحرك الذرات داخل الجزئيات خلال التفاعل الكيميائي عن طريق قياس الأشياء بتجميدها ثم تصويرها بعد ذلك بالكاميرا – الليزرية بوحدة الفيمتوثانية وهي «جزء من البليون جزء من الثانية». وعندما سئل أحمد زويل حول إكتشافه والكيفية التي يستطيع بها رجل الشارع العادي إستيعابه ، أجاب نصاً وحرفاً بالقول: «إذا كان الشخص جالساً أمام التلفاز، فإن مدة ذهاب شعاع إلى القمر والرجوع إليه بزمن الفيمتوثانية يساوي مدة ذهاب الأشعة إلى التلفاز ورجوعها إليه وهو جالس على كرسيه». ومما لاشك فيه أن هذا الاختراق العلمي الباهر قد أحدث إنقلاباً في مفهوم الإنسانية للزمن وإحداثياته كما ساهم في إحداث نقلة علمية كبيرة للغاية باستخدامه في العديد من المجالات كالطب (أبحاث السرطان) والإلكترونات وعلوم الفضاء والفيزياء والكيمياء وغيرها.

وجدير بالتنويه أن المعرفة والإقتصادات المختلفة باتت تعتمد على الوقت بشكل أساسي كعامل حاسم يقود إلى مسار التقدم المضطرد. وليس أدل على ذلك من ابتداع الحواسيب العملاقة الفائقة السرعة (Super Computers) التي تقوم بأداء مليارات الأعمال الحسابية في طرفة عين. ولعل مما يدعو للفخر والإشادة أن إحدى البلدان العربية الشقيقة (المملكة العربية السعودية) قد أحست بالقيمة العالية للوقت واستثماره في صناعة الواقع والمستقبل. لذا فقد أدخلت نظام الحوسبة البالغ التعقيد في إحدى مؤسساتها العلمية (جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية) وذلك بالاشتراك مع شركة (أي بي أم IBM) الأمريكية. ويعتمد هذا النظام الجديد على حاسوب عملاق الأسرع في منطقة الشرق الأوسط – أطلق عليه إسم «شاهين» (تيمناً بالصقر العربي القناص) بمقدوره إجراء (222) تريليون نقطة عائمة في الثانية الواحدة. وبإمكان هذا النظام الحاسوبي بالغ الدقة المساهمة في حل مشاكل علمية معقدة جداً في عشرات التخصصات (تركيب البروتين وتحسين تصميم الأدوية والتنبؤ بالمناخ وعمل التصاميم الهندسية...الخ) فضلاً عن تطوير مجتمع اقتصادي قائم على المعرفة.

ومما سلف ذكره، فإننا نلحظ حزمة تداعيات اقتصادية واجتماعية وثقافية ونفسية كبيرة مترتبة على هذه النقلات الحضارية المعقدة في حياتنا بفضل وتيرة العلم والتقنية البالغة

السرعة وإفرازاتها « الحواسيب الصغيرة والمتوسطة والعملاقة والإنترنت والهواتف الجوالة» . ولعل هذه التحولات المفصلية في الحياة الإنسانية منذ نهاية القرن المنصرم وفي فواتيح القرن الحالي – في عوالمنا الثالثية– هي التي تدفع بالناس (الكهول والشيوخ) دوماً إلى التبرم من إيقاع الحياة المتسارع بشكل كبير . وكثيراً ما نراهم في تحنان وشوق دائم إلى ما يسمونه «الزمن الجميل» و « الزمن الأخضر»، زمن التمهل والتراخي والبطء حيث كل شيء يسير بسلحفائية تدعو للسأم والملل. وما انفكت ألسنة الكثيرين وبخاصة لدينا في السودان تلهج بالمقولات التي حفظناها عن ظهر قلب ولا يزال بعضها قيد الاستخدام العملي مثل «كل مطرودة ملحوقة» و «إن كثرت الهموم إدمدم ونوم» و « سد دي بطينة وسد دي بعجينة»...الخ.

ومع تزايد التوتر بين التزامن وعدم التزامن ومع التسارع المفرط في إيقاع الحياة ومع ارتفاع قيمة كل فترة استراحة من الزمن أكثر من سابقتها ، ومع قدرة الإنسان على إكتشاف فترات زمنية أقصر فأقصر وأطول فأطول والسيطرة عليها، بات العديد من أهل العلم يرون ثمة ثورة في الروابط البشرية وأحد الأسس العميقة للثروة سوف تحدث ، وأن شيئاً تاريخياً بحق في طريقه إلينا والله تعالى أعلم بخفاياه وهو الهادي إلى سواء السبيل.

استقلال السودان قراءة جديدة للشواهد التاريخية[1]

مقدمة:

تحتفل بلادنا في غرة يناير من كل عام بذكرى إستقلال الدولة السودانية الحديثة والذي دشن برفع العلم الوطني على سارية القصر الجمهوري بالخرطوم في أول يناير 1956م. ورغم دأبنا الإحتفاء سنوياً بهذه الذكرى إلا أن قراءة فاحصة لتاريخ السودان تميط اللثام عن ظهور خمس دول وطنية منذ فجر التاريخ وحتى الوقت الحاضر لعبت أدواراً مهمة في مسار الحضارة الإنسانية. وإذا كان هذا هو واقع الحال، فلا غرو إذن أن هذا الإستقلال الذي نتفيأ ظلاله اليوم يمثل الدورة الخامسة لإستقلال الدولة السودانية.

ويرى فقهاءالقانون الدستوري أن الدولة تنشأ بتوافر ثلاثة عناصر هي الجماعة البشرية والإقليم المحدد والهيئة الحاكمة ذات السلطة على الجماعة. ولا ريب أن هذه العناصر الثلاثة اللازمة لظهورها، كمفهوم أبستمولوجي في أذهان النخب السلطوية (ظاهرة فكرية) وكبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة (ظاهرة آيدولوجية) قد عرفها السودان منذ آجال موغلة في القدم.

والسودان كتراكم ثقافي – تاريخي ظهر إلى حيز الوجود منذ أزمان بعيدة في التاريخ. وعُرِف السودان منذ القدم بالعديد من الأسماء. ولعل من أقدم هذه الأسماء الوصفية التي أطلقها الفراعنة المصريون على السودان (تاستي، Ta–Seti) وتعني "بلاد الأقواس". ومن الأسماء التي إختص بها قدماء المصريين سكان السودان الشمالي "النحسيو – Nehasyu " ومفردها "نحسي" وتعني "الأسمر". وأطلق الفراعنة على المنطقة الممتدة من أسوان وحتى الشلال الثاني جنوب وادي حلفا إسم "واوات". أما المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الشلال الثاني وتمتد جنوباً فسميت "كوش" ثم أصبح إسم كوش يطلق على المنطقتين معاً. وكان السودان معروفاً للإغريق والرومان منذ بداية ظهورهم على مسرح التاريخ. ومنذ العصر الملحمي استخدم الإغريق مصطلح "إثيوبيا –Ethiopia " ويعني "أرض الأقوام ذوي الوجوه المحروقة" ليس لوصف المنطقة جنوب مصر مباشرة بل معظم أفريقيا. وفي فترة لاحقة إستخدم الإغريق لفظ "إثيوبيا" في إشارة للسودان القديم واصفين حدوده الجغرافية وعلاقته بفارس التي إحتلت مصر عام 525 ق.م. وأطلق

[1] موقع "سودانايل" الأسفيري بتاريخ 2016/1/3م .

المؤرخون العرب في القرون الوسطى كلمة "السودان" المشتقة من تعبير "بلاد السودان" على كافة الأقاليم الممتدة جنوب الصحراء الكبرى من البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي. ومنذ القرن السادس عشر أصبح إسم "الفونج" هو الأكثر تداولاً. بيد أن إسم "نوبيا" إستمر حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما أصبح اسم "السودان" هو الأكثر شيوعاً.

1- الدولة السودانية الأولى (كوش):

ترجع الإرهاصات الأولى لنشوء الدولة السودانية إلى مجتمعات الإستقرار في عصر ما قبل التاريخ. ففي العصر الحجري الحديث (4500- 3000 ق.م) في السودان ظهر النشاط الرعوي المكثف في أواخر هذه الفترة والذي إستوجب بزوغ نظام سياسي – إجتماعي يعمل على تنظيم العلاقات بين المجموعات السكانية.ونلحظ أن المجموعات السكانية التي استوطنت هذه المناطق كانت تمثل أنموذجاً لمشيخات (Chiefdoms) مقارنة بالمجموعات القبلية المتفرقة التي عاشت في حقبة العصر الحجري الوسيط.

وتعتبر كرمة التي تقع إلى الجنوب من الشلال الثالث أول شكل مؤسسي لفكرة الملكية والسلطة التي ظهرت في السودان القديم(مملكة كوش الأولى). ولعل أبرز الأدلة على قيام هذا الكيان السياسي المستقل رحلات الإداري المصري حرقوف في عهد الأسرة الفرعونية الخامسة (2562-2422ق.م) الذي تلقى مساعدات من حاكم كرمة في منطقة الشلال الثالث تمثلت في إمداده باخشاب لبناء قوارب. وثمة دليل آخر على وجود دولة كرمة المستقلة لوحة كاموسي ثاني ملوك الأسرة الفرعونية السابعة عشر (1850 ق.م) التي أشار فيها إلى علاقات دبلوماسية مع النحسيين (الكوشيين) في كرمة جنوب الشلال الثالث. وإنتهت هذه الدولة في عهد الدولة المصرية الحديثة بواسطة الفرعون تحوتمس الثالث عام (1460ق.م).

وبعد نهاية عصر الرعامسة (1314 – 1085ق.م) دخلت مصر فترة من عدم الإستقرار السياسي تمكنت في نهايته كوش من إستعادة نفوذها السياسي في جنوب وادي النيل وبرزت كقوة إقليمية كبيرة في إفريقيا والشرق الأدنى القديم لاسيما بعد أن ضمت مصر إلى نفوذها عام 751 ق.م في عهد الملك بيي (بعنخي). وتعد دولة كوش الثانية (مروي) وعاصمتها مروي القديمة (البجراوية) التي تقع شمال شندي على الضفة الشرقية للنيل وعلى بعد 200 كم شمال شرق

الخرطوم صورة مصغرة لسودان اليوم بتباين أعراقه وثقافاته. وتنامى نفوذ هذه الدولة في بعض فترات التاريخ لتشمل وادي النيل طراً (751- 633 ق.م). وعندما غزا الآشوريون مصر (671ق.م) تقهقر السودانيون جنوباً حيث واصلوا حكمهم لدولتهم التي أدخلت في حوزتها مساحة شاسعة تبلغ حوالي ثلثي الأقاليم المكونة للسودان الحديث. غير أن الضعف السياسي والإقتصادي الذي إعتراها بعد فقدانها لمصر والثورات الإقليمية والعشائرية في مناطق متفرقة منها، ساعد كل ذلك عيزانا ملك دولة أكسوم الحبشية وضع النهاية الرسمية لها عام (350 م).

2- الدولة السودانية الثانية (مملكة النوبة المتحدة):

بعد قرنين من زوال دولة كوش (مروي) دخلت الديانة المسيحية السودان واستمرت مايقارب الألف عام. وشهدت الفترة ما بين (543-580م) دخول ممالك النوبة الثلاث نوباتيا والمغرة وعلوة في هذه الديانة. وتقع نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس. وتحتل المغرة المنطقة الممتدة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية الحالية). وإتحدت المملكتان في وقت غير معروف على وجه الدقة ربما في نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن الميلادي – وحملت إسم "مملكة النوبة المتحدة" وحاضرتها دنقلا العجوز. أما المملكة المسيحية الثالثة فهي علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم مباشرة فشملت منطقة شاسعة تمتد من الأبواب (كبوشية) شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل الأزرق حتى الحدود الأثيوبية وبعض جهات كردفان. ولم يكد القرن السادس الميلادي يشرف على الإنتهاء حتى أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للنوبيين رغم وجود طوائف عديدة منهم ظلت محافظة على عقائدها الوثنية القديمة.

وكانت العلاقة بين الممالك النوبية المسيحية في الشمال وجيرانها من المسلمين في مصر سلمية وتتسم بالهدوء في الفترة ما بين (1323-651م) بعد أن تم توقيع إتفاقية البقط (651م). وكان السودان خلال هذا العهد يحكم على أساس إقليمي مع وجود السلطة المركزية على رأسها ملك في حين أن الأقاليم كانت تدار بواسطة حكام صغار يدينون له بالولاء والطاعة. وتغيرت الأحوال الداخلية في ممالك النوبة الشمالية وشابتها الإضطرابات والخلافات المتلاحقة لاسيما في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي مما أدى إلى ظهور شيع وثورات وانقلابات أفضت في نهاية المطاف إلى زوال هذه الممالك في شمال السودان.

3- الدولة السودانية الثالثة (الكونفدرالية الإسلامية):

أدى التحالف بين الفونج والعرب (العبدلاب) في أواسط السودان إلى سقوط مملكة علوة المسيحية وتكوين مملكة الفونج الإسلامية (السلطنة الزرقاء) عام (1504م).وإمتد نفوذ هذه الدولة من دنقلا شمالاً إلى فازوغلي جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً. وكانت تمثل اكبر وأقوى وحدة سياسية ظهرت في السودان القديم منذ عهد دولة كوش (مروي). وتجدر الإشارة إلى أن دولة الفونج كانت تمثل إتحاداً طوعياً كونفدرالياً للعديد من المشيخات في اواسط وشمال السودان أبرزها العبدلاب (أربجي)، الجعليين (شندي)، الميرفاب (بربر) ، الرباطاب (أبو حمد) المناصير (سلمات) الشايقية (مروي) ، فضلاً عن مشيخات أخرى أصغر حجماً في ضفر ودنقلا والخندق وأرقو كما شملت اجزاء من غربه(بعض اجزاء من شمال كردفان). وإتحدت كل هذه الوحدات القبلية تحت نفوذ دولة الفونج بغية حماية القوافل وتجارة الترانزيت (المرور) وترقية التجارة الداخلية وتوفير الأمن ضد الغزوات الخارجية. ولم تكن دولة الفونج القوة السياسية الوحيدة في السودان في القرن السادس عشر والقرون التالية، فقد كانت هناك سلطنة المسبعات (1559- 1821م) في إقليم كردفان وسلطنة تقلي (1570-1827م) في جنوب غرب البلاد (جبال النوبة) وسلطنة الفور في أقصى الغرب (1640-1874م ، 1898-1916م). وإتسمت العلاقات بين هذه السلطنات بالصراع على مناطق السيادة والنفوذ على بعض الجهات (إقليم كردفان) ذات الأهمية الإستراتيجية.

ونتيجة للحفريات الآثارية التي أجريت مؤخرا في النوبةالمصرية (قصر أبريم) ونشر ما يزيد عن مائتي مخطوطة مؤرخة باللغتين العربية والتركية عثر عليها في هذه الحفريات، فضلاً عن الأبحاث التي أجريت في سجلات كل من القاهرة واسطنبول، أمكن التعرف على خمس مراحل تغيرت فيها الحدود السودانية –المصرية في الفترة ما بين (1516-1821م). وفي الفترة ما بين (1786-1821م) عانت دولة الفونج من تفكك متسارع وإضطربات أمنية داخلية في أجزاء متفرقة من مناطق نفوذها إستغلها محمد علي باشا والي مصر عام 1821م ليضمها وبقية أجزاء السودان لدولته التي كان يأمل أن تشكل إمبراطورية مترامية الأطراف تشمل إلى جانب السودان الجزيرة العربية وفقد بذلك السودان إستقلاله السياسي.

4- الدولة السودانية الرابعة (المهدية):

بزغت الثورة المهدية في البلاد بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي عام 1881م. ورغم أن الهدف الأسمى للمهدية كان دينياً حيث سعت لإستعادة أمجاد الإسلام وتطبيق شريعته الغراء، إلا أن العامل القومي لم يكن غائباً عنها فعملت على تخليص السودان من مظالم الحكم التركي المتمثلة في سوء الإدارة والضرائب الباهظة وإضطهاد الأهالي. لذلك تعتبر المهدية أول حركة وطنية قام بها السودانيون في العصر الحديث ضد المستعمر لإستعادة إستقلال بلادهم رغم أن طابعها وروحها كانا تقليديين وإسلاميين أكثر مما كانا لدوافع دنيوية محضة. واستطاع الإمام المهدي تحرير السودان والإستيلاء على الخرطوم في (26 يناير 1885م) غير أنه لم يعش طويلاً فتوفى بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ وتولى زمام الأمر من بعده خليفته عبد الله بن السيد محمد التعايشي.

وكان نظام الحكم المهدوي ثيوقراطياً، فرأس الدولة (الخليفة) يجمع في يديه السلطتين الزمنية والروحية. وقسمت البلاد على النظام الإسلامي إلى عدة عمالات يقوم على رأس كل منها عامل يهيمن على الجيش والإدارة ويمثل حلقة الإتصال بين الأهالي والخليفة. وكان السودان في هذا العهد يشمل في أقصى إتساعه المنطقة الممتدة من حلفا شمالاً إلى الرجاف في الجنوب ومن سواكن على البحر الأحمر إلى دارفور في أقصى الغرب وإن مالت أطرافه إلى التناقص وإنعدام الفعالية حيث لم توضع بها حاميات بشكل دائم.

وأدت الحروب العديدة التي خاضتها الدولة السودانية في هذه الفترة في كل من الحبشة (1887م) ومصر (1889م) وفي أقاليم البلاد الداخلية إخماداً للفتن والثورات – أدت إلى إنهيار إقتصادي بلغ ذروته في مجاعة (1306هـ) (1890م) الشهيرة. وفي ظل هذه الأوضاع المتردية تلقت الدولة المهدية عدة هزائم عسكرية بواسطة القوات الأنجلو-مصرية في طوكر (1890م) والإيطالية في أغوردات (1893م). وفي خاتمة المطاف فقد السودان إستقلاله بعد زوال دولته الرابعة عقب معركة كرري في (8 سبتمبر 1898م) حيث دخل في ما سمى بالحكم الثنائي (الإنجليزي – المصري).

5- الدولة السودانية الخامسة(الدولة السودانية الحديثة).

نشأت الدولة السودانية الحديثة عقب إستقلال البلاد في غرة يناير 1956م. وكان هذا الإستقلال نتاج تضحيات جسام للآباء والأجداد الذين جاهدوا بضراوة بعد أفول الدولة الوطنية الرابعة (المهدية). وقامت الثورات ضد المستعمر في كل أصقاع السودان لعل من أبرزها ثورة المهدوي عبد القادر ود حبوبة في الحلاوين (1908م) وثورة جمعية اللواء الأبيض بقيادة علي عبد اللطيف ورفاقه عام 1924م وتبعتها حركة جمعية الإتحاد السوداني التي تكونت في أغسطس 1924م بعد أن تعرض أعضاء جمعية اللواء الأبيض للإضطهاد والنفي والإعتقال. وحمل لواء الجهاد من أجل الإستقلال بعد جلاء القوات المصرية عن السودان (1936م) خريجو كلية غردون التذكارية الذين تشبعوا بتعاليم حركة التحرر الوطني التي قادها ود حبوبة وعلي عبد اللطيف ورفاقهم، فكان مؤتمر الخريجين (1938م) بقيادة الزعيم إسماعيل الأزهري ورفاقه الذين وجدوا سنداً شعبياً وآخر روحياً من طائفتي الأنصار والختمية بقيادة السيدين عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني.

ولإفشال خطة مؤتمر الخريجين الذي بدأ بمطالب ثقافية وإجتماعية ولكنها سرعان ما تحولت إلى مطالب سياسية تنادي بحق تقرير المصير للسودان (1942م)،لجأت الإدارة البريطانية لإنشاء المجلس الإستشاري لشمال السودان (1943م) الذي كان يتكون من زعماء القبائل وعشرة من كبار موظفي الدولة.وإمعاناً في بذر الفتنة والشقاق بين أبناء الشمال والجنوب لم يكتف المستعمر بقانون المناطق المقفولة (1922م) بل أبعد الجنوبيين من هذه الهيئة الإستشارية. وعندما فشل المجلس الإستشاري لجأت بريطانيا لخطة أخرى لتعطيل الإستقلال وأنشأت ما سمى "الجمعية التشريعية" في يونيو (1947م) لتحقيق أهدافها الذاتية رغم أنها أبلغت الحكومة المصرية آنذاك بأنها لا تنوي إنشاء أي مجلس تشريعي في السودان لإخفاء نواياها الحقيقية وإخماد الوعي القومي السوداني المتنامي وقتذاك. وعملت السلطة البريطانية بصورة متواصلة على تعطيل إستقلال السودان إذ كانت ترى أن السودانيين لم يصلوا درجة من النضج السياسي تسمح بإعطائهم حق تقرير المصير. وبعد مفاوضات مضنية بين بريطانيا ومصر تم الإتفاق في فبراير (1953م) على فترة إنتقالية مدتها ثلاث سنوات يتولى بعدها السودانيون شئونهم السياسية بأنفسهم. ونجح السودانيون في نهاية المطاف من تجاوز كل خلافاتهم الطائفية

والحزبية ووافقت حكومتهم الإنتقالية على إعلان الاستقلال من داخل قبة البرلمان في 19 ديسمبر 1955م.

وتمر الذكرى الستون للإستقلال هذه الأيام والوطن يواجه تحديات مصيرية تستهدف وجوده الجيو– سياسي والحضاري، لذا لابد من أخذ الدروس والعبر من هذه الذكرى والعمل على إشاعة ثقافة السلام بنبذ الفرقة والإنقسام والإسراع بإطفاء بؤر التوتر في بعض أطرافه(دارفور،جنوب كردفان والنيل الأزرق) وتدعيم ركائز الوحدة الوطنية و ذلك بإنجاح مداولات الحوار الوطني الجارية الآن بين كافة الفرقاء السودانيين. فهلا سرنا على نهج أسلافنا الميامين الذين تجاوزوا كل خلافاتهم وأعلنوا الإستقلال من داخل قبة البرلمان (19 ديسمبر 1955م) ، بغية الحفاظ على هذا التراب الغالي متخذين من سيرتهم ونهجهم سنداً معنوياً لمجابهة التحديات الحياتية في عالم لا يترك لسودانا سوى خيار واحد فإما الوحدة والتقدم –وهذا مانتمناه ونسعى له– أو التشظي والتلاشي وهذا مالا نبتغيه. والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

السودانوية في هوية السودان القومية:دراسة حالة ثورة 19 ديسمبر 2018م[1]

السودان كتراكم ثقافي– تاريخي ظهر إلى حيز الوجود منذ آجال موغلة في القدم. بيد أن الدولة السودانية كبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة برزت منذ ما يربو عن أربعة آلاف عام (مملكة كرمة 2500–1500 ق. م). وتبلورت الشخصية القومية للسودان بصورة أكثر وضوحاً في دولة كوش الثانية2–Kush (مملكة مروي 900 ق.م– 350م). وشهد السودان منذ ذلك الزمان وإلى إستقلاله في غرة يناير 1956م وحتى اليوم متغيرات مهمة على كافة الأصعدة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية. وكانت مسألة الهوية إحدى القضايا التي شكلت هاجساً لمختلف أنظمة الحكم التي تعاقبت على السودان

.

وتمتح هوية السودان الحضارية من مصدرين رئيسيين هما: العربي– الإسلامي ونظيره الأفريقي (السودانوي). ويحاج هذا المقال إستناداً إلى أدلة آثارية– تايخية بأن تيار السودانوية– Sudanism هو السمة الأكثر بروزاً في الشخصية القومية السودانية خلال أحداث ثورة التاسع عشر من ديسمبر 2018م.

مقدمة:

يمر السودان بعد نهاية عهد الإنقاذ (30 يونيو–1989،11 أبريل 2019م) بزلزال سياسي شبهه البعض بالإستقلال الثاني إقترحه شباب ومن ثم تسلم قيادته تنظيم "تجمع المهنيين السودانيين" والذي أظهر حنكة ودربه في قيادة العمل المعارض بصورة سلمية من خلال التظاهرات والإضرابات والإعتصامات حتى تكلل ذلك بإزاحة نظام الإنقاذ عن السلطة بعد ثلاثة عقود من الزمان لم ينعم خلالها الشعب السوداني بإستقرار سياسي وتنمية واقتصادية وعدالة اجتماعية.

واللافت للإنتباه أن ما جرى في السودان منذ التاسع عشر من ديسمبر 2018م كان ثورة شعبية مكتملة الأركان وليست إنتفاضة نخبوية (21 إكتوبر 1964م، 6 أبريل 1985م) فالثورة

(1) مجلة ألْفلزم للدراسات التاريخية والحضارية،العدد 16، 2022م :67–74.

مفهوماً كما هو معلوم– هدم وبناء وقطيعة مع الآخر بإتجاه المستقبل وليست مجرد تغيير فوقي في بنية المجتمع... وضعت ثورة 19 ديسمبر 2018م الفعل في قلب شعار هذا المفهوم وذلك بإحداثها تغييراً جذرياً أفضى إلى إنهاء دولة نظام الإسلام السياسي بالسودان. وتعمل بصورة دؤوبة على وضع لبنات الدولة المدنية الديمقراطية. وهي أي الدولة المدنية الديمقراطية هي القادرة على غرس المفهوم الجديد للدولة العصرية (دولة ما بعد الحداثة)، وهي دولة المواطنة التي يعيش فيها الجميع سواسيةً أمام القانون دونما تمييز إثني (عرقي) أو جهوي أو عقائدي.

نلحظ أن الجماهير هي التي أشعلت الثورة وشاركت كل أقاليم الوطن(المدن والقرى والبوادي) في إحتجاجات سلمية مطالبة بالحرية والسلام والعدالة. فكانت شعارات وهتافات الثورة السلمية التي سار بها الركبان تنشد التضامن والتعاضد بين مختلف المكونات الثقافية والإجتماعية والإثنية للمجموعات السكانية. وهذا ما دفعني لمقاربة بعض شعارات الثوّار التي هتفت بها ملايين الحناجر بالسؤال الوجودي الأول وهو سؤال الهوية: من أنا؟ ما علاقتي بالآخر؟ وماذا أريد أن أكون؟.(خبير2022:67).

هوية السودان القومية:

وتجدر الإشارة إلى أن هناك مقاربتان رئيسيتان لدراسة الهُوية القومية: أولاً، مقاربة الطابع الفردي للشخصية القومية. ويتمثل في سمات مشتركة بين أفراد يعيشون في وطن واحد بحيث يعد كل منهم نموذجاً لهذه الهوية. وبحيث تنعكس على شخصيته تلك السمات التي يقال أنها سمات الشخصية القومية. وهذا المثال لا ينطبق على الواقع السوداني لأنه يفترض تجانساً عرقياً وثقافياً بين مجموعات سكانية مثلما هو عليه الحال في اليابان التي تتميز بدرجة عالية من التجانس الذي أفضى إلى ظهور القومية اليابانية. وثانياً: مقاربة الطابع القومي للشخصية الفردية: وفي هذه الحالة يتم البحث عن شخصية معنوية تتعالى على الأفراد أي واحدة من تلك الكيانات الجماعية التي لا ترد إلى إصولها بل يكون لها شبه إستقلال ذاتي بالنسبة للعناصر التي تكونها. وفي هذه الحالة فإن الحديث لا ينصب على الأفراد بقدر ما يعنى بظواهر تتسم بالعمومية والثبات النسبي في المجتمع بحيث تسمح لنا بوجود ذلك الكيان المعنوي المسمى بالشخصية القومية (أنظر زكريا 1975:63) وهذا المنهج هو الأكثر مناسبة لأنه يدرس ظواهر

إجتماعية تعتمد على التنوع الإثني والثقافي وثوابت حضارية حافظت على آصرة هذا القطر منذ آجال موغلة في القدم.

وعطفاً على ما سبق ذكره، نلحظ أن شعارات وهتافات ثورة 19 ديسمبر 2018م كانت تشي بروح قومية سودانوية تعالت على القبلية والجهوية التي عمل النظام البائد على تغذيتها في وجدان الشعب السوداني. ولعل من أبرز الهتافات التي إنطلقت من مدينة عطبرة التي بدأت فيها أحد أولى الإحتجاجات الجماهيرية ضد نظام الإنقاذ: "يا عنصري ومغرور كل البلد دارفور"، وردت عليها جماهير دارفور بأقصى الغرب السوداني "ياعنصري وغدار عطبرة الحديد والنار" وثمة هتافات أخرى مشبعة بالروح القومية منها "جيش واحد وشعب واحد" و "سودانا فوق سودانا فوق". ولا ريب أن مثل هذه الهتافات التعاضدية والمتبادلة بين مواطني أقاليم السودان والتي جعلتها ميسورة وسائل التواصل الإجتماعي (الميديا) الأسفيرية ترمي إلى توحيد الجهود لإزالة نظام جثم على صدر الوطن ما يقارب ثلاثة عقود من الزمان وأذاق أهله الأمرين تؤمي بروح قومية لهوية جامعة بالإمكان نعتها بأنها "هوية سودانية أو "هوية سودانوية– Sudamism" تستبطن شخصية قومية. ويرى الباحث ر. لنتون R. Linton أن مفهوم الشخصية القومية يقصد به "نمط الشخصية الذي يتميز بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في المجتمع الواحد (أنظر خبير 2007: 2) ويرى آخرون أن الهوية أو الخصوصية تتشكل من وشائج أساسية تتمثل في الثقافة والعرق والإقليم ويشعر أفرادها بغرض كبير مشترك يمكن أن يطغى ويحجب الأغراض الجزئية الصغيرة، وتمنح الهوية الأفراد والجماعات قاعدة عميقة راسخة من الشعور بالإنتماء والإعتزاز والأمن (سليمان 2012– 38).

ومما يلزم التنويه به أن السودانيين ومنذ أقدم العصور كانت لهم أشواق نحو إنتماء مشترك (وحدة في المشاعر والإرادة والمصالح) تجسده وحدة سياسية تستوعب التنوع الإثني (العرقي) والثقافي. وتشير المكتشفات الأثرية إلى أن أول المحاولات نحو بلورة نظام سياسي– إجتماعي يعمل على تنظيم العلاقات الإقتصادية والثقافية بين المجموعات السكانية التي قطنت السودان القديم قد تمت في فترة ما قبل التاريخ المتأخر حيث تحولت المجموعات القبلية إلى مشيخات. وتوحدت الأخيرة في بوتقة دولة المدينة (City State) التي تمثلها مملكة كرمة في شمال السودان (2500– 1500 ق.م). وتعتبر كرمة أول بناء سياسي مؤسسي تحت سلطة

مركزية جمع السودان القديم (كوش) تحت وحدة حضارية واقتصادية يسندها حيث نظامي دخل به المعترك العالمي. وكان لهذه الدولة ثقلها الإقليمي في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. (الحاكم 1990: 86- 87).

وتعتبر مملكة كوش الثانية "مروي" (900 ق. م- 350م) هي المحاولة الثانية لأهل السودان للوحدة السياسية حيث برزت على المسرح السياسي كدولة ومن ثم إمبراطورية قوية بسطت سلطاتها على كل وداي النيل في منتصف القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد (751 ق. م- 664 ق. م) (خبير 2007، مرجع سابق: 10).

وتشير المخطوطات الأثرية إلى دخول السودان القديم في حقبة من التشظي والتشرذم دامت قرنان ونيف من الزمان إنفرط خلالها عقد الدولة المركزية. وبنهاية هذه الفترة برز نموذج الدولة الثيوقراطية (الدينية) التي يمتلك فيها الحاكم السلطتين الزمنية والروحية متمثلاً في ظهور الممالك المسيحية الثلاث (نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، والمغرة وتحتل المنطقة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية) وعاصمتها دنقلا العجوز) في حين أن مملكة علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم تشمل منطقة شاسعة تمتد من الأبواب (كبوشية) شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من النيل الأزرق وبعض جهات كردفان (خبير 2002: 26- 27).

وإستمر نموذج الدولة الثيوقراطية حتى بعد إنهيار الممالك المسيحية بظهور دولة الفونج (السلطنة الزرقاء) (1504- 1821م) بسبب التحالف بين الفونج والعرب (العبدلاب) في أواسط السودان والذي أدى إلى نهاية مملكة علوة المسيحية. ويمتد نفوذها من دنقلا شمالاً إلى النيل الأزرق (فازوغلي) جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض جنوباً. وتمثل أقوى وحدة سياسية ظهرت في السودان في العصر الوسيط. وكانت إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان رغم ظهور بعض الممالك الإسلامية الأخرى في مناطق أخرى من السودان مثل دولة المسبعات بكردفان (1559- 1821م)، دولة دارفور (1640- 1874م، 1898- 1916م) ودولة تقلي بجبال النوبة (1570- 1927م). ورغم أن دولة الفونج كانت أكبر هذه الممالك وأكثرها منعة إلا أن محاولاتها لقيام كيان سياسي عريض يضم الممالك المسيحية الثلاث في غرب السودان قد جانبه التوفيق (المرجع نفسه: 29- 35).

وشهدت فترة الحكم التركي- المصري (1821- 1885م) بزوغ أول وحدة سياسية للسودان الحديث. وبالرغم من أن الهدف الأسمى من ضمه لحوزة الدولة العثمانية كان كولونيالياً إقتصادياً. وبسطت الدولة التركية- المصرية سلطانها على أغلب المناطق التي كانت تحت حكم المشيخات والسلطنات الإسلامية السودانية غير أنها فشلت في حكم البلاد بسبب طبيعتها الإستعلائية وقهرها للشعب السوداني (خبير 2007م، مرجع سابق: 12).

وتمكنت الثورة المهدية (1885- 1898م) من إستقطاب الكيانات السودانية التي تضررت من نظام الحكم التركي- المصري ونجح المشروع الآيدولوجي للثورة المهدية من تحرير السودان من نير الحكم الأجنبي وإقامة دولته الوطنية. غير أن عهد المهدية إتسم بعدم الإستقرار السياسي والحروب الخارجية. وأدى كل ذلك إلى إنهاك مفاصل الدولة التي فشلت في حماية حدودها وإقامة علاقات ودية مع جيرانها. فكانت الثغرة التي نفذ منها الحكم البريطاني- المصري للسودان 1898م واضعاً النهاية للدولة السودانية التاريخية الرابعة (خبير 2006: 13- 32).

ودخل السودان في عهد الحكم البريطاني- المهدي عام 1898م مرحلة جديدة من تاريخه الحديث حيث إستطاعت الدولة الكلونيالية (Colonial State) أن تفرض مشروعها السياسي والثقافي على أهل السودان، إلا أنها لم تستطع أن تمحو أو تذيب النظم والثقافات المحلية للمجموعات السكانية، وربما عملت على إحيائها في بعض الحالات. ومن ناحية أخرى، لم تفلح الدولة الإستعمارية في إحكام قبضتها على الأراضي السودانية بصورة نهائية وكاملة، إذ أن المعارضة والثورة إستمرت لفترة طويلة إلى أن تحقق الإستقلال في 19 ديسمبر 1955م وأعلن بشكل رسمي في غرة يناير 1956م. وقامت الدولة السودانية الحالية في حدود الممالك والسلطنات السودانية القديمة وتلك التي رسمها الحكم الأجنبي وفق مواثيق ومعاهدات دولية.

وفشل السودان في تأسيس دولة مدنية ديمقراطية رغم مرور ما يزيد عن ستة عقود من الإستقلال. وظل السودان يراوح مكانه بين ديمقراطية شكلية (1956- 1958م، 1965- 1969م، 1985- 1989م) ودكتاتوريات عسكرية (1958- 1964م، 1969- 1985م، 1989- 2019م) إقصائية للآخرين.وأدى ضعف الدولة إلى تسهيل عملية الإنقلابات وأسهم في تشظي المجتمع إلى حد كبير (أنظر: علي 1995: 7- 9).

ويبدو أن التنوع الثقافي (الآفروعربي) قد حفز بعض الباحثين السودانيين للنظر في قضية الهوية السودانية بإعتبارها هجنة أفريقية– عربية. فظهرت في الستينات "جماعة الغابة والصحراء" الأدبية (أبرز دعاتها محمد المكي إبراهيم، النور عثمان أبكر، علي عبدالقيوم، صلاح أحمد إبراهيم وآخرون). وكانت ترى أن الثقافة السودانية خلاسية فـ(الغابة) لها مقابل مكمل لما هو عربي (الصحراء). ويومئ ذلك كما يستبان من أدبياتها إلى تعادلية التأثير والتأثر. وشهدت حقبة الثمانينات نظرة أكثر شمولية لقضية الهوية الحضارية والثقافية السودانية برؤية تجمع كافة ثقافات أهل السودان عرفت بالسودانوية (Sudanism). ومن أبرز دعاتها أحمد الطيب زين العابدين (أستاذ بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا) و نورالدين ساتي (أستاذ جامعي فسفير متقاعد). فالأول (زين العابدين) ينظر إلى "السودانوية" من داخل التجانس الثقافي في الثقافة السودانية. أي أنها التعدد في الوحدة والتثاقف الفريد بين رافدي هذه الثقافة الرئيسيين (الأفريقي والعربي) مع الإعتراف بتفرد الخصوصية الثقافية والحضارية للموروث السوداني والإقرار بأن رافده الأفريقي هو الركيزة الأساسية في تيار السودانوية (زين العابدين 991: 33– 37، 1999: 67). أما ساتي فعلى رأي مؤداه أن ما جعل السودان متماسكاً عبر عشرات السنوات هي "السودانوية" أو ما أسماها "روح الإنفتاح على الآخر" إن كان ذلك داخل الحدود الجغرافية أو خارجها سيما وأن السودان بطبيعته بوتقة إنصهار الثقافات والأعراق في قلب القارة الأفريقية (ساتي 2010: 11).

وعاد السودان مرة أخرى للتشظي والتشرذم في عهد حكومة الإنقاذ (يونيو 1989– أبريل 2019م) بسبب سياسة التطرف والإنغلاق وأحادية التوجه التي ترى أن تختزل الأمة السودانية في عنصر واحد وعرق واحد وثقافة واحدة (قوس قزح) (أنظر المرجع السابق: 11) في بلد يعاني أصلاً من هشاشة في وحدته الوطنية، ضعف في بنياته المؤسسية ومن طغيان الروابط الأولية (القبلية والجهوية) على رابطة الوحدة الوطنية التي هي المرتكز للدولة القطرية الحديثة.

ويبدو أن الأسباب السالفة الذكر هي أساس ثورة التاسع عشر من ديسمبر 2018م والتي جعلت قضية الهوية الحضارية في مقدمة أولوياتها. ولا ريب أن هذه الثورة التي قادها الشباب نجحت في كسر العديد من التابوهات(Taboos) القبلية والجهوية والطائفية وشاركت فيها كل مكونات المجتمع السوداني ومن كافة أقاليمه. وليست أدل على ذلك من شعاراتها المشار إليها

بعاليه ومنها أيضاً: جيشنا معانا وما همانا، الجيش جيش السودان ما جيش الكيزان، جدّنا ترهاقا وحبوبتنا كنداكة؛ من كاودا لأم درمان كل البلد سودان. وكان الثوار يهتفون بهذه الشعارات في التظاهرات والإضرابات والإعتصامات على أنغام الأناشيد الوطنية التي تستدعي تاريخ وأمجاد ممالك السودان القديم (كوش 2500 ق. م– 350م) وتعمل على رفع وتيرة الحس الوطني. ولعل إنبثاق الهوية الحضارية السودانية من زخم التعدد والتنوع مدها بمصادر ثراء وخصب ودفعها عفواً وقصداً نحو التفاعل الطوعي والتواصل النفسي والوجداني عبر ضرورات التفاعل وتداخل سبل كسب العيش. وخير شاهد على ذلك إعتماد القوميات الأفريقية (الزنجية) والعربية على إختلاف أصولها اللغوية– اللغة العربية أداة للتخاطب فيما بينها (خضر 1995: 57– 58). ويشير ذلك إلى شعور السودانيين برابط وطني واحد تجسده لغة مكتوبة. وكان هذا ما أنجزته ثورة السودان الشعبية الثالثة تعزيزاً للإنتماء الثقافي والحضاري والجيوسياسي المشترك(خبير 2022:74–72).

خاتمة:

ومما تم ما يراده آنفاً، نلحظ أن هناك قواسماً مشتركة في اللغة والثقافة والتوجه الحضاري وأشواق الوحدة السياسية لأهل السودان عملت على تمتينها المجموعات الأهلية الإجتماعية ومنظمات المجتمع المدني عبر الندوات والمحاضرات والكرنفالات ومواقع التواصل الإجتماعي (Social Media) الأسفيرية التي بلورت شعوراً شعبياً بإنتماء مشترك. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن مشاريع النهوض الحضاري السوداني (ثقافياً وسياسياً) والتي كشفت عنها الحفريات الآثارية والسجلات التاريخية وعضدها الواقع المعاش (ثورة 19 ديسمبر 2018م) لا تجترحها إلا أمة تشعر بتمايز عن غيرها من الأمم. وهذا بالطبع لا يتأتى إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري (الطابع القومي للشخصية الفردية) الذي يسمح بالإقرار بوجود كيان معنوي جدير أن يتسمى بـ"الشخصية القومية" بغض النظر عن الولاءات العرقية والجهوية والأيدولوجية، وهذا ما كان من شأن السودان منذ عشرات القرون وحتى اليوم.

قائمة المراجع:

1- الحاكم، أحمد محمد علي 1990م هوية السودان الثقافية: منظور تاريخي، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم.

2- خبير، عبدالرحيم محمد 2002م نشوء الدولة السودانية: منظور أركيولوجي- تاريخي، مجلة "دراسات أفريقية"، جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم: 26- 27.

3- خبير، عبدالرحيم محمد 2006م النزاعات الحدودية بين السودان والدول المجاورة (2500- 1956م): منظور آركيولوجي- تاريخي، مجلة "كتابات سودانية": 13-32.

4- خبير، عبدالرحيم محمد 2007م الشخصية السودانية من منظور آركيولوجي- تاريخي: دراسة حالة السودان. مجلة "آداب" العدد 25، جامعة الخرطوم: 1-14.

5- خبير، عبدالرحيم محمد 2022م السودانوية في هوية السودان القومية : دراسة حالة ثورة 19 ديسمبر 2018م . مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية ، العدد 16 (مزدوج) : 74-67 .

6- خضر، الشفيع 1995م الهوية السودانية: محصلة التنوع والتعدد: 35- 65، في: التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية في السودان. أبحاث مركز الدراسات السودانية الدورية 1-3 أبريل 1995م، القاهرة.

7- زكريا، فؤاد 1975م آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة.

8- زين العابدين، أحمد الطيب 1991م "حروف" مجلة فصلية، فكرية، ثقافية عدد مزدوج (3-2): 23- 37.

9- زين العابدين، أحمد الطيب 1999م السودانوية: تيسر فهماً عميقاً لهويتنا الثقافية، في مجلة "كتابات سودانية"، العدد الخامس: 67- 87.

10- ساتي، نورالدين 2010م ما السودان؟ ومن هم السودانيون؟ في صحيفة "التيار" اليومية العدد 423: 11.

11- سليمان، إدريس 2012م أزمة الديمقراطية في أفريقيا. محسن القرشي للخدمات الطباعية، الخرطوم.

12 علي، حيدر إبراهيم 1995م "مقدمة" في: التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية، أبحاث مركز الدراسات السودانية الدورية 1-3 أبريل 1995، القاهرة.

أ.د. عبد الرحيم محمد خبير ..

المؤهلات العلمية:

- بكالريوس مرتبة الشرف في علم الآثار – جامعة الخرطوم، مايو 1977م.
- ماجستير في علم الاثار جامعة الخرطوم 1982م.
- دكتوراة في علم الآثار ، جامعة ساوثامبتون Southampton 1996م

المناصب التى شغلها :

- محاضر بجامعة الملك سعود ، الرياض (المملكة العربية السعودية:1983م ، 2000م) .
- أستاذ مشارك بجامعة جوبا - مركز الخرطوم (2000م2006-م) .
- أستاذ (Professor) آثار وتاريخ أفريقيا والشرق الأدنى القديم بجامعة بحري (2007 حتى اليوم) .
- الرئيس المؤسس لقسم الآثار بجامعة بحري (جامعة جوبا سابقاً)(2000-2011م)
- عميد كلية الدراسات العليا بجامعة بحري (2013-2017م) .

الجوائز والشهادات التقديرية :

- جائزة عبد الرحمن آدم للتميز العلمي في تخصص الآثار من جامعة الخرطوم (بالمشاركة) (غازتية جامعة الخرطوم 1974م).
- جائزة الجدارة العلمية من الإتحاد العام للآثاريين العرب ، القاهرة ، (8 أكتوبر 2020م).
- شهادة تقديرية ودرع التميز الأكاديمي لجامعة بحري (أول فبراير2021م) .

المساهمات العلمية والثقافية والإجتماعية :

- أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في مجال الآثار والتاريخ القديم .
- نشر الكثير من البحوث باللغتين العربية والإنجليزية في دوريات علمية محكمة في داخل وخارج السودان .
- له العديد من الإصدارات في مجال الآثار كما ترجم مؤلفات عن آثار المملكة العربية السعودية (1990م) وقطر (1998م) .
- عضو في العديد من الجمعيات العلمية داخل وخارج السودان .
- من المهتمين بالشأن الثقافي والعام حيث نشر الكثير من المقالات في الصحف السيارة والمجلات والملاحق والثقافة والمواقع الاسفيرية في الآثار والتاريخ والتراث والنقد الأدبي وقضايا المجتمع. والقى العديد من المحاضرات العامة داخل وخارج السودان .
- أجرى مسوحات وتنقيبات في مواقع أثرية لعصور مختلفة بالسودان (1978-1991م) وشارك في أعمال آثاريه بداخل السودان وخارجه (جامعة الخرطوم) (جامعة الملك سعود بالرياض، ساوثامبتون (بريطانيا) . وفاخنين (هولندا).